جمع وإعداد
أحمد فائز

اليوم الآخر في ظلال القرآن

مؤسسة الرسالة

اليوم الآخر

في ظلال القرآن

جمع وإعداد

أحمد فائز

مؤسسة الرسالة

الطبعة السابعة عشر
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣-٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقيا: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

إن قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام ؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الله . والتي لا يقوم هـذا الدين - عقيدة وتصوراً ، وخلقاً ، وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً - إلا عليها وبها ..

إن هذا الدين الذي أكمله الله ، وأتم نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم ديناً - كما قال لهم في كتابه الكريم - هو منهج للحياة كامل في حقيقته ، متكامل متناسق في تكوينه .. « يتكامل » ويتناسق فيـه تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية ، مع شرائعه التنظيمية .. وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيـه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة - في التصور الاسلامي - ليست هي الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة - في التصور الاسلامي - تمتد طولاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعـاً في الحقيقة .. عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة — في التصور الاسلامي — تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المحدودة المشهودة — فترة الحياة الدنيا — وفترة الحياة الأخرى التي لايعلم مداها إلا الله ؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس اليها ساعة من نهار !

وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم نحن إلا ما أخبرنا به الله . وجود يبدأ من لحظة الموت ،وينتهي في الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الانساني في صور لا يعلمها إلا الله وتمتد الحياة في حقيقتها؛فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا ، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى .. في الجنة وفي النار سواء .. وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا ولا تساوي الدنيا — بالقياس اليها — جناح بعوضة !

والشخصية الانسانية — في التصور الاسلامي — يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان ، وفي هذه الآفاق من المكان ، وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات، ويتسع تصورها للوجود كله ؛ وتصورها للوجود الانساني ، ويتعمق تذوقها للحياة ؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها ، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات .. بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يتضاءل تصورهم للوجود الكوني ، وتصورهم للوجود الانساني ، وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا !.

ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم ، ويبدأ الاختلاف في النظم .. ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق ؛ وتتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه : تصوراً واعتقاداً وخلقاً وسلوكاً وشريعة ونظاماً ..

إن إنساناً يعيش في هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات غير انسان يعيش في ذلك الجحر الضيق ويصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض يفوته ، ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به .. إلا في هـذه الأرض ومن هؤلاء الناس !

إن اتساع التصور وعمقه ينشىء سعة في النفس وكبراً الاهتمامات ورفعة في المشاعر ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك ، غير خلق وسلوك ، غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم ! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه ، طبيعة هـذا التصور ، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ؛ استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ، وصلح خلق الفرد واستقام سلوكه — متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الاسلامي — وصلحت الأوضاع والأنظمة،التي لايتركها الأفراد تسوء وتنحرف ، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة ! فيخسرون الدنيا والآخرة !

والذين يفترون على عقيدة الآخرة فيقولون : إنها تدعو النـاس إلى السلبية في الحياة الدنيا ، وإلى اهمال هـذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها واصلاحها ، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة .. الذين يفترون هذا الافتراءعلىعقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة — كما هي في التصورات الكنسية — وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم . فالدنيا — في التصور الاسلامي — هي مزرعة الآخرة والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ودفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً . كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهـدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى .

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ،أو

تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح والعمران .. وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟

إن النـــاس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين ، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا — مع ادعائهم الإسلام — فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للاسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هـذا الدين ، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة . فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ؛ وهو يعي حقيقة هـذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلبياً أو متخلفاً أو راضياً بالشر والفساد والطغيان .

إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لترقية هـذه الحياة وتسخير طاقاتها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملاً الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة ..

إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ؛ وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى .

وكل جزئية في النظام الاسلامي منظور فيها إلى حقيقة الحيـــاة الآخرة ؛ وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع ؛ وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتحرج وتقوى ، ومـــا تنشئه في النشاط الانساني من تسديد وثقة وتصميم .

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الاسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة .

وكان العرب في جاهليتهم — وبسبب من هذه الجاهلية — لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هـذه الحياة الدنيا ، ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر ، ولا في امتدادات الذات الانسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير

هذه الآماد المحسوسة . مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراته . شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة . « العلمية » كما يصر أهلها على تسميتها ! « وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .

وكان الله — سبحانه — يعلم أن الإعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة .. هذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصور ، التي تلصق الإنسان بالأرض ، وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة .. وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، التي تطلق السعار في النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح ، ولا هدنة ، ولا أمل في عوض ، إن لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة ، التي لاتكاد تبلغ نزوات البهيمة !.. وهذه الأنظمة والأوضاع التي تنشأ في الأرض منظوراً إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ؛ بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان .. إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضاً ، وتصارع الطبقات بعضها بعضاً ، وتصارع الأجناس بعضها بعضاً . وينطلق الكل في الغابة انطلاقاً لا يرتفع كثيراً عن انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهده اليوم في عالم « الحضارة » .. في كل مكان .. كان الله — سبحانه — يعلم هذا كله ، ويعلم أن الأمة التي قدّر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية ، وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية .. أنّ هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة .. من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ...

ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة .. أولاً لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانياً لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان تصوراً واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً .

إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور ، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة

ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة .. كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة ، عن المضي في التبشير بالخير ، وفعل الخير والقيـــادة إلى الخير ، على الرغم من النتائج القريبة والتضحيات الأليمة .. وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة ..

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس «الإنسان» وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك « الحيوان » ! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة !.

لذلك كله كان التوكيد شديداً على عقيدة الآخرة في دين الله كله .. ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح .. حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً .. وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية ، تلك القيـــادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني !.

ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في القرآن .. الإيقاعات التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ، فتتفتح نوافذها وتستيقظ أجهزة الإستقبال فيها ، وتتحرك وتحيا ، وتتأهب للتلقي والإستجابة .. ذلك كله فضلاً على أنها تمثل الحقيقة .

إنها إيقاعات عنيفة عميقة . إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية . وصيحات . صيحات بِنُوَّم غارقين في النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الخمار ! أو بيلاهين في سامر راقصين في ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من هـــذا القرآن بنذير واحد . اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا تدبروا .. إن هنالك إلهاً . وإن

هنالك تقديراً . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنـالك حساباً وإن هنـالك جزاء . وإن هنالك عذاباً شديداً . ونعيماً كبيراً .. اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا .. وهكذا مرة أخرى . وثالثة . ورابعة وخامسة .. وعاشرة .. ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النـــائمين المخمورين السادرين هزاً عنيفاً ؛ ويعود الصوت العـالي يصيح بهـــم من جديد ، وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب وفي القـرآن تركيز على مشاهد القيـامة العنيفة الطامة . الصاخة . القارعة . الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعـذاب في صور تقرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في هولها وضخامتها ..

كثيرون هُم المسلمون اليوم .. ولكن قليل من يُؤمن بالآخـرة عن يقين .. قليل من يخشى ذلك اليوم ويعمل له ..

إن الايمـــان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك . والاسلام عقيدة متحركة ، لا تطيق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها في الخـارج ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع . ومنهج الاسلام الواضح في التربيـة يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعيـة ، وتحويل هـذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون . مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل .

وكثيرون هم الذين يقولون . « آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » .. يقولونها بأفواههم ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم فيتولون ناكصين ؛ يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان : « وما أولئك بالمؤمنين » ..

فالمؤمنون تصدق أفعالهم أقوالهم ، والايمـان ليس لعبة يتلهى بهـا صاحبها ، ثم يدعهـا ويمضي إنما هو تكيُّف في النفس وانطباع في القلب ، وعمـل في الواقع ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير .

يقول الحسن البصري « هيهات هيهات ، أهلك الناس الأماني ، قول بلا عمل ،

ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، مالي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً ،وأسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرّموا ثم استحلوا ، إنما دين أحدكم لعقةعلى لسانه إذا سُئل أمُؤمنٌ أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين .

إن من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وايماناً في يقين ، وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم وكَيّساً في رفق ، وتجملاً في فاقة ، وقصداً في غنى ، وشفقة في نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء في الحقوق ، وإنصافاً في الاستقامة ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم في مساعدة من يحب ، لا يلمز ولا يغمز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ، ولا يلعب ، ولا يمشي بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذي عليه » ...

يقول بلال بن سعد : « عباد الرحمن : يُقال لأحدنا أتحب أن تموت ؟ فيقول : لا ، فيُقال : لِمَ ؟ فيقول : حتى أعمل ، ويقول سوف أعمل ، فلا يحب أن يموت ولا يحب أن يعمل ، وأحبّ شيء اليه أن يؤخر عمل الله ، ولا يحب أن يؤخر عنه عرض الدنيا » . ويقول : « يا أهل الخلود ، يا أهل البقاء ، أنتم لم تخلقوا للفناء ، إنما خلقتم للخلود والأبد ، ولكنكم تُنقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ثم إلى الخلود في الجنة أو النار » ..

إن صور الآخرة هي لإشعار البشر بهولها وضخامتها وجدّيتها ، وأصالتها في التقدير الالهي ، إنها صور لذلك الجو الراجف الواجف المبهور المذعور .فرُبّ مسرور مغبون يأكل ويشرب ويضحك وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار . فياويلاً له روحاً ، وياويلاً له جسداً .

يقول بلال بن سعد : « انكم تتكلمون ويوشك الله أن يتكلم وتسكتوا ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسوّد منه الوجوه « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون » .

« عباد الرحمن : لو غُفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل ، ولو عملتم بما تعلمون لكنتم عباد الله حقاً ! لكانّا قوم لا يعقلون ! لكانّا قوم لا يؤمنون !

.« تنادى النار يوم القيامة : يا نار أحرقي ، يا نار اشتفي ، يا نار انضجي ، يا نار كُلي ولا تقتلي ، يا نار شَوّهي ! ويقول ميمون بن مهران : يا ابن آدم خفف عن ظهرك ، فإن ظهرك لا يطيق كل الذي تحمله عليه من ظُلم هذا وأكل مال هذا ، وشتم هذا .. كل هذا تحمله على ظهرك فتخفّفْ ! » .

يقول الأوزاعي : « ليست ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله تعالى فيها إلا انقطعتْ نفسُه عليها حسرات ، فكيف إذا مَرّت به ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم وليلة مع ليلة ؟ » ..

فَكّر فيما كنت تكابد من ألم الطاعة ، فإذا الألم سيذهب ويبقى الثواب ، وانظر فيما استمتعتَ به من لذة المعصية ، فاذا هو سيذهب ويبقى الحساب .. فستندم على كل لحظة لم تجعلها في طاعة .

إن المقاييس كلها تتبدّل ساعة الموت ، وإذا كُلُّ ما كنت أحبُّه وأنازعُ عليه ، قد صار عدماً ! وإذا أنا لم آخذ منه معي شيئاً ، بنيتُ داراً فما حملتُ معي منه حجراً ، واقتنيتُ مالاً فما كان لي منه إلا ما ظننتُ من قبل أني خسرته ، وهو ما أخرجتُه لله ، وعرفتُ لذائذَ الحياة كلها ، فما الذي بقي في يدي وأنا أموت من لذائذ الحياة كلها ؟

ونحن لا نعرف من الموت إلا ظاهره دون حقيقته ، نراه عدماً ، وننـدب القريب والحبيب إن وضعناه في حفرة باردة ، وخلّفناه وحيداً ، تأكلهُ الدود ، وليس حبيبك الذي أودعتَه الحفرة ، ولكن جسده ، والجسد ثوب يخلع بالموت ، كما تخلع الحيّة ثوبها ، فهل يبكي أحدٌ على ثوب خَلع ؟

وما الموت إلا انتقال إلى حياة أرحب وأوسع ، إلى النعيم الدائم أو الشقاء الطويل ، ولو كان الموت فناءً لكان نعمة .. فاذا كان الموت سفرة لا بد منها ، فالعاقل من تهيأ لها ، وأعدّ لها الزاد والراحلة ، وذكرها دائماً كيلا ينساها، ونظر في كل شيء ، فإن كان مما يستطيع أن يحمله فيها حرص عليه ، وإن كان مجبراً على تركه وراءه زهد فيه وانصرف عنه . ونحن في هذا العصر نرى أن المجتمعات الاسلامية قد افترستها المادية ، واستحوذت عليها الشهوات ، وأصيبت بالاغراق في الترف والامعان في الأماني .

ونحن في حاجة ملحة إلى مواعظ الآخرة التي تكشف الغطاء عن العيون وتمس القلوب .. وهذا الكتاب قد استخرجت فصوله من كتاب « في ظلال القرآن » المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الأساسية ، وقد بوّبته مستعيناً بهدي النبي[1] ﷺ الذي كان الصورة الحيّة عن القرآن الكريم . وبهذا البيان القرآني والهدي النبوي أصبح العالم الآخر الذي وعده الله للناس بعد هذا العالم الحاضر ليس موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيّاً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً .

لقد عاش المسلمون في ذلك العالم .. رأوا مشاهده وتأثروا بها .. فلا بد لنا من استعراض مشاهد العالم الآخر حتى نؤمن به أنه ليس عالماً مستقبلاً بل واقعاً مشهوداً نقيم على أساسه كل تصوراتنا وكل أعمالنا ..

والله ولي التوفيق .

---

(١) وقد اعتمدت في تخريج الاحاديث الشريفة على جامع الاصول في احاديث الرسول ، وكتاب الترغيب والترهيب ، سائلاً الله التسديد والتصويب .

الباب الأول

طريق الآخرة

١ ـ أهمية الآخرة في التصور الاسلامي

إن قضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية ؛ قاعدة تقوم عليها العقيدة، ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة . فالمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر وأن يجعل نشاطه كله في الأرض عبادة لله بالتوجه في هذا النشاط كله لله . ولا بد من جزاء للعمل ، وهذا الجزاء قد لا يتم في رحلة الأرض فيؤجل للحساب الختامي بعد نهاية الرحلة كلها. فلا بد إذن من عالم آخر ولا بد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر . وحين ينهار أساس الآخرة في النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليفها ، ولا تستقيم هذه النفس على طريق الاسلام أبداً .

والإيمان بالبعث والحشر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل في العقيدة لا يستقيم منهجها إلا به . فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الانسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجيباً من قضية

البعث والدار الآخرة ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور .. « وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ؟ لقد وُعِدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ، إن هـذا إلا أساطير الأولين » .. ولم تكن معجزة بدء الحياة التي لا تُنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة . وتستمرىء الجحود والمعصية وتستطود في الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب ولا يعلم الغيب إلا الله .. « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون ، بل ادّارك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون » .

لقد وقف الانسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لا ينفذ اليه علمه ، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل ، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب . وإن موعد البعث غيب فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقيناً ، ولا يشعرون به حـــين يقترب شعوراً فذلك من الغيب الذي يقرر أن لا أحـــد يعلمه في السموات ولا في الأرض ..

لقد كانت هذه العقدة التي يقف أمامها الذين كفروا دائماً : أإذا فارقنا الحياة ، ورمت أجسادنا وتناثرت في القبور ، وصارت تراباً .. أإذا وقع هذا كله — وهو يقع للموتى بعد فترة من دفنهم إلا في حالات نادرة — أإذا وقع هـذا ولآبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نبعث أحيـــاء كرة أخرى ، وأن نخرج من الأرض اختلط رفاتنا بترابها فصار تراباً ؟ .

يقولون هذا وتقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى. وينسون أنهم خُلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئاً . ولا يدري أحـــد أين كانت الخلايا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى .

فلقد كانت مفرقة في أطواء الأرض وأعماق البحار وأجواء الفضاء ، فمنها ما جاء

من تربة الأرض ، ومنها ما جاء من عناصر الهواء والماء ، ومنها ما قدم من الشمس البعيدة ، ومنها ما تنفسه إنسان أو نبات أو حيوان ، ومنها ما انبعث من جسد رمّ وتبخرت بعض عناصره في الهواء .. ثم تمثلت هذه الخلايا في طعام يأكلونه ، وشراب يشربونه ، وهواء يتنفسونه ، وشعاع يستدفئون به .. ثم إذا هذا الشتيت الذي لا يعلم عدده إلا الله ، ولا يحصي مصادره إلا الله ، يتجمع في هيكل إنسان ، وهو ينمو من بويضة عالقة في رحم ، حتى يصير جسداً مسجى في كفن .. فهؤلاء في خلقتهم أول مرة فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر في المرة الآخرة ! ولكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شيء من الاختلاف .

وإنكار الذين كفروا بالآخرة ناشيء من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره . فحكمة الله لا تترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء ، ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته .. « قال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . قل بلى وربي لتأتينكم » .. فكل من يدرك الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره .. ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة.

« وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزّقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ! افترى على الله كذباً أم به جنّة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » ..

هل ندلكم على رجل غريب عجيب ينطق بقول مستنكر بعيد ، حتى ليقول : إنكم بعد الموت والبلى والتمزيق الشديد تخلقون من جديد وتعودون للوجود . فما يقول هذا الكلام — بزعمهم — إلا كاذب يفتري على الله ما لم يقله .. فهو يهذي أو ينطق بالغريب العجيب ولِمَ هذا كله ؟ لأنه يقول لهم : إنكم سوف تخلقون خلقاً جديداً ! وفيم العجب وهم قد خُلِقوا ابتداءً ؟ إنهم لا ينظرون هذه النظرة العجيبة الواقعة وعجيبة خلقهم الأول . ولو قد نظروها وتدبروها ما عجبوا أدنى عجب للخلق الجديد ، ولكنهم ضالون لا يهتدون .

إن الذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي لا أمل له ولا رجاء ولا عـدل ولا جزاء ، ولا عوض عما يلقاه في الحياة . وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الانسان على مواجهتهـا إلا وفي نفسه رجاء الاخرة ، وثوابها للمحسن وعقابها المسيء ، وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه في ذلك العالم الاخر ، الذي لاتضيع فيه صغيرة ولا كبيرة . والذي يُحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولا ريب في العذاب كما يعيش في الضلال . يعيش فيهما وهو حي على هـذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الاخرة جزاء على هذا العذاب الذي لقيه في دنياه .

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبها الله لمن يستحقها من عباده بإخلاص القلب ، وتحري الحق ، والرغبة في الهدى . إن الحياة في نظر الذين لا يؤمنون بالآخرة هي هذا الشوط الذي يرونه في الدنيا رأي العين . جيـل يموت وجيـل يحيا . وفي ظاهر الأمر لا تمتد اليهم يد الموت ، إنما هي الأيام تمضي ، والدهر ينطوي ، فإذا هم أموات، فالدهر إذن هو الذي ينهي آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون .. « وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » وهي نظرة سطحية لا تتجاوز المظـاهر ، ولا تبحث عما وراءها من أسرار . وإلا فمن أين جاءت إليهم الحياة ، وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم ، والموت لا ينال الأجسام وفق نظام محدود وعدد من الأيام معين ، حتى يظنوا أن مرور الأيام هو الذي يسلبهم الحياة . فالأطفال يموتون كالشيوخ ، والأصحاء يموتون كالمرضى ، والأقوياء يموتون كالضعفاء . ولا يصلح الدهر إذن تفسيراً للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاحصة ويحاول أن يعرف وأن يدرك حقيقة الأسباب . إنهم يظنون ظناً واهياً ، لا يقوم على تدبر ولا يستند إلى علم .

٢ — حقيقة الآخرة وأثرها في النفس الانسانية

ما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الانسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة .

إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة . نعمة يفيضها الإيمان على القلب . نعمة يهبها الله للفرد الفاني ، المحدود الأجل الواسع الأمل . وما يغلق أحد على نفسه هـذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة . فالإيمان بالآخرة ــ فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق وجزائه الأوفى ــ هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية ، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض ؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق ، الذي لا يعلم إلا الله مداه ، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله .

والإعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفي القلق والسخط والقنوط .. إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض ، والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة .. إن الحساب الختامي هناك ، والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب . فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه ، ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس ، فسوف يوفّاه بميزان الله . ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد ، فالعدل لابد واقع . وما الله يريد ظلماً للعباد . والإعتقـاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات ، بلا تحرج ولا حياء . فهناك الآخرة فيها عطـاء ، وفيها غنـاء ، وفيها عوض عما يفوت . وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة ، وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتـاحة هي فرصة هـــذا العمر القصير المحدود .

إن القرآن يلمس القلب البشري لمسة قوية ، إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أزيل من مالكيه الأوائل وأجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مكنوا فيـه ، وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك .. يقول ــ سبحانه ــ : .. « ثم جعلنـــاكم خلائف في في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » ..

إنها أيام يقضيها الانسان فيه ، ممتحناً بما يكون منه ، مبتلى بهـذا الملك ، محاسباً

على ما يكسب بعد بقاء فيه قليل .. إن هـذا التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري .. فوق أنه يرى الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع يظل يثير فيه يقظة وحساسية وتقوى ، هي صمام الأمن له وصمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه .

إن شعور الانسان أنه مبتلى وممتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض ، وبكل شيء يملكه ، وبكل متاع يتاح له ، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة ، ويعطيه وقاية من الاستغراق في متاع الدنيا ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه وممتحن فيه وإن شعوره بالرقابة التي تحيط به والتي يصورها قول الله ــ سبحانه ــ : .. « لننظر كيف تعملون » .. ليجعله شديد التوقي ، شديد الحذر ، شديد الرغبة في الاحسان وفي النجاة أيضاً من هذا الامتحان !

وهذا هو مفرق الطريق بين التصور الذي ينشئه الاسلام في القلب البشري بمثل هـذه اللمسات القوية ، والتصورات التي تحرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروي من حسابها !.. فإنه لا يمكن أن يلتقي اثنان أحدهما يعيش بالتصور الاسلامي والآخر يعيش بتلك التصورات القاصرة .. لا يمكن أن يلتقي في تصوره للحياة ، ولا في خلق ، ولا في حركة ، كما لا يمكن أن يلتقي نظامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعدة من هاتين القاعدتين اللتين لا تلتقيان !

والحياة في الاسلام حياة متكاملة القواعد والأركان . ويكفي أن نذكر فقط مثل هذه الحقيقة الأساسية في التصور الاسلامي وما ينشأ عنها من آثار في حركة الفرد والجماعة .. وهي من ثم لا يمكن خلطها بحياة تقوم على غير هذه الحقيقة ، ولا بمنتجات هذه الحياة أيضاً .

والاعتقاد باليوم الاخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة ، ومن ثم لا بد أن يلقى جزاءه ، فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر ، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لهـا . أما الذين يزيغون عن منهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب .. وفي هـذا ضمان للفطرة السليمة

ألا تنحرف . فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة ، ولم تلج في العصيان . ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر ، وتمضي الحيـــاة على سنتها في طريق الخير .

فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الحياة الآخرة فحسب — كما يعتقد بعض الناس — إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا . والحافز على إصلاحها وإنمائها . على أن يراعى في هذا النماء أنه ليس هدفاً في ذاته ، وإنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالانسان الذي نفخ الله فيه من روحه ، وكرّمه على كثير من خلقه ، ورفعه عن درك الحيوان ، لتكون أهداف الحياة أعلى من ضرورات الحيوان ، ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته . وهكذا ترتبط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ، والتي تشعر الانسان أنه ليس لقى مهملاً ، وأنه لم يخلق عبثاً . ولن يترك سدى ، وإن العدالة المطلقة في انتظاره ، ليطمئن قلبه ، ويفيء إلى إلى العمل الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف .

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب . بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ماله في هذا الوجود ، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هنالك ، وراء هذا الحيز الصغير المحدود . وكل صفة من هذه الصفات ذات قيمة في الحياة الانسانية . ومن ثم كانت هي صفة من صفات المؤمنين .

وهنالك تساوق وتناسق بين صفات المؤمنين جميعاً ، هو الذي يؤلف منها وحدة متناسقة متكاملة يقول الله سبحانه : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

فالتقوى شعور في الضمير ، وحالة في الوجدان ، تنبثق منها اتجاهات وأعمال ، وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ، وتصل الانسان بالله في سره وجهره . وتشف معها الروح فتقل الحجب بينهـــا وبين الكلّي الذي يشمل عالمي الغيب والشهادة ، ويلتقي فيـه المعلوم والمجهول . ومتى شفّت الروح وانزاحت الحجب بين

الظاهر والباطن ، فإن الايمان بالغيب عندئذ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة ، واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه . ومع التقوى والايمان بالغيب عبادة الله في الصورة التي اختارها ، وجعلها صلة بين العبد والرب . ثم اليقين بالاخرة بلا تردد ولا تأرجح في هذا اليقين .

واليقـــين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الدنيا ، ومراقبة الله في السر والعلن وفي الدقيق والجليـل ، والوصول إلى درجة الاحسان التي سُئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .. وقال تعالى : « ألم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

تصـــور .. وتصـــور

إن الايمــــان بالاخرة والتصديق بيوم الدين ترسم خطاً أساسياً في ملامح النفس المؤمنة يقول سبحانه عن المؤمنين : « والذين يصدقون بيوم الدين » . فالتصديق بيوم الدين شطر الايمان وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعوراً وسلوكاً . والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيـه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث .

المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض ، ولحساب الاخرة لا لحساب الدنيا . ويقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقـدمات ، نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها .

والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، يتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينظر في مساحـة من المكان ومساحة من الزمان محدودة ، وهو بائس مسكين معذب قلق لأن ما يقع في

هذا الشطر من الحياة يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، وقد لايكون مطمئناً ولا مريحاً ولا عادلاً ولا معقولاً ما لم يضف إليه حساب الشطر الآخر ، وهو أكبر وأطول ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقي غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة رفيعة لا يجد جزاءها في هذه الأرض واضحاً . ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر الايمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الاسلام .

ودرجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين « والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون » .

درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة ، والشعور بالتقصير في جناب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة ، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

ولقد كان رسول الله ﷺ — وهو من عند الله — وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه . كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله ، وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمته . وقال لأصحابه : « لن يُدخل الجنة أحداً عملُه . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[1].

والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته واضحة . وباب التوبة مفتوح ليس عليه مغاليق ! وهذا هو قوام الأمر في الاسلام بين الغفلة والقلق . والاسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصول بالله يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال .

والمؤمن أبداً في خوف من الآخرة ، يقول الله سبحانه : « أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » .

إنها صورة القلب الخائف الوجل الذي يذكر الله ولا ينساه في السراء والضراء، والذي يعيش حياته على الأرض في حذر من الآخرة ، وفي تطلع إلى رحمة ربه وفضله. وهذه الحساسية المرهفة — وهو يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه — وهذا الصفاء وهـذه

---

(١) رواه الشيخان والنسائي .

الشفافية التي تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقي . هذه كلها ترسم صورة مشرقة مضيئة من البشر . إنه القنوت لله وحساسية القلب ، وإستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ، ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة . هذا هو الطريق .

إن الايمان بالآخرة هو أحد مقتضيات الايمان بالله وفق التصور الاسلامي. فالمصير اليه في كل عمل . فلا ملجأ من الله إلا اليه ، ولا عاصم من قدَره ، ولا مرد لقضائه ولا نجاة من عقابه إلا برحمته وغفرانه . والمؤمن أبداً في خوف من عذاب الله يوم القيامة في وجل من ناره يناديه : « فَقِنا عذاب النار » .

إن إدراك الحق في تصميم هذا الكون وفي ظواهره ، معناه ـ عند أولي الألباب ـ أن هناك تقديراً وتدبيراً ، وأن هناك حكمة وغاية ، وأن هناك حقاً وعــدلاً وراء حياة الناس في هذا الكوكب . ولا بد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقوم الناس من أعمال ، ولا بد إذن من دار غير هـذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل في الجزاء . لذا يتجهون إلى ربهم ليقيهم عذاب النار .

إنها تشي بأن خوفهم من النار ، إنما هو خوف ـ قبل كل شيء ـ من الخزي الذي يصيب أهل النـار . وهذه الرجفة التي تصيبهم هي أولاً رجفة الحياء من الخزي الذي ينال أهل النار ، فهي ارتجافة باعثها الأكبر الحياء من الله ، فهي أشد حساسية به من لذع النار ! كما أنها تشي بشعورهم القوي بأنه لا ناصر من الله ، وأن الظالمين مالهم من أنصار .

والايمان باليوم الآخر هو الايمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء ، وبأن حياة الانسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان . وبأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء .

وشعور الانسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة ومجازيه يغـير من تصوراته ومن حوافزه ومن أهدافه ، ويربط الحاسة الأخلاقيــة في نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية . لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله. ومن

ثم يقوى الانسان ويسيطر على تصرفات هذا الكائن ، لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي .

إنها مسألة كبيرة هذا الايمان والايمان بالآخرة . مسألة أساسية في حياة البشر . إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء . وانها إما أن تكون فيكون « الانسان » وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان .

وحين تفترق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام . ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعارف ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وكل قول غير هذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يُرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » .

وهو موجه ابتداء إلى الرسول ﷺ — وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجه من تولى عن ذكر الله ويعرض عن الايمان به ، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لاينظر إلى شيء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الانسان على هذه الأرض هي غاية وجوده ، لا غاية بعدها ، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار ، فيفصل ضمير الانسان عن الشعور بإله يدبر أمره ، ويحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة

والمؤمن بالله وبالاخرة لا يستطيع أن يشغل باله — فضلاً على أن يعامل أو يعايش — من يُعرض عن ذكر الله ، وينفي الآخرة من حسابه ، لأن لكل منهما منهجاً في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته ، ولا في نقطة واحدة من نقاطه . وجميع مقاييس الحياة ، وجميع قيمها ، وجميع أهدافها ، تختلف في تصور كل منهما ، فلا يمكن إذن أن يتعاونا في الحياة أي تعاون ، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض .

مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ،

وغاية هذا النشاط ، وما دام التعاون والمشاركة متعذرين فما داعي الاهتمام والاحتفال ؟

إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا . وينفق طاقته التي وهبها الله إياها في غير موضعها .

٣ ــ قدرة الله على الحياة الأخرى

لقد كانت قضية البعث دائماً هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله رسله للناس ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب ، يقول الله سبحانه : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

إنهم يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات . وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى .. وغفلوا عن طبيعة القدرة الالهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم ، وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئاً فيكفي أن تتوجه الارادة إلى كون الشيء فيكون .

إن قضية البعث إحدى قضايا العقيدة الاسلامية التي لقيت جدلاً شديداً في كل عصر ومع كل رسول . وهي غيب من غيب الله الذي يختص بعلمه . « ولله غيب السموات والأرض . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير » .

إن البشر يقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين ، مهما يبلغ علمهم الأرضي . وإن أعلم العلماء من البشر ليقف مكانه لا يدري ما ذا سيكون اللحظة التالية في ذات نفسه . أيرتد نفَسَهُ الذي خرج أم يذهب فلا يعود ! وتذهب الآمال بالانسان كل مذهب وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدري متي يفجؤه ، وقد يفجؤه اللحظة والساعة من هذا الغيب المستور . ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة أو اختلت

ولما سارت الحياة وفق الخط الذي رسمته لها القدرة ، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود . « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » فهي قريب ، ولكن في حساب غير حساب البشر المعلوم . وتدبير أمرها لا يحتاج إلى وقت . طرفة عين ، فإذا هي حاضرة مهيأة بكل أسبابها . وبعث هذه الحشود التي يخطئها الحصر والعد من الخلق ، وانتفاضها وجمعها ، وحسابها وجزاؤها ، كله هين على تلك القدرة التي تقول للشيء : « كن فيكون » . إنما يستهول الأمر ويستصعبه من يحسبون بحساب البشر ، وينظرون بعين البشر ، ويقيسون بمقاييس البشر ، ومن هنا يخطئون التصور والتقدير .

يقول الامام الغزالي [1] : إياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها ، وفي طبع الآدمي ! إنكار كل ما لم يأنس به !

ولو لم يشاهد الانسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشي على غير رجل ، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك. ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوان ، وقيل له : إن له صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي ، المصور ، العاقل ، المتكلم ، المتصرف ، لاشتد نفور باطنه عن التصديق به .

ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته ! فإن كان في إيمانك ضعف فقو الايمان بالنظر في النشأة الأولى ، « أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مني يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » بلى إن الله على كل شيء قدير .

يقول الله سبحانه : « وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟

---

(١) الاحياء ١٦ : ٢٥ و ٣٠ .

قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم . فسيقولون : من يعيدنا؟ قل : الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو . قل عسى أن يكون قريباً ، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

وقد كانت قضية البعث مثار جـدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر .

إن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى ، وإنه لا شيء أمام القدرة الالهية أعسر من شيء . وأداة الخلق واحدة في كل شيء « كن فيكون » فيستوي أن يكون الشيء سهلاً وأن يكون صعباً في نظر الناس متى توجهت الإرادة الإلهية إليه .

والله سبحانه يرد على هؤلاء بعجب : « قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم » والعظام والرفات فيها رائحـة البشرية وفيها ذكرى الحياة ، والحديد والحجارة أبعد عن الحياة ، فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوره وقد نفخت فيه الحياة . فسيبعثكم الله ، وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حـديداً أو خلقاً آخر ولكنه قول للتحدي ، وفيه كذلك ظل التقريع والتوبيخ ، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر ، وفي هـذا إيماء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر ... يقولون من يعيدنا ؟ من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتاً وعظاماً ، أو خلقاً آخر أشد إيغالاً في الموت والخمود . فيرد عليهم بأن يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح . فالذي أنشأهم إنشاءً قادر على أن يردهم أحيـاءً ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون .. ويقولون متى هو ؟ استبعاداً لهذا الحادث واستنكاراً .

واليوم قريب حيث يبعث هؤلاء وقد قاموا يلبون دعوة الداع وتنطوي الحياة الدنيا كما ينطوي الظل فإذا هي قصيرة قصيرة ، لا يبقى من ظلالها في النفس ، وصورها في الحس ، إلا أنها مرت ، وعهد زال ، وظل تحول ، ومتاع قليل . « وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

إن معجزة الحياة ذات طبيعة واحدة ، من وراء أشكالها وصورها وملابساتها .

وكما يخرج الله الحياة من الموات في هذه الأرض ، فكذلك يخرج الحياة من الموتى في نهاية المطاف . « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .

إن المشيئة التي تبث الحياة في صور الحياة وأشكالها في هذه الأرض ، هي المشيئة التي ترد الحياة في الموات . وإن القدر الذي يجري بإخراج الحياة من الموات في الدنيا ، لهو ذاته القدر الذي يجري بجريان الحياة في الموتى مرة أخرى . .

ولكن الغفلة عن النشأة الأولى تستهول هـذا الأمر بقول سبحانه : « ويقول الانسان : أإذا ما متُّ لسوف أخرج حيا ؟ » . . إنه اعتراض منشؤه غفلة الانسان عن نشأته الأولى . فأين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان ، والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر . . « أوَلا يذكر الانسان أنّا خلقناه من قبل ولم يَكُ شيئاً » . .

والله سبحانه يقسم قسماً تهديدياً . يقسم الله تعالى بنفسه . وهو أعظم قَسَمٍ وأجلّه ، أنّهم سيحشرون بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه : « فوربّك لنحشرنّهم » . . ولن يكونوا وحدهم فلنحشرنّهم والشياطين . فهم والشياطين سواء والشياطين هم الذين يوسوسون بالانكار ، وبينهما صلة التابع والمتبوع ، والقائد والمقود .

إن القرآن الكريم يخاطب فطرة الناس في أمر البعث يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مُخلّقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مُسمى ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يُتوفى ، ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأنّ الله هو الحق وأنه يُحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » .

أم إن الناس في ريب من البعث ؟ وفي شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا في أنفسهم ، وفي الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ، ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين . .

إن البعث إعادة لحياة كانت ، فهو في تقدير البشر — أيسر من إنشاء الحياة . وإن لم يكن — بالقياس إلى قدرة الله — شيء أيسر ولا شيء أصعب . فالبدء كالاعادة أثر لتوجه الإرادة .. « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . .

ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ، ومنطقهم وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم في كل لحظة ، ويمر بهم في كل برهة ، وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة ، والقلب المفتوح ، والحس المدرك . ولكنهم يمرون به أو يمر بهم دون وعي ولا انتباه .

فما هؤلاء الناس ؟ وما لهم ؟ من أين جاءوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفي أي الأطوار مروا ؟ ... « فإنا خلقناكم من تراب » والانسان إبن هذه الأرض ، من ترابها نشأ ومن ترابها تكوّن ، ومن ترابها عاش ، وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمه الأرض ، اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه ، وبه افترق عن عناصر ذلك التراب ، ولكنه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلاً وغذاء . وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب . ولكن أين التراب وأين الانسان ؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك الخَلْق المسوى المركب ، الفاعل المستجيب ، المؤثر المتأثر ، الذي يضع قدميه على الأرض ، ويرف بقلبه إلى السماء ، ويحلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب .

والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضمر في طياتها السر الأعظم ، سر الحياة . السر الذي لم يعرف البشر عنه شيئاً يذكر ؛ بعد ملايين الملايين من السنين ، وبعد ما لا يُحصى من تحول العناصر الساذجة إلى خلايا حية في كل لحظة من لحظات الملايين ، والذي لا سبيل إلا أكثر من

ملاحظته وتسجيله ، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه ، مهما طمح الانسان ، وتعلق بأهداب المحال . ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلى علقة ، وتحول العلقة إلى مضغة وتحول المضغة إلى إنسان . . فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة ؟ وإن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الانسان المعقد المركب ، الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الاخر ، فلا يتماثل إثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان . ألا إنها المسافة التي لا يَعْبرها الفكر الواعي إلا وقد وقف خاشعاً أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات . فدلالة هذه الأطوار على البعث تدل من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة .

إن الغافلين المطموسين لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ، ودقة التدبير في أطوارها للوصول إلى غايتها البعيدة ، هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض . فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا ، والشر كذلك . إنما يستكمل هذا الجزاء هنالك ، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى ، التي لا خوف فيها ولا نصب ، ولا تحول فيها ولا زوال — إلا أن يشاء الله — ويصل المرتكسون المتكسون إلى درك الحياة السفلية التي تُهدر فيها آدميتهم ، ويرتدون فيها أحجاراً ، أو كالأحجار . يقول سبحانه عن هؤلاء الغافلين : « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ؟ هيهات هيهات لما توعدون : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين » .

مثل هؤلاء لا يدركون معاني الحياة ، ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ، ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون . . لذلك هم يستعجبون من ذلك الذي يعدهم أنهم مخرجون ، ويستبعدون في جهالة أن ذلك يكون ، ويجزمون في تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة وموت واحد . يموت جيل ويحيا بعده جيل . فأما الذين ماتوا وصاروا تراباً وعظاما ، فهيهات هيهات الحياة لهم ! وهيهات وهيهات البعث الذي يعدهم به ، وقد صاروا عظاماً ورفاتاً .

إنها حقيقة بسيطة واضحة .. « الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » .. حقيقة بسيطة واضحة ، والترابط بين جزئيها أو بين حلقتيها واضح كذلك . فالاعادة كالبدء لا غرابة فيها . وهما حلقتان في سلسلة النشأة ، مترابطتان لا انفصام بينهما . والرجعة في النهاية إلى رب العالمين ، الذي أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة لتربية عباده ورعايتهم ومجازاتهم في النهاية على ما يعملون .

إن الاسلام يوضح هذا الموضوع بالبساطة وبمنطق الفطرة يقول الله سبحانه : « أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم ، قل : يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . » .

فما النطفة التي لا يشك الانسان في أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين ، لا قوام ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا .. خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنيناً ، ثم تصير هذا الانسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل . والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة الخصم المبين . وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير ! فهذه القدرة يستعظم الانسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور ؟

يا للبساطة ! ويا لمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور ! وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أوليس من تلك النطفة كان الإنسان ؟ أوليست هذه هي النشأة الأولى ؟ أوليس الذي حوّل تلك النطفة إنساناً ، وجعله خصيماً مبينا بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقاً حياً جديداً ؟ إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال ، فما بال الجدل الطويل ؟ . « قل يُحييها الذي أنشأها وهو بكل خلق عليم » .. « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

إن الله ـ سبحانه ـ يخلق بلا كلفة ولا جهد ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير .. يكون هذا الشيء سماء أو أرضاً ، ويكون بعوضة أونملا .

هـذا وذاك سواء أمام الكلمة .. كن .. فيكون ! ليس هنـاك صعب ولا سهل . وليس هنـالك قريب ولا بعيد .. فتَتوجُّه الارادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشري المحدود . وقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا تراباً وعظاما ! وما في هذا البعث والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد ، لمن يتأمل هـــذا الواقع ويتدبره أقل تدبير . « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » « قل نعم وأنتم داخرون » .

ثم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ، ستبعثون وأنتم داخـــرون ، ذلولون ، مستسلمون ، غير مستعصين ولا متأبين. نعم « فإنما هي زجوة واحدة فإذا هم ينظرون» هكذا في ومضة خاطفة بمقدار ما تنبعث صيحة واحدة . تسمى زجرة للدلالة على لون من الشدة فيها ، والعنف في توجيهها ، والاستعلاء في مصدرهـا .. فاذا هم ينظرون .. فجأة وبلا تمهيد أو تحضير ، وإذا هم يصيحون مبهوتين . « قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين » وبينما هم في بهتتهم وبغتتهم إذا صوت يحمل اليهم التقريع من حيث لا يتوقعون « هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون » .

لقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هو صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية الذاهبة في التراب ، المتفرقـة في الثرى ، لاعادة بعث الانسان حياً ! ولعلها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا ! والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكداً وقوعه « أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه» والبنان أطراف الأصابع ، والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بمـا هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه في موضعه كما كان ! وهي كناية عن اعـــادة التكوين الانساني بأدق ما فيه ، وإكماله بحيث لا تضيع منه بنان،ولا تختل من مكانها.

إن الذي خلق أول مرة لقادر على اعادة الحياة . بلى سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى ، فانه لقادر على النشأة الأخرى ، بلى سبحانه فإنه لقادر على النشأة الأخرى! بلى سبحانه ! وما يملك الانسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً.

إن الله الذي أنشأ الانسان ورعاه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى . « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر » هناك تبلى السرائر المكنونة ، المطوية على الأسرار المحجوبة .. يوم تبلى وتختبر ، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الحافظ إلى النفس المغلقة بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الانسان من كل قوة ومن كل ناصر . ما له من قوة في ذاته ، وما له من ناصر خارج ذاته .

٤ — فردية التبعة

انطلقت البشرية من هناك ، من عند ربها سبحانه ، انطلقت إلى الأرض ، تعمل وتسعى ، وتكد وتشقى ، وتصلح وتفسد ، وتعمر وتخرب ، وتتنافس وتتقاتل ، وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد ، ثم ها هي ذي تؤوب ، ها هي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال ، ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة من ورد وشوك ، من غال ورخيص ، من ثمين وزهيد ، من خير وشر ، ومن حسنات وسيئات .

ها هي ذي تعود في أصيل اليوم ، فقد انطلقت في مطلعه ، ها هي ذي عائدة إلى ربها بما معها موقورة الظهور بالأحمال ، تطلع في الطريق وقد بلغ منها الجهد ، وأضناها المسير ، حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان ، ووقف يرتقب في خشية ووجل ، إن كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً ، إن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ، وكل فرد على حدة يلاقي حسابه ، ويلقى جزاءه . يقول سبحانه : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » ، لقد جاءت هذه الرسالة تعلق رشد البشرية وتضع على كاهلها عبء الاختيار ، وتعلن مبدأ التبعة الفردية ولمن شاء أن يختار . وحقيقة كبيرة ، حقيقة فردية التبعة ،

والجزاء الفردي الذي لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً . « ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » .

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي ، وفي السلوك العملي سواء ، فشعور كل فرد بأنه مجزي بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب ! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . « فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً » .

وقد ضرب الله بذلك مثلاً : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية «وأنذر عشيرتك الأقربين» دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمّ وخصّ ، فقال : يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً (١) .

كما أنه — في الوقت ذاته — عامل مطمئن فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة ، فيطيش وييئس من جدوى عمله الفردي الطيب . ما دام قد أدى واجبه في النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة .

إن الله سبحانه لا يحاسب الناس جملة بالقائمة ! إنما يحاسبهم فرداً فرداً ، كل على عمله وفي حدود واجبه ، ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الاصلاح غاية جهده فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء في الجماعة التي يعيش فيها ، فإنما هو محاسب على إحسانه ، كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح ، فالله لا يحاسب عباده بالقائمة .

---

(١) رواه مسلم والبخاري والترمذي والنسائي .

إن كل نفس حاملة حملها ، فلا تحمل نفس حمل أخرى : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

وحين تثقل نفس بما تحمل ثم تدعو أقرب الأقرباء ليحمل عنها شيئاً ، فلن تجد من يلبي دعاءها ويرفع عنها شيئاً مما يثقلها .

إنه مشهد القافلة كل من فيها يحمل أثقاله ويمضي في طريقه ، حتى يقف أمام الميزان والوزان ! وهي في وقفتها يبدو على من فيها الجهد والاعياء . واهتمام كل بحمله وثقله وانشغاله عن البعداء والأقرباء ، والله هو المحاسب فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيء ، ولا يوكل بالحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون .

ذلك يوم تشغل كل نفس بأمرها ولا تتلفت إلى سواها . « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » ، وهو تعبير يلقي ظل الهول الذي يشغل كل امرىء بنفسه ، ويجادل عنها لعلها تنجو من العذاب . ولا غناء في انشغال ولا جدال كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ، فالتبعة فردية ،والحساب شخصي ،وكل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً ، « واتقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

هذا هو المبدأ الاسلامي العظيم ، مبدأ التبعة الفردية القائمة على الارادة والتميز من الانسان ، وعلى العدل المطلق من الله ، وهو أقوم المبادىء التي تشعر الانسان بكرامته ، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره ، وكلاهما عامل من عوامل التربية ، ولا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم ايماناً وعملاً صالحاً ، ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته ، فما من ناصر يعصمهم من الله ، وينجيهم من عذابه .

فردية التبعة فلا تنال نفس إلا ما كسبت ، ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت .

« لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، فردية التبعة ، ورجعة كل انسان إلى ربه ، بصحيفته الخاصة ، وما قيد فيها له أو عليه ، فلا يحيل على أحد ، ولا ينتظر عون أحد ، ورجعة الناس إلى ربهم فرادى من شأنها — حين يستيقنها القلب — أن تجعل كل

فرد وحدة ايجابية لا تنزل عن حق الله فيها لأحد من عباده إلا بالحق ، وتقف كل انسان مدافعاً عن حق الله فيه تجاه كل إغراء ، وكل طغيان ، وكل ضلال وكل فساد ، فهو مسؤول عن نفسه هذه وعن حق الله فيها - وحق الله فيها هو طاعته في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه ، وعبوديتها له وحده شعوراً وسلوكاً — فإذا فرّط في هذا الحق لأحد من العبيد تحت الاغراء والاضلال أو تحت القهر والطغيان — إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان — فما أحد من تلك العبيد يدافع عنه يوم القيامة ولا شافع له ؛ وما أحد من تلك العبيد بحامل عنه شيئاً من وزره ولا ناصر له من الله في اليوم الآخر . ومن ثم يستأسد كل إنسان في الدفع عن نفسه والدفاع عن حق الله فيها ، ما دام هو الذي سيلقى جزاءه مفرداً وحيداً !

ولا خوف من هذه الفردية — في هذا المقام — فمن مقتضيات الايمان أن ينهض كل فرد في الجماعة بحق الجماعة عليه ، بوصفه طرَفاً من حق الله في نفسه ، فهو مأمور أن يتكافل مع الجماعة في ماله وكسبه ، وفي جهده ونصحه ، وفي إحقاق الحق في المجتمع وإزهاق الباطل ، وفي تثبيت الخير والبر وإزاحة الشر والنكر ، وكل أولئك يحسب له أو عليه في صحيفته يوم يلقى الله فرداً فيتلقى هنالك جزاءه . « ومن يكسب إثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » وليست هناك كفارة غير الكفارة التي تؤديها النفس عن نفسها ، فالاسلام يقرر فردية التبعة ، وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الاسلامي في الجزاء : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » .

القاعدة التي لا تتغير في الدنيا وفي الآخرة ، والتي تجعل عمل الانسان كله له ، بكل ثماره ونتائجه ، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، منه تنتج ، وبه تتكيف ، وتجعل الانسان مسؤولاً عن نفسه إن شاء أحسن اليها ، وإن شاء أساء ، فلا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء ، فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ، إن اهتدى فلها وإن ضل فعليها : « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد ، إنما يُسأل كل عن عمله ويُجزى كل بعمله « ولا يسأل حميم حميماً » .

فهول ذلك اليوم يقطع أواصر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد، ويحول بين المولود والوالد ، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة ، مجردة من كل عون ومن كل سند ، موحشة من كل قربى ومن كل وشيجة . « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » .

تتقطع أواصر القربى والدم ، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومَنْ وَلَد ، وبين المولود والوالد ، وما يستقل كل بشأنه ، فلا يجزي أحد عن أحد ، ولا ينفع أحداً إلا عمله وكسبه . ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظير له في مألوف الناس ، فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجيء في موضعها الذي فيه تستجاب . .

إن وعد الله حق ، فلا يخلف ولا يتخلف ، ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب . ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل ، الذي لا يغني فيه والد عن ولد ولا مولود عن والد فكل فرد مأخوذ بعمله محاسب على كسبه ولا يحمل أحد عبء أحد . فلكل وعبئه والمرجع في النهاية إلى الله دون سواه ، ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره ولا يخفى عليه من أمركم . .

هذه هي العاقبة . . (ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور) . .

هذا هو مفرق الطريق ولكل أن يختار عن بينة وعن تدبر وبعد العلم والتفكير : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون » . إنها فردية التبعة وعدالة الجزاء . فلا تحمل نفس حمل أخرى ولا تخفيفاً عن نفس ولا تثقيلاً على أخرى « ألا تزر وازرة وزر أخرى » فلا تملك نفس أن تخفف من حملها ووزرها . لا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئاً ، « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » كذلك فما يحسب للانسان إلا كسبه وعمله ، لا يُزاد عليه شيء من عمل غيره ولا ينقص منه شيء لينال غيره . وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى . فإذا مات ذهبت

الفرصة وانقطع العمل إلا ما نصّ عليه حديث رسول الله ﷺ في قوله : « من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به »[1]

ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهـذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ ـ أمته ولا حثّهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف به بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليها . (ابن كثير في التفسير)

« وأن سعيه سوف يُرى » فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ، ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرىء جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم . وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء فتتحقق للانسان قيمته الإنسانية . القـائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مؤتمناً على نفسه ، كريماً تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل،وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء . عدالة مطلقة لا يميل بهـا الهوى ولا يقعد بها التصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور . إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة ، يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . وهناك تتقطع الوشائج « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » .

فلمسة قلبه بما يكون في الآخرة من تقطيع وشائج القربى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج في فترة الحياة الدنيـا القصيرة ، وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التي لا تنقطع في دنيا ولا في آخرة .

إن الناس في همّ شاغل هناك في الآخرة لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة في شعوره لغيره فلقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج ،

---

(1) اخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة .

وحبس النفوس على همها لا يتعداه ، وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض .. « يُبصّرونهم » .. كأنما قصداً وعمداً ! ولكن لكل منهم همّه ، ولكل ضمير منهم شغله . فلا يهجس في خاطر صديق أن يسأل صديق عن حاله ، ولا يسأله عونه . فالكرب يلف الجميع ، والهول يغشى الجميع ..

فما بال المجرم ؟ « يُبصّرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤيه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا إنها لظى نزاعة للشوى » .

فما بال المجرم ؟ إنه الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وانه ليود لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، بمن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم .. ببنيه . وزوجه . وأخيه . وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه ، بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الاطلاق ، فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ، وهي صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الافلات .

صورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب ، موشاة بالفزع .. وبينما المجرم في هذه الحال ، يتمنى ذلك المحال ، يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة من أمل ، أو كل حديث خادع من النفس . كما يسمع الملأ جميعاً حقيقة الموقف وما يجري فيه « كلا إنها لظى نزاعة للشوى » . إنه مشهد تطير له النفس شعاعاً ، بعدما أذهلها كرب الموقف وهوله .. « كلا » .. في ردع عن تلك الأماني المستحيلة في الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن في الأرض جميعاً ..

إنها تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ، وللنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ، وهي مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها ، « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة » ..

فكل فرد يحمل همّ نفسه وتبعتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ، يتقدم بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهينها . فهي رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل . وقد بيّن الله طريقه لتسلك إليه على بصيرة .

والهول هناك يفزع النفس ويفصلها عن محيطها ويستبد بها استبداداً . فلكلٍ نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهمّ الخاص به ، والذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد ، « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . .

إنه الهمّ الذي يُشغل الحسّ والضمير . ذلك حال الخلق جميعاً في هول ذلك اليوم .

٥ — فرصة النجاة

يقول الله سبحانه : . . « وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعو أحسنَ ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » . .

الإنابة . والاسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام . فمن أراد الأوبة من الشاردين فليؤب . ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب . ومن أراد الإستسلام من العصاة فليستسلم . وليأت . ليأت وليدخل فالباب مفتوح . والفيء والظل والندى والرخاء : كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب . . وهيا . هيا قبل فوات الأوان . فما هنالك من نصير . هيا فالوقت غير مضمون . وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار . هيا . هيا . قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة ، وعلى التفويط في حق الله ، وعلى السخرية بوعد الله : « أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين » ، أو تقول إن الله كتب علي الضلال ولو كتب علي الهدى لاهتديت واتقيت « أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين » . .

وهي علاقة لا أصل لها . فالفرصة ها هي ذي سانحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة . وباب التوبة ها هو ذا مفتوح !

« أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لي كرة فأكون من المحسنين » ، وهي أمنية لا تنال . فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع . وها أنتم أولاء في دار العمل . وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود . وستسألون عنها مع التبكيت

والترذيل : « بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » .
فهناك لا تنفع المعذرة « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

والظالمون سيكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مَرَدٍّ من سبيل ؟ وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي ، وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » .

إنهم يرون العذاب ، فتتهاوى كبرياؤهم ، ويتساءلون في انكسار : « هل إلى مرد من سبيل ؟ » في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والانهيار مع التطلع إلى أية بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار خاشعين لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان ؟ وهم يعرضون منكسي الأبصار لا يرفعون أعينهم من الذل والعار « ينظرون من طرف خفي » ، وهي صورة شاخصة ذليلة . ثم يعرض الهول النفسي الذي يفرض الصمت والكظم « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » فالهول هنا يكمن في الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، والخشوع المهيب ، الذي لا يتخلله كلام ولا يقطعه اعتذار فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار . وفي مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم ، واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك ، على ما قال ابن عباس رضي الله عنه ـ ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة . « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين » .

هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار ، فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ، ولا تدبير ولا قدرة ، إنما هو الصمت الكظيم على التأنيب الأليم . « ويل يومئذ للمكذبين » ، « فبأي حديث بعده يؤمنون » والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ، وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده أبداً ، إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس، والويل المدخر لهذا الشقي المتعوس.

إن يوم القيامة هو يوم الجزاء لا يوم الاعتذار يقول الله سبحانه : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

هاهم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم على جهنم وقوف ، فلا يُؤبّه لاعتذارهم ، بل يُجبَهون بالتيئيس . لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل ، وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار . « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون » ، فلا معذرة منهم تقبل ولا يعتب عليهم فيما فعلوه ، أو يطلب اليهم الاعتذار ، فاليوم يوم العقاب لا يوم العتاب .

إن القرآن يعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يعلن المجرمون يقينهم بالآخرة ويقينهم بالحق الذي جاءتهم به الدعوة ، ويقولون الكلمة التي لو قالوها في الدنيا لفتحت لهم أبواب الجنة ، ولكنها في موقفهم ذاك لا تجدي شيئاً ولا تفيد . لعل هذا المشهد أن يوقظهم — قبل فوات الأوان — لقول الكلمة التي سيقولونها في الموقف العصيب فيقولوها الآن في وقتها المطلوب : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » .

إنه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة ، والاقرار بالحق الذي جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكّوا منه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى . وهم ناكسوا رؤوسهم خجلاً وخزياً ، عند ربهم ، الذين كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا. ولكن هذا كله يجيىء بعد فوات الأوان حيث لا يجدي اعتراف ولا اعلان .

وهؤلاء المجرمون المعروضون على ربهم وهم ناكسوا رؤوسهم ، هؤلاء ممن حق القول . « ذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا » ، يومكم هذا الحاضر . ذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم ، وإهمالكم الاستعداد له وأنتم في فسحة من الوقت ، ذوقوا : « إنا نسيناكم » ، والله لا ينسى أحداً ، ولكنهم يعاملون معاملة المهملين المنسيين ، معاملة فيها مهانة ، وفيها إهمال وفيها ازدراء .

والمشهد يُعرض وراء المشهد لعلهم يستيقظون ويعودون : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا آمنا به وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد؟ وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا في شك مريب » .

ولو ترى فالمشهد معروض للأنظار ، إذ فزعوا من الهول الذي فوجئوا به و كأنما أرادوا الافلات ، ولا إفلات وأخذوا من مكان قريب ، ولم يبعدوا في محاولتهم البائسة وحركتهم المذهولة . وقالوا آمنا به ، الآن بعد فوات الأوان ، وكيف يتناولون الايمان من مكانهم هذا ، ومكان الايمان بعيد عنهم فقد كان ذلك في الدنيا ، فضيّعوه وقد كفروا به من قبل ، فانتهى الأمر ، ولم يعد لهم أن يحاولوه اليوم . إن حوادث القيامة وأهوالها هي التي دعتهم لهذا الايمان ، دعتهم للتذكرة « كلا إذا دُكّت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنّى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي » .

ودك الأرض ، تحطيم معالمها وتسويتها ، وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة ، ويرتسم من وراء هذه الآيات الشديدة الأسر ، مشهد ترتجف له القلوب وتخشع له الأبصار . والأرض تدك دكاً !

والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، وتقف الملائكة صفاً صفاً ، ثم يُجاء بجهنم فتقف هي الأخرى متأهبة . « يومئذ يتذكر الانسان » ، يتذكر الانسان الحق ويتعظ بما يرى ولكن لقد فات الأوان . « وأنّى له الذكرى » ، ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحداً ، وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا ، وحين تتجلى له هذه الحقيقة يقول : ياليتي قدمت لحياتي . يا ليتني قدمت شيئاً لحياتي هنا ، فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة ، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لهـــا ، يا ليتني ، أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقصى ما يملكه الانسان في الاخرة ، ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » .

إن الله القهار الجبار الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد ، والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد . وعذاب الله ووثاقه لا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم ، أو من عذاب الخلق جميعاً ووثاقهم ، إنه الهول المروع الذي يتجاوز كل تصور .

إن الحياة الدنيا متاع ، متاع مقدر بدقـة وإحكام ، ولكنه متاع ، متاع ينتهي

إلى أجله ، فإذا جاءت الطامة الكبرى غطّت على كل شيء ، وطمت كل شيء ، على المتاع الموقوت ، وعلى الكون المتين المقدر المنظم ، على السماء المبنية والأرض المدحورة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل مكان من مصارع ومواقع فهي أكبر من هذا كله ، وهي تطم على هذا كله .

عندئذ يتذكر الانسان ما سعى يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحياة ، وشواغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه ، يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى ! ومن ثم تبرز الجحيم ، « وبُرِّزت الجحيم لمن يرى » فهي بارزة مكشوفة لكل ذي نظر ، عندئذ تختلف المصائر والعواقب ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا» والطغيان أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة ، فيعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخرة حساباً . واعتبار الاخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره ، فإذا أهمل حساب الاخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده ، واختلت كل القيم في تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته ، وعُدّ طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للمدى ، فأما هذا فإن الجحيم هي المأوى ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى»

إن أحداث القيامة أمور هائلة رهيبة ، قلّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . فهناك يُشمّر عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ، ويشتد الكرب والضيق . « يوم يكشف عن ساق[1] ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » .

---

(١) ساق الشيء أصله . قال الشيخ الكوثري فيما علّقهُ على « دَفعِ شُبهة التشبيه » لابن الجوزي ص ١٤ عند ذكر قوله تعالى « يوم يكشف عن ساق ويُدعون الى السجود فلا يستطيعون » قال رحمه الله تعالى : « في محاسن التأويل للعلامة جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى قال أبو سعيد الضرير : أي يُكشف عن أصل الامر . وساقُ الشيء أصلُه الذي به قوامه . —

إنه تعبير عن الشدة والكرب حين يدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يمكن السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون : « مهطعين مقنعي رؤوسهم » ، وكأنّ أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم ! وهو تعبير يشي بالكرب والعجز والتحدي المخيف .

هؤلاء المتكبرون المتبجحون ، والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشامخة والكبرياء المنفوخة . إنه موقف مرهق ذليل ، وفي هذا الموقف يذكرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار ، « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » .

= كساق الشجرة وساق الانسان . اي تظهر يوم القيامة حقائق الاشياء واصولها . فالساق بمعنى أصل الامر وحقيقته ، استعارة من ساق الشجرة . انتهى كلام الكوثري .

وقال المفسر الالوسي عليه الرحمة في روح المعاني ٩ : ١٤٦ « وقيل : ساقُ الشيء أصله الذي به قوامه ، كساق الشجرة وساق الانسان ، والمراد يوم يكشف عن أصل الامر فتظهر حقائق الامور وأصولها بحيث تصير عيانا ، واليه يشير كلام الربيع بن أنس ، فقد أخرج عبد بن حُميد عنه انه قال : في ذلك اليوم يكشف الغطاء ، وكذا أخرجه البيهقي عن ابن عباس أيضا قال : حين يُكشَفُ الامر وتبدو الاعمال » . انتهى .

فالمعنى هنا : في ذلك اليوم الذي يلقى الله فيه عباده جميعا يكشف عن أصل الامر وحقيقته فيهم ، فيظهر ايمان المؤمن على حقيقته ، ونفاق المنافق على حقيقته ، وينتفي التدليس والخداع الذي كان من المنافقين في الدنيا .

فلذا يَخِرُّ المؤمنون لله سُجدا كما كانوا يسجدون له في الدنيا ، ولا يستطيع المنافقون السجود وقد كانوا في الدنيا يسجدون ولكن رياء وسُمعة ! ذلك لأن الآخرة دار الحق ، لا يقع فيها الا الحق والصدق دون تلبيس أو تدليس .

وانما بقي المنافقون مختلطين في ذلك اليوم بالمؤمنين ظنّا منهم أن نفاقهم يبقى مستورا في الآخرة كما كان مستورا في الدنيا ، وظنّا منهم ان تَسَتُّرهم بالمؤمنين ينفعهم في دار الحق كما كان ينفعهم في دار الدنيا جهلا منهم بحقيقة الآخرة والفرق ما بين الدارين . ولقد ظنوا أيضا انهم اذا تأخروا واستبقوا أنفسهم مع المؤمنين الصادقين أفادهم ذلك بناء على ما كانوا يظهرونه في الدنيا ، فلما امتحنهم الله بالسجود له سبحانه فما استطاعوا : تميَّز حينذاك الحق من الباطل والمؤمن من المنافق ، والساجد من الجاحد . نسأل الله السلامة .

وفي صحيح مسلم ٣ : ٢٧ من حديث أبي سعيد الخدري قوله صلى الله عليه وسلم : « فَيُكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا أذِنَ الله له بالسجود ــ أي سهّل له وهوّن عليه ــ ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خَرَّ على قفاه » .

قادرون على السجود . فكانوا يأبون ويستكبرون ، كانوا ، فهم الآن في المشهد المرهق الذليل ، والدنيا وراءهم ، وهم الان يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، وبينما هم في الكرب يجيئهم التهديد الرعيب الذي يهد القلوب « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » وهو تهديد مزلزل ، والجبار القوي المتين يقول للرسول ﷺ : خَلِّ بيني وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرني لحربه فأنا به كفيل ومن هو هـذا الذي يكذب ؟ إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المضعوفة ، بل هـذه الهباءة المنثورة ، بل هذا العدم الذي لا يعني شيئاً أمام جبروت الجبار القهار العظيم !

فيامحمد ، خَلِّ بيني وبين هذا المخلوق ، فالحرب معي ، وهذا المخلوق عـدوي ، وأنا سأتولى أمره فدعه لي ، وذرني معه ، أي هول مزلزل المكذبين .

« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين » وإن شأن المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير ، ولكنه سبحانه يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان، وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدَعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارّون ، وإن إمهالهم على الظلم والبغي والاعراض والضـلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزي والرهق والتعذيب ، وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلاً ولا رحمة. والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضحت الأمور . إنه سبحانه يمهل ولا يهمل ، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، فَلِمَ لا يخيفهم ما ينتظرهم فيـه . فهل اطلعوا على الغيب وكتبوه وعرفوه أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيـه ، فكتبوه ضامناً لما يشتهون ، « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ، إن الله سبحانه يرسم لهؤلاء مشهداً كئيباً مكروباً : « ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا : ياليتنا نُرَدُّ ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبـل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

إنهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهي تواجههم بهول المصير الرعيب ، وهم يتخافتون متخاذلين ، ويتهاوون متحسرين ، يتمنون لو يُردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذي انتهى بهم إلى هذا المصير ، فيُردون عن هذا التمني بالتصغير والتحقير ، إن هؤلاء ترتسم في قلوبهم الندم والحسرة .. إن القرآن يخاطب بها الفطر الجاسية ، ويهز بها هذه الفطرة هزاً ، لعل الركام الذي ران عليها يتساقط ، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح ، ولعلها تفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان .

إنه مشهد الاستخذاء والندامة والخزي والحسرة في مقابل الاعراض والجدال والنأي والادعاء العريض ، لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لايملكون الاعراض والتولي ! ولا يملكون الجدل والمغالطة ! لو ترى لرأيت مايهول ، ولرأيتهم يقولون : « يا ليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين »

إنهم يتمنون لو يُردون إلى الدنيا . وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب ، وعندئذ سيكونون من المؤمنين ! ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون ! على أنهم إنما يجهلون جبلّتهم . فهي جبلّة لاتؤمن . إن الله يعلم طبيعتهم ، ويعلم إصرارهم على باطلهم ، ويعلم أن رجفة الموقف الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود .

وهكذا يصورهم القرآن .. « وإن الذين كفروا يُنادَوْن لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الايمان فتكفرون . قالوا : ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » .

والمقت أشد الكره . وهم ينادَون من كل جانب . إن مقت الله لكم يوم كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أشد من مقتكم لأنفسكم وأنتم تطلعون اليوم على ما قادتكم إليه من شر ونكر ، بكفرها وإعراضها عن دعوة الايمان ، قبل فوات الأوان ، وما أوجع هذا التذكير وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب ! والآن وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال يعرفون أن المتجه لله وحده فيتجهون « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل »

وهي كلمة الذليل اليائس البائس . وقد كانوا يكفرون وينكرون . أحييتنا أول مرة فنفخت الروح في الموات فاذا هي حياة ، وإذا نحن أحياء ، ثم أحييتنا الأخرى بعد موتتنا ، فجئنا اليك ، وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه ، وقد اعترفنا بذنوبنا. فهل إلى خروج من سبيل ، بهذا التنكير الموحي باللهفة واليأس المرير .

إنها الآمال والأماني الضائعة يصورها القرآن ، « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » ولكن « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » ، والحسرة انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الانسان شيئاً حيالها ، سوى أن يتحسر وتتألم نفسه . والله سبحانه — لا يتحسر على العباد ، ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم .

يا حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، ويفتح الله لهم أبواب رحمته ، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة وهو يناديهم « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير »

٦ — بين الغفلة والهوى

إن الذين لا يحسبون حساب اليوم الآخر ، ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الاثم والمعصية ، إن هؤلاء إنما يتنافسون في مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد ، يريد كل منهم أن يسبق اليه ، وأن يحصل على أكبر نصيب منه ، ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب في سبيل متاع من متاع الأرض زائل .

وما في هذا العرض القريب الزهيد ينبغي التنافس ، إنما يكون التنافس في ذلك النعيم وفي ذلك التكريم ، « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » فهو مطلب يستحق المنافسة وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب ، والذين يتنافسون في شيء من

أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم ، إنما يتنافسون في حقير فان قريب والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه ، فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة.

ومن عجب أن التنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعاً ، بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بهم جميعاً ، والسعي لنعيم الاخرة يصلح الأرض ويعمرها ويطهرها للجميع ، والسعي لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعاً وبيئاً تأكل فيه الديدان بعضها البعض ، أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين .

والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الأرض خراباً بلقعاً كما قد يتصور بعض المنحرفين إنما يجعل الاسلام الدنيا مزرعة الآخرة ، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق ، على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله ، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده ، كما قررها الله تعالى وهو يقول : « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » . وإن قوله تعالى : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » ، لهو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة ، بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها ، ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن . بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه ! إن عمر المرء في هذه العاجلة محدود ، وعمره في الآجلة لا يعلم نهايته إلا الله ، وان متاع هذه الأرض في ذاته محدود ، ومتاع الجنة لا تحده تصورات البشر ، وأن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود ! فأين مجال من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ؟ ألا إن السباق إلى هناك ، « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » كما أن الله سبحانه وتعالى يبين أن الانسان يقطع رحلة الحياة كلها كدحاً وجهداً ، ومن ثم إلى الله ، « يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » .

يا أيها الانسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحاً ، تحمل عبئك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك ، لتصل في النهاية إلى ربك ، فإليه المرجع وإليه المآب ، بعد الكد والكدح والجهاد .

يا أيها الانسان ، إنك كادح حتى في متاعك ، فأنت لا تبلغه في هذه الأرض إلا بجهد وكد ، إن لم يكن جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير وكد مشاعر ، الواجد والمحروم سواء ، إنما يختلف نوع الكدح ولون العناء ، وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الانسان ، ثم النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء.

يا أيها الانسان ، إنك لن تجد الراحة في الأرض أبداً ، إنما الراحة هناك ، لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام ، التعب واحد في الأرض والكدح واحد — وان اختلف لونه وطعمه — أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك ، فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض ، وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض ، كأنه لم يكن كدح ولا كد .

يا أيها الانسان ، الذي امتاز بخصائص الانسان ، ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصك الله به ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه .

ولكن ما الذي يُعمي ، إنه الهوى ، الذي يتخذه بعض الناس إلهاً يتعبدونه ، يقول سبحانه : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ » إن الله يشير إلى الهوى الذي يجعل منه بعضهم إلهاً يتعبده ، فيضل ضلالاً لا اهتداء بعده والعياذ بالله . والقرآن يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت ، وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها ، وتقيمه إلهاً قاهراً لها ، مستولياً عليها ، تتلقى اشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول .

يرسم القرآن هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد ، أفرأيته ؟ إنه عجيب يستحق الفرجة والتعجب ! وهو يستحق من الله أن يضله ، فلا يتداركه برحمة الهدى ، فما أبقى في قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبّد هواه المريض .

لقد انطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الادراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم .

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة ، « وأما من خاف

مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » ، والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري تحاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة فظل في دائرة الطاعة .

إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ، ويحسبها كسباً له – على معنى من المعاني – ولو أنها كانت كريهة في حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمساً ، وما تركها تملأ عليه نفسه ، وتحيط بعالمه ، لأنه خليق لو كرهها وأحس ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلها – حتى لو اندفع لارتكابها – وأن يستغفر منها ، ويلوذ إلى كنف غير كنفها ، وفي هذه الحالة لا تحيط به ، ولا تملأ عليه عالمه ، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير ، يقول الله سبحانه : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يصور المجترح الآثم حبيس خطيئته : يعيش في إطارها ، ويتنفس في جوها ، ويحيا معها ولها ، عندئذ تغلق منافذ التوبة على النفس في سجن الخطيئة ، عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل الحاسم ، « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

إن من مقتضيات الايمان أن ينبثق من القلب في صورة العمل الصالح ، وهذا ما يجب أن يدركه من يدعون الايمان ، وما أحوجنا – نحن الذين نقول إنا مسلمون أن نستيقن هذه الحقيقة : أن الايمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح ، فأما الذين يقولون : إنهم مسلمون ثم يتبعون هواهم ، فهؤلاء ليس لهم من الايمان شيء ، وليس لهم من ثواب الله شيء ، وليس لهم من عذاب الله واق ، فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الانسان إلا من قبل الهوى ، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها ، والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات

الهوى ، والذي يتحدث هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها .

ولم يكلف الله الانسان ألا يشتجر في نفسه الهوى ، فهو سبحانه — يعلم أن هذا خارج طاقته ، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها ، وأن يستعين في هذا بالخوف ، الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب ، وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى ، ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى ، « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » .

إن الإنسان إنسان بهذا النهي ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع ، وليس انساناً بترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب في طبيعته ، فالذي أودع في نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذي أودعها الاستعداد للامساك بزمامه ونهى النفس عنه ، ورفعها عن جاذبيته ، وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهناك حرية انسانية تليق بتكريم الله ، تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الانساني .

وهناك حرية حيوانية ، هي هزيمة الانسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته ، وانفلات الزمام من ارادته ، وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الانسانية مستعبد يلبس عبوديته رداء من الحرية .

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى . أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر انسانيته ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس — من هذا الصنف — والحجارة ، وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة

الأشياء وبعد هذا البيان يعدُّ الله لهذا الانسان الحياة الذي تهيأ لها بارتكاسه في درك الجحيم وينذره بالويل ، « ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشّره بعذاب أليم » .

إنها مقابلة القرآن بالترذيل والتقبيح والتهديد والوعيد ، والتلويح بالعذاب الأليم المهين العظيم ، والويل : الهلاك ، والأفاك : الكذاب المارد على الكذب ، والأثيم الكثير المقارفة للاثم ، والتهديد شامل لكل من هذه صفته ، وهو تهديد صادر من الله القوي القاهر الجبار ، القادر على الهلاك والدمار ، الصادق الوعد والوعيد والانذار ، فهو تهديد رعيب مفزع مرهوب

هذا الأفاك الأثيم ، آية إفكه وعلامة إثمه ، أنه يصرعه الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً ، ألا إن هذه الصورة البغيضة تتكرر في كل جاهلية ، وتتكرر اليوم وغداً ، فكم في الأرض ، وبين من يقال أنهم مسلمون ، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ،لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ، ولا تعاونه على باطله ، ولا تقره على شره ، ولا تتمشى له مع اتجاهه ، فليأته الويل المنظور .

* * *

الباب الثاني

الموت

١ ـ حقيقة الموت في التصور الاسلامي

تكثر الاشارة في القرآن إلى آيتي الحياة والموت . لأنهما تلمسان قلب الانسان بشدة وعمق ، ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان في كل ما يقع عليه حس الانسان . يقول الله سبحانه : « هو الذي يُحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . « إنا نحن نحيي ونميت والينا المصير » .. « الذي له مُلك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت » .. « وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون » .. « وأنه هو أمات وأحيا » .. تنبثق من هذه النصوص صور لا عداد لها في الحس . أمات وأحيا .. أنشأ الموت والحياة ، كما قال في سورة أخرى : « الذي خلق الموت والحياة » .. وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعها المتكرر ، ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما ومرهما الخافي على الأحياء ..

فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ما حقيقتهما حين يتجاوز الانسان لفظهما وشكلهما الذي يراه ؟ كيف دبّت الحياة في الكائن الحي ؟ ما هي ؟ من أين جاءت وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الاحياء ؟.. وما الموت ؟ وكيف كان ؟.. قبل دبيب الحياة .. وبعد

مفارقتها للأحياء ؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل بيد الله ! أمات وأحيا .. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . في عوالم الاحياء كلها . في اللحظة الواحدة . في هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة ودب فيها هـذا السر من حيث لا تعلم وحيث لا يعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات وقعت فاذا هي ذاتها بواعث حياة ! وكم من هـذه الصور يتراءى على مدى القرون ، حين يستغرق الخيال في استعراض الماضي الطويل الذي كان قبل أن يكون الانسان كله على هـذا الكوكب وندع ما يعلمه الله في غير هـذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التي لا تخطر على بال إنسان !

هـذا الموت الذي ينتهي اليه كل حي ، ما هو ؟ وكيف يقع ! وأي سلطان له لا يقـــاوم ؟ إنه قدر الله ، « نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين » ومن ثم لا يتفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد ، وهو حلقـة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل .

إنه الموت نهـــاية كل حي ، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله ، « إنك ميت وانهم ميتون » ، وفي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ﷺ . والموت ليس نهاية المطاف إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة ، التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدى .

إن القرآن يلمس مكمن الخوف من الموت في النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف عن طريق الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة وما بعد الحيـــاة والموت من حكمة لله وتدبير ، ومن ابتلاء للعباد وجزاء . يقول الله سبحانه : « وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتاباً مؤجلاً . ومن يُرد ثواب الدنيا نُؤته منها ومن يُرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين » ..

إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم . فالخوف والهلع ، والحرص والتخلف لا تطيل أجلاً . والشجاعة

والثبات والاقدام والوفاء لا تقصر عمراً ، فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء ، والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم أو يزيد !

بذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس فتترك الاشتغال به ، ولا تجعله في الحساب، وهي تفكر في الأداء والوفاء بالتكاليف والالتزامات الايمانية . وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص ، كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع . وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته ، في صبر وطمأنينة ، وتوكّل على الله الذي يملك الآجال وحده .

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التي حسم فيها القول ، فإنه إذا كان العمر مكتوباً والأجل مرسوماً فلتنظر نفس ما قدمت لغد ، ولتنظر نفسٌ ماذا تريد ، أتريد أن تقعد عن تكاليف الايمان ، وأن تحصر همها كله في الأرض ، وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها ؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى ، وإلى اهتمامات أرفع وإلى حياة أكبر من هذه الحياة ؟ مع تساوي هذا الهمّ وذاك فيما يختص بالعمر والحياة .؟

« ومن يُرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يُرد ثواب الاخرة نؤته منها » .

وشتان بين حياة وحياة ! وشتان بين اهتمام واهتمام ـ اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل ـ والذي يعيش لهذه الأرض وحدها ويريد ثواب الدنيا وحدها ، إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام ! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب. والذي يتطلع إلى الأفق الاخر ، إنما يحيا حياة الانسان ، الذي كرّمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب .. « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً » . . .

وهكذا يقرر القرآن حقيقة الموت والحياة ، وحقيقة الغاية التي ينتهي اليها الأحياء ، وفق ما يريدونه لأنفسهم ، من اهتمام قريب كاهتمام الدود ، أو اهتمام بعيد كاهتمام الانسان ! وبذلك ينقل النفس من الانشغال بالخوف من الموت والجزع من التكاليف ـ وهي لا تملك شيئاً في شأن الموت والحياة ـ إلى الانشغال بما هو أنفع

النفس ، في الحقل الذي تملكه وتملك فيه الاختيار . فتختار الدنيا أو تختار الاخرة وتنال من جزاء الله ما تختار .

وكل نفس معدودة الأنفاس ، متروكة لأجل لا تعلمه – فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه – بينما هو مرسوم محدود في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر وكل نفس موكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر ، لا يغفو ولا يغفل ولا يهمل – فهو حفيظ من الحفظة – وهو رسول من الملائكة – فاذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة – والنفس غافلة مشغولة أدّى الحفيظ مهمته وقام الرسول برسالته . وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به ، ويعرف أنه في كل لحظة قد يُقبض ، وفي كل نَـفَس قد يحين الأجل المحتوم . « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .

والموت غيب لا يدري انسان متى يُدركه . فمن أراد ألا يموت إلاّ مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً . وأن يكون في كل لحظة مسلماً : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . .

فبيد الله اعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى ، في الموعد المضروب والأجل المرسوم ، سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهليهم ، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة . وعنده الجزاء ، وعنده العوض ، عن خبرة وعن علم وعن بصر . (والله يُحيي ويميت والله بما تعملون بصير) .

فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان . ولا يرده حرص ولا حذر ، ولا يؤجله جبن ولا قعود ، والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء ، وهذا الواقع الذي يحجّهم به القرآن الكريم ، ويقر الحق في نصابه ويثبت قلوب المسلمين ، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين .

فالموت حتم في موعده المقدر ، ولا علاقة له بالحرب والسلم ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن ، ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن موعده ، هذا أمر وذاك

أمر ، ولا علاقة بينهما ، إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل ، بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد ، وليست هناك علاقة أخرى ، (أينما تكونوا يدرككم الموت، ولو كنتم في بروج مشيدة) .

وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر ، وكل ما يُنشئه التصور المضطرب من خوف ومن ذعر .

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية فقد سبق أن أمَرهم الله بأخذ الحذر وأمرهم بالاحتياط في صلاة الخوف . كما أمرهم باستكمال العدة والأهبة ، ولكن هذا كله شيء وتعليق الموت والأجل به شيء آخر ، إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله ، وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب — رغم كل استعداد واحتياط — أمر آخر يجب أن يطاع ، وله حكمته الظاهرة والخفية ، ووراءه تدبير الله .

هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة ، وهذه هي السنة التي ليس لها استثناء ، فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق ، « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

إنه الموت نهاية كل حي ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض وإلى الله يرجع الجميع ، فكل حادث فهو فان وكل ماله بدء فله نهاية ، « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون » ، وإذا كان الرسول ﷺ يموت فهل هم يخلدون وإذا كانوا لايخلدون فما لهم لايعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لايتبصرون ولا يتدبرون؟

فالموت حتم حين يأتي ، فلا داعي أن يحسبوا حسابه ، وهم لا يعلمون أسبابه ، (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) (وما تدري نفس بأي أرض تموت) فذلك أمر وراء الستر المسبل السميك الذي لا تنفذ منه الأسماع والأبصار ، إن ملك الموت يتوفى الأنفس حين ينتهي الأجل (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكّل بكم) هكذا

في صورة اليقين ، فأما ملك الموت من هو ؟ وكيف يتوفى الأنفس فهذا من غيب الله الذي نتلقى خبره من هذا المصدر الوثيق الأكيد ، ولا زيادة على ما نتلقاه من هـــذا المصدر الوحيد .

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر يدفعها في الطريق المرسوم وينتهي بها إلى النهاية المحتومة ، والموت أو القتل قَدَر لا مفر من لقائه في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . ولن ينفع الفرار في دفع القدر عن فارّ ، فاذا فروا فانهم ملاقون حتفهم المكتوب في موعده القريب وكل موعد في الدنيا قريب ، وكل متاع فيها قليل (قل لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل) .

فقَدَر الله هو المسيطر والأنفس في قبضته ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فالله يستوفي الآجال الأنفس التي تموت ، وهو يتوفاها كذلك في منامها ، وإن لم تمت بعد — ولكنها في النوم متوفاة إلى حين — فالتي حان أجلها يمسكها فلا تستيقظ ، والتي لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحوا إلى أن يحلّ أجلها المسمى فالأنفس في قبضته دائماً في صحوها ونومها .

فلا يعرف الانسان متى يحين أجله فيجب عليه أن يستيقظ ، فالحيـــاة إلى نهاية والموت الذي يفر منـــه فإنه ملاقيه (قل إن الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

وهي لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخـــاطبين ، تقر في الاخلاد حقيقة ينساها الناس وهي تلاحقهم أينما كانوا ، فهذه الحياة إلى انتهاء والبعد عن الله فيما ينتهي للرجعة اليه ، فلا ملجأ منه إلا اليه ، والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة ، فلا مهرب ولا فكاك .

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعاً : (مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدَيْن ، فجاء يسعى ، حتى إذا أعيا وأنهر دخل حجره فقالت له الأرض : يا ثعلب ! ديني ، فخرج

له حصاص ، فلم يزل كذلك حتى انقطعت عنقه فمات) . وهي صورة موحيـــة عميقة الايحاء .

٢ – رهبة الموت

إن الموت حقيقة قاسية رهيبة تواجه كل حي ، فلا يملك لها رداً ، ولا يملك لهـا أحد ممن حوله دفعاً . وهي تتكرر في كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً ، لاحيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع ولا تأجيل . مما يوحي بأنهـا قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً . ولا مفر من الاستسلام لهـا ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليـا . فبيد الله اعطاء الحياة وبيده استرداد ما أعطى في الموعد المضروب والأجل المرسوم ، سواء كان الناس في بيوتهـم وبين أهلهم ، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة ، وعنـده الجزاء وعنده العوض ، عن خبرة وعن علم وعن بصر ، (والله يُحيي ويميت) ، الكل مرجعه إلى الله ، محشور إلى الله ، فما لهم مرجع سوى هذا المرجع ، وما لهم مصير سوى هذا المصير . والتفاوت اذن يكون في العمل والنية وفي الاتجاه والاهتمام . أما النهاية فواحدة . الموت في الموعد المحتوم والأجل المقسوم ، ورجعة إلى الله وحشر في يوم الجمع والحشر ، ومغفرة من الله ورحمة أو غضب من الله وعذاب . فأحمق الحمقى من يختـار لنفسه المصير البائس وهو ميت على كل حال (كل نفس ذائقة الموت) . إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس . حقيقة أن الحياة في هـذه الأرض موقوتة محدودة بأجل ثم تأتي نهـايتها حتماً . يموت الصالحون ويموت الطالحون . يموت المجـــاهدون ويموت القاعدون . يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد . ويموت الشجعان الذين يأبون الضيم ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن . يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص ، الكل يموت ، (كل نفس ذائقة الموت) . كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحيـاة ، لا فارق بين نفس ونفس في تذوق

هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع ، إنما الفارق في شيء آخر . الفارق في قيمة أخرى . الفارق في المصير ، (إنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز) .

هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق . وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان . القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد . والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب ، (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) .

ولفظ زُحزح يصور معناه بجرسه ويرسم هيئته ويلقي ظله ! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها ، ويدخل في مجالها فهو بحاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة ، فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ويستنقذ من جاذبيتها ويدخل الجنة فقد فاز .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها ، قال : فجاءفنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأُمِرَ بها فحُفَّت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فرجع إليها، فقال: وعزتك لقد خِفتُ أن لا يدخلها أحد ، وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها ، قال : فنظر اليها فاذا هي يركبُ بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع اليها فقال : وعزتك لقد خشيتُ أن لا ينجو منها أحد) [1] .

صورة قوية . بل مشهد حي ، فيه حركة وشد وجذب ! وهو كذلك في حقيقته وطبيعته . فللنار جاذبية ! أليست للمعصية جاذبية ؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية ؟ بلى ! وهذه هي زحزحتها عن النار ! أليس الانسان — حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة — يظل أبداً مقصراً في العمل إلا أن

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي واللفظ له وقال : حديث حسن صحيح .

يُدركه فضل الله ؟ بلى وهذه هي الزحزحة عن النار ، حين يدرك الانسان فضلُ الله ، فيزحزحه عن النار !

إن الموت هو نهاية الحياة الأرضية ، وبرزخ ما بين الدنيا والاخرة ، (ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) ، فالموت إذن طور من أطوار النشأة الانسانية وليس نهاية الأطوار . ثم هو البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة .

وبعد ذلك تبدأ الحياة الكاملة ، المبرأة من النقائص الأرضية ، ومن ضرورات اللحم والدم ، ومن الخوف والقلق ، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الانسان . وذلك لمن يسلك طريق الكمال . الطريق الذي رسمه الله . طريق المؤمنين فأما من ارتكس في مرحلة الحياة الدنيا إلى درك الحيوان فهو صائر في الحياة الأخرى إلى غاية الارتكاس . حيث تهدر آدميته ، ويستحيل حصباً من حصب جهنم ، التي وقودها الناس والحجارة . والناس من هذا الصنف هو والحجارة سواء .

والقرآن الكريم يواجه الناس بمشهد الاحتضار ، هذا المشهد القاسي (كلا إذا بلغت التراقي وقيل مَن راق وظن أنه الفراق ، والتفّت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق) .

إنه مشهد الموت . الموت الذي ينتهي إليه كل حي ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي . الموت الذي يفرق بين الأحبة ، ويمضي في طريقه لا يتوقف ، ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف !

الموت الذي يصرع به الجبابرة بنفس السهولة الذي يصرع به الأقزام ، ويقهر به المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه . وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه . وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير ، وتكون السكرات المذهلة ، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار ، ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ روح المكروب : (وقيل

مَن راق) ، لعلَّ رُقية تفيد !.. وتلوي المكروب من السكرات والنزع (والتفت الساق بالساق) وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذي يُساق إليه كل حي في نهاية المطاف ، (إلى ربك يومئذ المساق) .

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق وكل آية ترسم حركة . وحالة الاحتضار ترتسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة التي لا دافع لها ولا رادّ ، إنه الطريق إلى الله (وإن إلى ربك المنتهى) فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره : في نعيم أو جحيم . لهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الانسان وتصوره . فحين يحسّ الانسان أن المنتهى إلى الله . منتهى كل شيء . وكل أمر . وكل أحد . فانه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة أو يحاول في هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق .

فماذا يفعل الانسان حين تبلغ روحه الحلقوم (فلولا إذا بلغت الحلقوم) ، فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون في مفرق الطريق المجهول . إننا لنكاد نسمع صوت الحشرجة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق ، كما نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (لما ثَقُل رسول الله ﷺ ، جَعَل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة : واكرب أبتاه ؟! فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد الموت ، فلما مات قالت : يا أبتاه ، أجابَ ربّاً دعاه ، يا أبتاه ، جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه ، فلما دُفن قالت : يا أنس ، كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب [1] ؟) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ألَم تروا إلى الانسان : إذا ماتَ شَخَصَ بصرُه ؟ قالوا : بلى ، قال : فذلك حين يتبع بصرُه نفسه [2]) وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه مسلم .

ـــ وقد شق بصره ـــ فأغمضه ، ثم قال : إن الروح إذا قُبض تبعه البصر ، فضجّ ناسٌ من أهله ، فقال : لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ، فان الملائكة يؤمّنون على ماتقولون ، ثم قال : اللهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عَقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين ، وافسح له في قبره ، ونَوّر له فيه (١)) .

هنا في هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا ، وخلّفت وراءها الأرض وما فيها . وهي تستقبل عالماً لا عهد لها به . ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر . هنا . وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عمن حولها وما حولها . الجسد هو الذي يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً . هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر . وينتهي مجال البشر . هنا يعرفون ـــ ولا يجادلون ـــ أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون . هنا تتفرد القدرة الإلهية والعلم الإلهي . ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال ، (ونحن أقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون) ، وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره ـــ سبحانه وتعالى ـــ وهو حاضر في كل وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فاذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفي ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال (فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) فلو كان الأمر كما تقولون : إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين فدونكم إذن فلترجعوها ـــ وقد بلغت الحلقوم ـــ لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء ، وأنتم حولها تنظرون . وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون .

هنا تسقط كل علة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهي كل جدال .

---

(١) اخرجه مسلم .

ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل . (فأما إن كان من المقربين فرَوح وريحان وجنة نعيم) فالروح هنا ترى علائم النعيم الذي ينتظرها : رَوْح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة . وتلقي ظلال الراحة الحلوة ، والنعيم اللين والانس الكريم . (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) يبلغه سلام اخوانه من أصحاب اليمين . وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن باله ويشعر بالانس في الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين .

(وأما إن كان من المكذبين الضالين فنُزُل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين) ، وما أسوأه نزلاً ومثوى ذلك الحميم الساخن . وما أشده عذاباً ذلك الجحيم. يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين .

إن مشهد الاحتضار ذو لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الاخر ، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئاً ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله . قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئاً عما يرى ولا أن يشير .

ويتمنى الانسان أن يعود في هذه اللحظة إلى الدنيا يعمل صالحاً ، (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : ربّ ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها) ، إنه مشهد الاحتضار واعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة ، لتدارك ما فات ، والاصلاح فيما ترك وراءه ، فاذا الردّ على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد ، (كلا إنها كلمة هو قائلها) ، كلمة لا معنى لها ولا مدلول وراءها ، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها . إنها كلمة الموقف الرهيب ، لا كلمة الاخلاص المنيب . كلمة تُقال في لحظة الضيق ، ليس لها في القلب من رصيد . وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعاً . فلقد قُضي الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب ، وأسدلت الأستار ،

(ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) ، فلا هم من أهل الدنيـــا ، ولا هم من أهل الآخرة . إنما هم في ذلك البرزخ بَين بين ، إلى يوم يُبعثون .

٣ ــ الامل القاتل

يقول الله سبحانه : (إن الذين لا يؤمنون بالاخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون) ، إن الايمان بالاخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة . والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هـذا الكوكب ، وهي قصيرة مهما طالت . وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيها التي لا تُنـــال ! ثم ما الذي يمسكه حين يملك ارضاء شهواته ، وتحقيق لذاته ورغبـــاته ، وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدي الله ، ولا يتوقع ثواباً ولا عقـاباً يوم يقوم الأشهاد ، ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مُزَيَّناً للنفس التي لا تؤمن بالآخـرة ، تندفع إليه بلا معوق من تقوى أو حياء ، والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لهـا ، وأن تجده حسناً جميلاً ، ما لم تهتد بآيات الله ورسالاته الى الايمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفاني فإذا هي تجد لذتها في أعمال أخرى وأشواق أخرى ، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام ، والذين لا يؤمنون بالآخرة فهم في حياة حيوانية للأكل والمتاع (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلههم الأمل فسوف يعلمون) ، ذرهم فيما هم فيه من حيـاة حيوانية محضة للأكل والمتـاع . لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع . ذرهم في تلك الدوامة ، الأمل يلهي والمطامع تعز ، والعمر يمضي والفرصة تضيـع . ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين ، الذين ضلوا في متـاهة الأمل والغرور ، يلوح لهـم ويشغلهم بالأطماع ، ويملي لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود وأنهم محصلون ما يطمعون لا يردهم عنه رادّ ، ولا يمنعهم منه مانع ، وأن ليس وراءهم حسيب ، وأنهم ناجون في النهـــاية بما

ينالون مايطمعون ، وصورة الأمل الملهي صورة إنسانية حية ، فالأمل البراق مايزال يخايل لهذا الانسان ، وهو يجري وراءه ، وينشغل به ، ويستغرق فيه ، حتى يجاوز المنطقة المأمونة ، وحتى يغفل عن الله ، وعن القدر ، وعن الأجل ، وحتى ينسى أن هناك واجباً ، وأن هناك محظوراً ، بل حتى ليس أن هناك إلهاً ، وان هناك موتاً . وان هناك نشورا . وهذا هو الأمل القاتل .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خط رسول الله ﷺ خطاً ، وقال : (هذا الإنسان) ، وخطّ إلى جانبه خطاً ، وقال : (هذا أجله) ، وخط آخر بعيداً منه ، فقال : (هذا الأمل) ، فبينما هو كذلك ، إذ جاءه الأقرب [1]) .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا [2]) .

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ، فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) . وكان ابن عمر يقول : (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك [3] ومن حياتك لموتك [4]) .

وفي رواية الترمذي قال : أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي ، فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعدّ نفسك من أهل القبور ، قال مجاهد : فقال لي ابن عمر : (إذا أصبحت فلا تُحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البزار .

(٣) اي بادر أيام صحتك بالعمل الصالح ، فان المرض قد يطرأ ، فيمنع عن العمل ، فيخشى على من فرط في ذلك أن يصل الى المعاد بغير زاد ، ولا يعارض ذلك الحديث الصحيح « اذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحا مقيما » لانه ورد في حق من يعمل ، والتحذير في حديث ابن عمر في حق من لم يعمل ، فانه اذا مرض ندم على تركه العمل وعجزه لمرضه عن العمل ، فلا يفيده الندم .

(٤) رواه البخاري .

نفسك بالصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك قبل موتك ، فانك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غداً) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه : (اغتنم خمساً قبل خمس : (شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك [1]) .

وعن عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا من المدائن على فرسخ ، فلما جاءت الجمعة حضرنا . فخطبنا حذيفة فقال : إن الله عز وجل يقول (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ألا وإن الساعة اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق ، فقلتُ لابي أيسبقُ الناسَ غداً ؟ قال : إنك لجاهل ، إنما يعني العمل اليوم والجزاء غداً فلما جاءت الجمعة الأخرى حضرنا فخطبنا حذيفة فقال : إن الله يقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة[2]) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (اقتربت الساعة ولا تزداد منهم إلا بُعدا)وفي رواية الحاكم لفظه : (قال رسول الله ﷺ :(اقتربت الساعة ، ولا يزداد الناس على الدنيا إلاحرصاً ، ولا تزدادون من الله إلا بُعداً [3]) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : مَرّ بي النبي ﷺ وأنا أطين حائطاً لي أنا وأمي ، فقال : ما هذا يا عبد الله ؟ فقلتُ يا رسول الله وهي ، فنحن نصلحه ، فقال : الأمر أسرع من ذلك[4]) .

عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (هل تدرون ما مَثَلُ

---

(١) اخرجه الحاكم ٣٠٦/٤ وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وهو كما قالا ، وقال الحافظ في « الفتح » واسناده حسن ، اخرجه ابن المبارك في الزهد والخطيب في اقتضاء العلم والعمل بسند صحيح .

(٢) رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٣) رواه الطبراني ورواته محتج بهم في الصحيح ، والحاكم وقال صحيح الاسناد .

(٤) رواه ابو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

هذه وهذه ؟ ورمى بحصاتين ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : (هذا الأمل ، وهذاك الأجل[1]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أعذر الله[2] إلى امرىء ، أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة[3]) .

قال ابن بطال : إنما كانت الستون حداً لهذا ، لأنها قريبة من المعترك وهي سن الانابة والخشوع ، وترقب المنية ، فهذا إعذار بعد إعذار ، لطفاً من الله لعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم ، ثم اعذر اليهم ، فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة ، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل ، لكنهم أُمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليمتثلوا ما أُمروا به من الطاعة ، وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية .

إن الآخرة حلقة في سلسلة النشأة ، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة . والذين لا يدركون حكمة النشأة ولا يدركون ناموس الوجود يغفلون عن الآخرة ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يحسبون حسابها ، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجود ، لا تتخلف مطلقاً ولا تحيد ، والغفلة عن الاخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل ، وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم ، فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً ، ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً ، لأن حساب الاخرة في ضمير الانسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض . فحياته على الأرض إن هي إلا رحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون . ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من

---

(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، واقره المنذري على تحسينه في الترغيب والترهيب

(٢) الاعذار : ازالة العذر ، والمعنى انه لم يبق له اعتذار ، كأن يقول : لو مُدَّ لي في الاجل لفعلت ما امرت به . يقال : اعذر اليه : اذا بلغه أقصى الغاية في العذر ، ومكّنه منه ، واذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ الا الاستغفار والطاعة والاقبال على الآخرة بالكلية ، ونسبة الاعذار الى الله مجازية ، والمعنى ان الله لم يترك للعبد سببا في الاعتذار يتمسك به ، والحاصل أنه لا يعاقب الا بعد حجة .

(٣) رواه البخاري .

نصيبه الضخم في الوجود . والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة . ولا ينبغي أن يبني الانسان حكمه على رحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة ، ومن ثم لا يلتقي انسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) ، لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حادثة أو حالة أو شأن من الشؤون . فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياءوالاحداث والقيم والأحوال . هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا ، وذاك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنياوالاخرة، والموت والحياة ، والماضي والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعـــالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء ، وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الاسلامُ البشريةَ إليه ، ويرفعها فيه إلى المكان الكريم اللائق بالانسان خليفة الله في الأرض . المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله ، حقاً أنه لا يجتمع في قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله والشعور بحقيقة هذا اللقاء مع التميع في تصور جزائه وعدله ، يقول الحسن البصري رحمه الله (هيهات هيهات ، أهلك النـــاسَ الأماني ، قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، مالي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً ، وأسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرّموا ثم استحلّوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه ، إذا سُئلَ أمؤمن أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين) .

حقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله مع الاعراض عن الاحتكام إلى الله وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحيـاة ، فالدنيا ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة ، ووراءها الآخرة ، والمتاع فيها هو المتاع – فضلاً على أن المتاع فيها طويل كثير فهي خير (خير لمن اتقى) وفي الآخرة الجزاء الأوفى .

وعن الإمام علي رضي الله عنه قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة . ألا وإن الدنيا ارتحلت مدبرة ، وارتحلت الاخرة مقبلة ، ولكل واحدة منها بنون ، فكونوا من أبناء الاخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل[1])

وعن عبد الله عن النبي ﷺ قال : (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك[2]) .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : أوصني قال (عليك بالأياس مما في أيدي الناس ، وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر ، وصلّ صلاتك وأنت مودع ، وإياك وما يُعتذر منه[3]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال : فتناً كقطع الليل المظلم ، يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا[4] .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة[5]) .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أوموتاً مجهزاً ، أو الدجال ، فشرُّ غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر[6]) .

---

(١) الحافظ في الفتح .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الحاكم والبيهقي وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

(٤) ، (٥) رواه مسلم .

(٦) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

إن التكذيب بيوم الدين هو رأس البلايا : (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ، قالوا لم نكُ من المصلين ، ولم نكُ نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) .

إن الذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين ، وتضطرب في تقديره جميع القيم ، ويضيق في حسّه مجال الحياة ، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض ، ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير ، فلا يطمئن إلى هذه العواقب ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير ، ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ، ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها ، وينتهي من ثم إلى شر مصير ، فيأتيه الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب ، ويفصل في الأمر بلا مرد ، ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح ، وبعد الموت البعث والنشور (ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه) ، ذلك الجمع الذي لا ريب فيه يشي بما وراءه من عناية الله سبحانه بعباده من الناس ، فقد خلقهم لأمر واستخلفهم في هذه الأرض لغاية ، ولم يخلقهم عبثاً ، ولم يتركهم سدى ولكن يجمعهم الى يوم القيامة — فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيؤون اليه كما يفيء الراحل الى وجهته — فيعطيهم جزاء كدحهم اليه ، فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر ، إنما يُوفّون أجورهم يوم القيامة ، لن يخسر في هذا اليوم الا الذين لم يؤمنوا في الدنيا ، وهؤلاء لن يخسروا شيئاً ويكسبوا شيئاً ، هؤلاء خسروا كل شيء (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) ، فقد خسروا أنفسهم كلها ، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئاً ، أليس ان الانسان إنما يكسب لنفسه ؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب ؟ ولمن يكسب ؟

لقد خسروا أنفسهم وفقدوها ، فلم تعد لهم نفس تؤمن ، ان الذين لا يؤمنون بهذا الدين — مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الايمان ودلائله — هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم ، لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة

الفطرية في كيانهم معطلة مخربة ، أو محجوبة مغلقة ، فهم في هــذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها ، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كيانها ، ومن ثم فهم لا يؤمنون ، إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون ، هـذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم ، وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم.

ان عدم الخوف من الآخرة هو الذي ينأى بالناس عن التذكرة وينفّرهم من الدعوة (كلا بل لا يخافون الاخرة) ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الاخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن ، وإن هذا القرآن هو تنبه وتذكر .. (كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره) ، فمن شاء فليذكر ، ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنة وكرامة أو من سقر ومهانة .

يقول الإمام الغزالي : (إن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والاخر حبّ الدنيا ، أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنِسَ بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دَفَعه عن نفسه ، والانسان مشغوف بالأماني الباطلة فيُمَنِّي نفسه أبداً بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودوابَ وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يُقدر قربه ، فان خَطَر له في بعض الاحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووَعَد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخاً ، فاذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بنـــاء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك ، فلا يزال يسوّف ويؤخر ولا يخوض في شُغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويفضي به شغل إلى شُغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت

لايحتسبه فتطول عند ذلك حسرته . وأكثر أهل النار وصياحهم مَنْ سَوَّف يقولون: واحزناه من سوّف ، والمسوّف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط ، وهيهات فما يفرغ منها إلا من طرحها .

وأصل هذه الأماني كلها حبُّ الدنيا والانس بها . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدُّوا لكانوا أقل من عُشر رجال البلد ، وإنما قلُّوا لأن الموت في الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب ، وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فانما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يُقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبداً يظن أنه يُشيع الجنائز ولا يُقدر أن تُشَيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه ، فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه . فهو الأول وهو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بد وأن تُحمل جنازته ويدفن في قبره ، فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا ، فعلاجه دفع سببه ، أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة ، وأما حب الدنيا فالعلاج في اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين ، علاجه ولا علاج له إلا الايمان باليوم الآخر بما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حَصَل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فان حبّ الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير . فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت الى الدنيا كلها وإن أعطي مُلك الأرض من المشرق إلى

المغرور ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الايمان بالاخرة . وعلاج تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا ، أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً ، وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً ، فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة ، وكيف تتفتت عظامها . وليتفكر فما على بدنه شيء الا وهو طعمة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى[1].

٤ ــ ذكر الموت

إن القران يصيح بقوم غافلين مخمورين سادرين ، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة وحسهم مسحور (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهثون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيهـا التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون الى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر ، استيقظوا وانظروا .

ثم يقرع القرآن قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك . (كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) ويزيد في التوكيد عمقاً ورهبة ، وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقيل ، لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار . إنه إيقاع يدع المخمور يفيق ، والغافل يتنبه ، والسادر يتلفت ، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم .

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل ، وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة ، ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال . وان ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن

---

(١) احياء علوم الدين جزء ٤ صفحة ٤٤١ .

الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا ، وقد حثَّ رسول الله ﷺ على الاكثار من ذكر الموت فقال : (أكثروا ذكر هادم اللذات[1]) يعني الموت .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ بمجلس وهم يضحكون ، فقال (أكثروا من ذكر هادم اللذات[2]) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال (كانت عِبَراً كلها : عجبتُ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن اليها ، وعجبتُ لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل[3]) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أتيتُ النبي ﷺ عاشرَ عشرة ، فقام رجل من الأنصار فقال : يا نبي الله : من أكيسُ الناس ، وأحزم الناس ؟ قال : (أكثرهم ذكراً للموت ، وأكثرهم استعداداً للموت ، أولئك الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة[4]) .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : مات رجل من أصحاب النبي ﷺ فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يثنون عليه ، ويذكرون من عبادته ورسول الله ﷺ ساكت ، فلما سكتوا . قال رسول الله ﷺ هل كان يكثر ذكر الموت ؟) قالوا : لا ، قال (فهل كان يدع كثيراً مما يشتهي ؟) قالوا : لا ، قال (ما بلغ صاحبكم كثيراً مما تذهبون إليه[5]) .

وعن البراء رضي الله عنه قال : (كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة ، فجلس على شفير القبر فبكى حتى بَلَّ الثرى ، ثم قال : (يا إخواني لمثل هذا فأعدّوا[6]) .

---

(١) رواه ابن ماجه ، والترمذي وحسنه عن ابي هريرة ومعناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى .

(٢) رواه البزار باسناد حسن .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه وغيره .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت ، والطبراني في الصغير باسناد حسن .

(٥) رواه الطبراني باسناد حسن .

(٦) رواه ابن ماجه باسناد حسن

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قلتُ يا رسول الله أوصني ، قال : (اعبد الله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر ، وإذا عملتَ سيئة فاعمل بجنبها حسنة ، السرُّ بالسر ، والعلانية بالعلانية[1]) .

يقول الامام الغزالي (اعلم أن المنهمك في الدنيا المكبّ على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإذا ذُكّر به كرهه ونفر منه ، أولئك هم الذين قال الله فيهم (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

ثم الناس إما منهمك وإما تائب مبتدىء أو عارف منته . أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمّته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بُعدا ، وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ (من كره لقاء الله كره الله لقاءه[2]) .. فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقلت يا نبي الله : أكراهية الموت ، فكلنا يكره الموت ؟ قال : (ليس ذلك . ولكن المؤمن إذا بُشّر برحمة الله ورضوانه وجنته أحبّ لقاء الله ، فأحبّ الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بُشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه[3]) .

وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من أحبّ لقاء الله

---

(١) رواه الطبراني باسناد جيد .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

أحبَّ الله لقاءه ، ومن كره لقــاء الله كره الله لقاءه) . قلنا : يا رسول الله ، كلنا يكره الموت ؟ قال (ليس ذلك كراهيــة الموت ، ولكن المؤمن إذا حُضِرَ جاءه البشير من الله فليس شيء أحبَّ اليه من أن يكون قد لقي الله ، فأحبَّ الله لقــاءه ، وان الفــاجر ــ أو الكافر ــ إذا حُضِرَ جاءه ما هو صائر اليه من الشر ــ أو ما يلقى من الشر ــ فكره لقاء الله ، فكره الله لقاءه [1]) .

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقائه مع ربّ العالمين ، وهــذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت ، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار الله . . عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (تحفة المؤمن الموت [2]) . وأعلى منها رتبة من فوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة بل يكون أحبَّ الاشياء اليه أحبها إلى مولاه ، فهذا مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى .

عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (لا يتمنّينَّ أحدكم الموت لضُرٍّ نزل ، فان كان ولا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي [3]) .

وعن أم الفضل رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل على العباس وهو يشتكي ، فتمنى الموت ، فقال (يا عباس عم رسول الله ﷺ ــ لا تتمنَّ الموت ، إن كنتَ محسناً تزداد احساناً إلى احسانك خيرٌ لك ، وإن كنتَ مسيئاً ، فأن تؤخَّر تستعتب من إساءتك خيرٌ لك ، لا تتمنَّ الموت [4]) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ (لا تتمنوا الموت فان هول المطلع شديد ، وان من السعادة أن يطول عُمر المرء ، ويرزقه الله الانابة [5]) .

---

(١) رواه احمد ورواته رواة الصحيح ، والنسائي باسناد جيد .

(٢) رواه الطبراني باسناد جيد .

(٣) رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي .

(٤) رواه احمد والحاكم واللفظ له وقال : صحيح على شرطهما .

(٥) رواه احمد باسناد حسن والبيهقي

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال (من طال عمره وحسُن عمله) قال : فأي الناس شر قال : (من طال عمره وساء عمله [1]) .

عن عبد الله بن شداد أن نفراً من بني عُذرة ثلاثة أتوا النبي ﷺ فأسلموا ، قال : فقال النبي ﷺ (من يكفيهم ؟) قال طلحة أنا ، قال : فكانوا عند طلحة ، فبعث النبي ﷺ بعثاً ، فخرج فيه أحدهم فاستشهد ، ثم بعث بعثاً فخرج فيه آخر فاستشهد ، ثم مات الثالث على فراشه ، قال طلحة : فرأيتُ هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة ، فرأيت الميتَ على فراشه أمامهم ، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه ، ورأيت أولهم آخرهم ، قال : فداخلني من ذلك ، فأتيت النبي ﷺ فذكرتُ ذلك له فقال : (وما أنكرتَ من ذلك ؟ ليس أحد أفضل عند الله عز وجل من مؤمن يعمّر في الاسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله [2]) .

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فان المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت في التجافي عن الدنيا ، إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته ، وكل ما يكدّر على الانسان اللذات فهو من أسباب النجاة) .

ويقول الغزالي (إن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه ، فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر الى مفازة مخطرة أو يركب البحر فانه لا يتفكر إلا فيه ، فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقلّ فرحه وسروره بالدنيا ، وينكسر قلبه ، وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورتهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حُسن صورهم وكيف

---

(1) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، والطبراني باسناد صحيح ، والحاكم .
(2) رواه أحمد وابو يعلى ورواتهما رواة الصحيح .

تبددت أجزاؤهم في قبورهم ، وكيف ضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم ، فمهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهّم صورته وتذكر نشاطه وتردده للعيش والبقاء ونسيانه الموت ، وانخداعه بمواتاة الأسباب وركونه إلى القدرة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد ، والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كان ينطق وقد أكلَ الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكلَ التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه ما لايحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يُراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ، فعندذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرتَ الموتى فَعُدَّ نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وُعِظ بغيره .

وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً الى الله عز وجل تضعونه في صدع من الأرض وقد توسّد التراب وخلّف الأحباب ، وقطع الأسباب .

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور . قال ابن مسعود رضي الله عنه (تلا رسول الله ﷺ — (فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) — فقال : (إن النور إذا دخل الصدر انفسح) فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تُعرف ؟ قال : (نعم ، التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله[1]) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في قصر الامل والحاكم في المستدرك .

وقال ﷺ (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ[1]) أي لا يغتنمها . ثم يعرف قدرهما عند زوالهما .

وقال ﷺ (من خاف أدلج [2] ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة [3]) .

وقال رسول الله ﷺ (جاءت الموت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه[4]).

وأما ذكر الموت بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته ..

عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (الكيّسُ من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني [5]) .

٥ — سكرات الموت

إن الموت هو أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره . ولكن أنّى له ذلك . والموت طالب لا يَمِلّ الطلب . ولا يبطىء الخطى ، ولا يخلف الميعاد .. وإذا جاء تأتي سكراته .. (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنتَ منه تحيد) ..

وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال . وانه ليرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات ! وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ — لما تغشاه الموت — جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : (سبحان الله إن الموت لسكرات) .. كما كان يدعو ﷺ (اللهم هوّن على

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عباس .

(٢) الإدلاج : السير من اول الليل ، ومعنى الحديث أن من خاف الزمه الخوف السلوك الى الاخـرة .

(٣) اخرجه الترمذي من حديث ابي هريرة وقال حديث حسن .

(٤) رواه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب .

(٥) رواه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن .

محمد سكرات الموت) . يقولها وقد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله. فكيف بمن عداه ؟ فكيف بالظالمين ؟ (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) .

مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون في غمرات الموت وسكراته – ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب – والملائكة يبسطون اليهم أيديهم بالعذاب ، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب .

يقول الإمام الغزالي : (اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته . وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لا سيما وهو في كل نفَس بصدده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك .. واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فانما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه .. فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح . فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم ، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده .

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق بجميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حلّ به الألم ، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة

في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذي مسّه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار . فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه ، فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم . فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف ، إنما يؤلم لتعلقه بالروح . فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ، وانما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة . فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وأربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله ، فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله ، وتخضر أنامله ، فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح لا من عرق واحد بل من جميع العروق ، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه . ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله ﷺ (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1]) .

فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته . فقد روي عن النبي ﷺ (أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول : اللهم هوّن عليّ سكرات الموت[2]) . وقد سئل ﷺ عن الموت

---

(١) اخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه من حديث ابن عمر .
(٢) متفق عليه .

وشدته فقال : (إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف) .

وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول في الدنيا والاخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشيد وقرض بالمقاريض وغلي في القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم[1]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : (إذا حضر المؤمن ، أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح من الله وريحان ، ورب غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً ، حتى يأتوا به أبواب السماء ، فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه ، فانه كان في غم الدنيا ، فيقول : قد مات ، أما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية ، وإن الكافر إذا حضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله عز وجل ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، حتى يأتون به باب الأرض فيقولون : ما أنتن هذه الريح ، حتى يأتون به أرواح الكفار[2]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها ـ قال حماد في روايته : فذكر من طيب ريحها ، ذكر المسك ـ قال : فيقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه . فينطلق به إلى ربه ، ثم يقول : انطلقوا به الى ربه ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل ، قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد : وذكر من نتنها ـ فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه

---

(١) إحياء علوم الدين جزء ٤ ، ص : ٤٤٥ .

(٢) أخرجه النسائي واسناده حسن .

ـ هكذا ـ وذكر لعنًا ـ ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض، فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل[1]) .

يقول الحارث المحاسبي في كتابه التوهم : (الموت لا محالة نازل بك بكربه وغصصه ونزعه وسكراته . فتوهَّم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربك ، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملك يجذب روحك فوجدت ألم جذبه ثم تدارك الجذب واستحث النزع ، وجذبت الروح من جميع بدنك حتى إذا بلغ الكروب منك منتهاه وعمت آلام الموت جميع جسمك ، وقلبك وجل محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضى ، وقد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك ، فبينا أنت في كربك وغمومك وألم الموت بسكراته ، إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرت اليه مادًا يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك فذلت نفسك لما عاينت ذلك وعاينت وجه ملك الموت ، وتعلق قلبك بماذا يفاجئك من البشرى منه إذا سمعت صوته بنغمته أبشر ياولي الله برضا الله وثوابه ، أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقر الأمر في قلبك فتطمئن نفسك إلى الله ، أو تستيقن بهلاكك ويحل اليأس قلبك) .

٦ ـ فتنة القبر وعذابه

إن الموت يقترب من كل حي ، في وقته الذي رسمه الله عز وجل ومن ثم ينتقل الانسان إلى القبر ، وهو أول منزل من منازل الاخرة يلاقي فيه العذاب :

عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر ، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، قالت عائشة : فسألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : (نعم ، عذاب القبر حق) قالت : فما رأيت رسول الله ﷺ ـ بَعْدُ

---

(١) اخرجه مسلم .

صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[١]) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قال (إن الموتى ليعذبون في قبورهم حتى إن البهائم لتسمع أصواتهم[٢]) .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فذكر فتنة القبر التي يُفتن فيها المرء ، فلما ذكر ذلك ضجّ المسلمون ضجة[٣]) ، وزاد النسائي (حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنَتْ ضجّتهم ، قلت لرجل قريب مني : أيّ بارك الله لك ، ماذا قال رسول الله ﷺ آخـــر قوله ؟ قال : قد أُوحي إليّ : أنكم تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال) .

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : (بينا رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبرُ ستة أو خمسة ، فقال : من يعرف أصحاب هـذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال : في الشرك ، فقال : إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمعُ منه ، ثم أقبل علينا بوجهه ، فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوذوا بالله من فتنـة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال[٤]) .

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتاً . فقال : يهود تعذب في قبورها[٥]) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه الطبراني في الكبير باسناد حسن .
(٣) اخرجه البخاري هكذا .
(٤) اخرجه مسلم .
(٥) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : (مَرَّ رسول الله ﷺ على قبرين ، فقال : (اما إنّهما ليعذبان ، وما يُعذّبان في كبير ، ثم قال : بلى ، أمّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لايستتر من بوله ، قال : فدعا بعسيب رطب ، فشقه باثنين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ، ثم قال : لعله أن يخفّف عنهما ما لم ييبسا (1)) . وفي رواية (لا يستبرىء من البول) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (هذا الذي تحرك (2) له العرش ، وفتحت أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضُمَّ ضمّة ثم فُرِجَ عنه) .

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي : إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل نار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة (3)) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ يا رسول الله : تُبتلى هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة ؟ قال : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة (4)) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) قال : (نزلت في عذاب القبر) .

وفي رواية أن النبي ﷺ قال (المسلم إذا سُئِلَ في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) . وفي أخرى قال : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) نزلت في عذاب القبر ، يقال له : من ربك ؟ فيقول ربي الله ، ونبيي محمد ﷺ (5)) .

---

(1) اخرجه الجماعة الا الموطأ .

(2) يعني سعد بن معاذ والحديث اخرجه النسائي واسناده صحيح .

(3) اخرجه الجماعة الا ابا داود .

(4) رواه البزار ورواته ثقات .

(5) اخرجه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي .

وعن هانىء مولى عثمان بن عفان ، قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر يبكي حتى يبلّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنـــار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : (إني سمعت رسول الله ﷺ يقول · (القبر أول منزل من منـازل الآخرة ، فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد) قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه [1]) .

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وانه ليسمع قرع نعالهم ، إذا انصرفوا أتاه الملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنتَ تقول في هذا الرجل ، محمد ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي ﷺ : فيراهما جميعاً ، ـ قال قتادة : وذُكر لنـــا أنه يفسح له في قبره ـ وأما الكافر ـ أو المنافق ـ فيقول لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريتَ ، ولا تليتَ [2] ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين [3]) .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال : (إن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك ، فيقول له : ما كنتَ تعبد ؟ فإن الله هـــداه ، قال : كنت أعبد الله ، فيقول : ما كنتَ تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله ، فما يُسأل عن شيء بعدها ، فينطلق به إلى بيت كان له في النار ، فيقال له : هذا كان لك ، ولكن الله عصمك فأبدلك به بيتاً في الجنة ، فيراه ، فيقول : دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي ، فيقال له : اسكن ، قال : وان الكافر ـ أو المنافق ـ إذا وضع في قبره أتاه ملك فينتهره ، فيقول له : ما كنتَ تعبد ؟ فيقول : لا أدري ، فيقـال له : لا دريتَ ولا تليت ، فيقال له : ما كنتَ تقول في هذا الرجل ؟ فيقول كنت أقول ما يقول

(١) اخرجه الترمذي واسناده حسن .

(٢) يقال : لا دريت ولا تليت ، اي لا تبعتَ الناس بأن تقول شيئا يقولونه .

(٣) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم .

الناس ، فيضربه بمطراق بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين [١])

عن عطاء بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (يا عمر كيف بك إذا أنت مت ، فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا اليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك ، فاذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف ، وبصائرهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ، ويبحثان القبر بأنيابهما ، فتلتلاك وترتاك ، كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الان ؟ قال : نعم . قال : إذن أكفيكهما [٢]) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت يهودية على بابي ، فقالت : أطعموني أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، قالت : فلم أزل أحبسها حتى جاء رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ما تقول هذه اليهودية ؟ قال (وما تقول) : قلت : تقول : أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، قالت عائشة : فقام رسول الله ﷺ ورفع يديه مداً يستعيذ بالله من فتنة الدجال ، ومن فتنة عذاب القبر ، ثم قال : (أما فتنة الدجال فانه لم يكن نبي إلا حذّر أمته ، وسأحدثكم بحديث لم يحذّره نبي أمته : إنه أعور ، وان الله ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن . فأما فتنة القبر ، فبي يُفتنون وعني يُسألون ، فاذا كان الرجل الصالح أُجلس في قبره غير فزع ولا مشعوف [٣] ، ثم يقال له : فما كنت تقول في الاسلام ؟ فيقال : ما هذا الرجل الذي كان فيكم ؟ فيقول : محمد رسول الله جاء بالبينات من عند الله فصدقناه ، فيفرج له فرجة قِبل النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله ، ثم تفرج إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : هذا

---

(١) روى ابو داود نحوه والنسائي باختصار ، ورواه احمد باسناد صحيح .

(٢) رواه ابن ابي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ، قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلا .

(٣) الشعف : هو الفزع حتى يذهب بالقلب .

مقعدك منها ، ويقال : على اليقين كنتَ وعليه مت ، وعليه تبعث إنشاء الله . وإذا كان الرجل السوء أجلس في قبره فزعاً مشعوفاً . فيقال له : فما كنت تقول ؟ فيقول: سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا ، فيفرج له فرجة إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : انظر إلى ما صرّف الله عنك ، ثم يفرج له فرجة قبل النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، ويقال : هذا مقعدك منها ، على الشكّ كنتَ ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله ، ثم يُعذب[1]) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولما يُلحد بعد ، فجلس رسول الله ﷺ ،وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : (استعيذوا بالله من عذاب القبر – مرتين أو ثلاثاً) ثم قال : (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ويجيىء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة أُخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من رفي السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان – بأحسن أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا – حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان : من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك ؟ فيقول : ديني الاسلام ، فيقولان : ماهذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ،

(1) رواه احمد باسناد صحيح .

فيقولان : ما يدريك ؟ فيقول : قرأتُ كتاب الله وآمنتُ به وصدقته ، فينادي مناد من السماء : أن قد صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يُسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ، فوجهك الحسن يجيىء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : ربّ أقم الساعة ، ربّ أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجيىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها ، فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن جيفة وجــدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الريح الخبيثة ، فيقولون : فلان ابن فلان – بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا – حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ، فيُستفتح له فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ (لا تُفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، ثم تطرح روحه طرحاً ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ، فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان له : ما دينك ، فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ، فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء : أن كذب فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسؤوك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ، فوجهك الوجه القبيح يجيىء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : ربّ لا تقم الساعة وفي – رواية له

بمعناه ، وزاد : فيأتيه آت قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم ، فيقول : بَشَّرك الله بالشر ، من أنت ، فيقول أنا عملك الخبيث ، كنت بطيئاً عن طاعة الله ، سريعاً في معصيته ، فجزاك الله شراً ، ثم يُقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً ، فيضربه ضربة فيصير تراباً ثم يعيده الله كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، قال البراء : ثم يُفتح له باب من النار ، ويمهد له من فرش النار[1]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن المؤمن إذا قُبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجي إلى رَوْح الله ، فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً فيشمونه حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض ، ولا يأتون سماء إلا قالوا : مثل ذلك ، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم ، فيقولون : ما فعل فلان ، فيقولون : دعوه حتى يستريح ، فانه كان في غم الدنيا ، فيقول : قد مات أما أتاكم ، فيقولون : ذُهب به إلى أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون : أخرجي إلى غضب الله ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، فيذهب به إلى باب الأرض[2]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا قبر الميت — أو قال أحدكم — أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير ، فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ، فيقول ما كان يقول : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له نم ، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب

---

(١) رواه أحمد باسناد رواته محتج بهم في الصحيح قال الحافظ : هذا الحديث حديث حسن ، رواته محتج بهم في الصحيح .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه وهو عند ابن ماجه بنحوه باسناد صحيح

أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وان كان منافقاً ، قال : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ،فيقال للأرض : التئمي عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك[1]) .

يقول الامام الغزالي[2] (قال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول : أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الظلمة ، هذا ما أعددتُ لك ، فما أعددتَ لي .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه ، انك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد ، وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلي الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب .

وقال عبيد بن عمير الليثي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد ، فان كنتَ في حياتك لله مطيعاً كنتُ عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً ، ومن دخلني عاصياً خرج مثبورا) .

وقال يزيد الرقاشي : بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله ، فقالت : أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا .

قال عبيد الله بن عمير في جنازة بلغني أن رسول الله ﷺ قال : (إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول : ويحك ابن آدم أليس قد حذّرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي فماذا أعددت لي[3]) .

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ، وهو كما قال ، ورواه ابن حبان في صحيحه .

(٢) الاحياء ج ٤ .

(٣) رواه ابن ابي الدنيا في القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ، ورواه ابن المبارك في الزهد الا انه قال بلغني ولم يرفعه .

قال محمد بن علي : ما من ميت يموت إلا مُثّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة ، قال : فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته .

عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قول الله تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت) ، قال : أي شيء تريد ، في أي شيء ترغب ، أتريد أن ترجع لتجمع المـــال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار ، قال : لا ، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت قال : فيقول الجبار : (كلا إنها كلمة هو قائلها) ، أي ليقولها عند الموت .

عن عمر بن عبدالعزيز أنه شيع جنازة فلما انصرفوا تأخر عمر وأصحابه ناحية عن الجنازة فقال له بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين جنازة أنت وليُّها تأخرتَ عنها وتركتها فقال نعم ، ناداني القبر من خلفي : يا عمر بن عبد العزيز ألا تسألني ماصنعتُ بالأحبة قلتُ بلى ! قال : أحرقتُ الأكفان ، ومزقتُ الأبدان ، ومصصتُ الدم وأكلتُ اللحم ، قال : ألا تسألني ما صنعتُ بالأوصال ؟ قلت : بلى ! قال : نزعتُ الكتفين من الذراعين والذراعين من العضدين ، والعضدين من الكتفين ، والوركين من الفخذين ، والفخذين من الركبتين ، والركبتين من الساقين والساقين من القدمين ، ثم بكى ، ثم قال : ألا إن الدنيا بقاؤها قليل وعزيزها ذليل وغنيها فقير وشابُّها يهرم ، وحيها يموت ، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها ، فالمغرور من اغترّ بها . أين سكانها الذين بنوا مدائنها وشقوا أنهارها وغرسوا أشجارها وأقاموا فيها أياماً يسيرة ، غرّتهم بصحتهم فاغتروا بنشاطهم فركبوا المعاصي . إنهم كانوا والله في الدنيا مغبوطين بالمال على كثرة المنع عليه ، محسودين على جمعه .

ماذا صنع التراب بأبدانهم والرمل بأجسادهم والديدان بعظامهم وأوصالهم كانوا في الدنيا على أسرّة ممهدة ، وفرش منضودة بين خدّم يخدمون وأهل يكرمون ، وجيران يعضدون . فاذا مررتَ فنادهم إن كنتَ منادياً ، ومُرَّ بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم واسأل غنيهم ما بقي من غناه ، واسأل فقيرهم ما بقي من فقره ، واسألهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون ، وعن الأعين التي كانوا بها ينظرون واسألهم

عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة ما صنع بهـــا الديدان . محت الألوان وأطلت الدّجهان ، وعفّرت الوجوه ، ومحت المحاسن وكسرت الفقار وأبانت الأحشاء ، ومزقت الأشلاء وأين حُجّابهم ونوابهم . أين خدمهم وعبيدهم ، وجَمْعهم ومكنونهم والله ما فرشوا فراشاً ولا وضعوا هنالك متكئاً ولا غرسوا لهم شجرا ، ولا أنزلوهم من اللحد قرارا

أليسوا في منازل الخلوات والبلوات أليس الليلُ والنهار عليهم سواء . أليس هُم في مُدْلَهمّة ظلماء وقد حيل بينهم وبين العمل وفارقوا الأحبـــة . فكم من ناعم وناعمة . أصبحوا ووجوههم بالية ، وأجسادهم من أعناقهم نائية ، وأوصالهم متمزقة ، وقد سالت الحدقات على الوجنات ، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً ، ودبّت دوابُّ الأرض في أجسادهم ففرقت أعضاءهم ثم لم يلبثوا والله إلا يسيراً حتى عادت العظام رمما . قد فارقوا الحدائق وصاروا بعد السّعة إلى المضايق، وقد تزوجت نساؤهم وترددت في الطريق أبناؤهم وتوزعت الورثة ديارهم وتراثهم فمنهم والله الموسّع له في قبره الغضّ الناضر فيه المتنعم بلذته ، ياساكن القبر غداً ما الذي غرّك من الدنيـا ؟ هل تعلم أنك تبقى أو تبقى لك ؟ أين دارك الفيحاء ونهرك المطرد وأين ثمرتك الحاضر ينعها ؟ وأين رقاق ثيابك ؟ وأين طيبك وأين بخورك ؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك ؟ أما رأيته قد نزل به الأمر فما يدفع عن نفسه دخلاً وهو يرشح عرقاً ويتلظى عطشاً يتقلب في سكرات الموت وغمراته جاء الأمر من السماء وجاء غالب القدر والقضاء جاء من الامر الاجل ما يمتنع منه هيهات يا مُغْمِضَ الوالدِ والأخ والولد وغاسله ، يا مكفن الميت وحامله .. يا مخليه في القبر وراجعاً عنه .. ليت شعري كيف كنت على خشونة الثرى .. ليت شعري بأي خدّيك يبدأ البلى وأي عينيك سالت أولاً ياجاور الهلكات صرت في محل الموتى .. ! ليت شعري ما الذي يلقاني به مَلَكُ الموت عند خروجي من الدنيا وما يأتيني به من رسالة ربي . ثم انصرف فما بقي بعد ذلك إلا جمعة ثم مات رحمه الله[1]) .

يقول الامام الحـــارث بن أسد المحاسبي (.. الموت لا محالة نازل بك بكربه وغصصه ونزعه وسكراته . فتوهم نفسك وقد صُرعت للموت صرعة لا تقوم منها إلا

(1) الوصية الموجزة للمرحوم الشيخ سعيد البرهاني عليه رحمة الله .

إلى الحشر إلى ربك ، فتوهم نفسك في نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملك يجذب روحك فوجدت ألم جذبه ، ثم تدارك الجذب واستحث النزع وجذبت الروح من جميع بدنك حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه وعمت آلام الموت جميع جسمك ، وقلبك وجل محزون مرتقب منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أو الرضى ، وقد علمت أنه لا محيص لك دون أن تسمع إحدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك ، فبينا أنت في كربك وغمومك وألم الموت بسكراته ، إذ نظرت إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرت اليه ماداً يده إلى فيك ليخرج روحك من بدنك ، فذلت نفسك لما عاينت ذلك وعاينت وجه ملك الموت ، وتعلق قلبك بماذا يفجأك من البشرى منه إذا سمعت صوته بنغمته أبشر يا ولي الله برضا الله وثوابه أو أبشر يا عدو الله بغضبه وعقابه ، فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقر الأمر في قلبك فتطمئن إلى الله نفسك ، أو تستيقن بعطبك وهلاكك ويحل الإياس قلبك وينقطع من الله عز وجل رجاؤك وأملك ، فيلزم حينئذ غاية الهم والحزن أو الفرح والسرور قلبك حين انقضت من الدنيا مدتك ، وانقطع منها أثرك وحملت إلى دار من سلف من الأمم قبلك .

فتوهم نفسك حين استطار قلبك فرحاً وسروراً ، أو ملىء حزناً وعبرة ، وبفترة القبر وهول مطلعه وروعة الملكين وسؤالهما فيه عن إيمانك بربك ، فمثبت من الله جل ثناؤه بالقول الثابت أو متحير شاك مخذول . فتوهم أصواتهما حين يناديانك لتجلس لسؤالهما اياك ليوقفاك على مسائلتهما ؛ فتوهم جلستك في ضيق لحدك ، وقد سقطت أكفانك على حقويك . فتوهم ذلك ثم شخوصك ببصرك الى صورتهما وعظم أجسامهما ، فان رأيتهما بحسن الصورة أيقن قلبك بالفوز والنجاة ، وإن رأيتهما بقبح الصورة أيقن قلبك بالهلاك والعطب ، فتوهم أصواتهما وكلامهما بنغماتهما وسؤالهما ، ثم هو تثبيت الله إياك إن ثبتك أو تحييره إن خذلك .

فتوهم جوابك باليقين أو بالتحير أو بالشك ، وتوهم اقبالهما عليك إن ثبتك الله عز وجل بالسرور وضربهما بأرجلهما جوانب قبرك بانفراج القبر عن النـــــار . ثم توهم

وهي تتأجج بحريقها ، وإقبالها ،لمك ، وأنت تنظر الى ما صرف الله عنا فيزداد لذلك قلبك سروراً وفرحاً وتوقن بسلامتك من النـــار بضعفك . ثم توهم ضربها بأرجلها جوانب قبرك وانفراجه عن الجنـة بزينتها ونعيمها وقولها لك : يا عبد الله انظر إلى ما أعدَّ الله لك ، فهذا منزلك وهذا مصيرك . فتوهم سرور قلبك وفرحك بما عاينتَ من نعيم الجنان وبهجة ملكها وعلمك أنك صائر إلى ماعاينت من نعيمها وحسن بهجتها . وان تكن الأخرى فتوهم خلاف ذلك كله من الانتهار لك ومن معاينتك الجنة وقولها لك : انظر إلى ما حرمك الله عز وجل ، ومعاينتك النار وقولها لك : انظر إلى ما أعدّ الله لك ، فهذا منزلك ومصيرك . فأعظم بهذا خطراً ، وأعظم به عليك في الدنيا غمّاً وحزنا حتى تعلم أي الحالتين في القبر حالك ، ثم الفناء والبلاء بعد ذلك ، حتى تنقطع الأوصال فتفنى عظامك ويبلى بدنك ، ولا يبلى الحزن أو الفرح ، متطلع للقيام عند النشور إلى غضب الله عز وجل وعقابه ، أو الى رضا الله عز وجل وثوابه ، وأنت مع توقع ذلك معروض عليك منزلتك من الجنة أو مأواك من النار[1]) .

* * *

(١) كتاب التوهم ص ٢ ــ ٤ .

الباب الثالث

أشراط الساعة وعلاماتها

١ ــ علم الساعة

إن الساعة غيب من الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه .. والرسول ﷺ بشر لا يدعي علم الغيب ، مأمور أن يَكِلَ الغيب إلى صاحبه وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية ، وأنه بشر لا يدعي شيئاً خارج بشريته ولا يتعدّى حدودها ، إنما يعلمه ربُّه ويوحي إليه ما يشاء .. فهو سبحانه مختص بعلمها، وهو لا يكشف عنها إلا في حينها ، ولا يكشف غيره عنها . يقول الله سبحانه : (يسألونك عن الساعة أيّانَ مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفيٌّ عنها ! قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . إن الله ــ سبحانه ــ يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها ، إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها ، وإلى الشعور بهولها وضخامتها .. ألا وإن أمرها لعظيم ، ألا وإن عبئها لثقيل ، ألا وإنها لتثقل في السموات والأرضين ، وهي بعد ذلك لا تأتي إلا بغتة والغافلون عنها غافلون .

فأوْلى لهم أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتي بغتة ، فلا ينفع

معها الحذر ، ولا تجدي عندها الحيطة ، ما لم يأخذوا حذرهم قبلها ، وما لم يستعدوا لها ، وفي الوقت متسع وفي العمر بقية ، وما يدري أحد متى تجيء ، فأولى أن يبادر اللحظة ويسارع ، وألا يضيع بعدُ ساعة فقد تفجؤه بعدها الساعة ! والساعة هي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه ، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق .. والله سبحانه يؤكد مجيئها .. (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) وأنه يكاد يخفيها . فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم . والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي . فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه . ولو كان كل شيء مكشوفاً لهم — وهم بهذه الفطرة — لوقف نشاطهم وأسِنَتْ حياتهم . فوراء المجهول يجرون فيحذرون ويأملون ، ويجربون ويتعلمون . ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم . وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد . يحفظهم من الشرود ، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم . ذلك لمن صحّت فطرته واستقام ، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى (فلا يصدنّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) .

ذلك أن اتباع الهوى هو الذي ينشيء التكذيب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الانسانية كمالها ، ولا يتم فيها العدل تمامه ، وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للانسان ، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال . والله — سبحانه — قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه ، ليبقى الناس على على حذر دائم ، وتوقع دائم ، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها . وهم لا يعلمون متى تأتي .. يقول سبحانه (إن الله عنده علم الساعة) .. فقد تأتيهم بغتة في أي لحظة ، ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد ، وكنز الرصيد .

لقد كان الناس ما يفتأون يسألون النبي ﷺ عن الساعة التي حدّثهم عنها طويلاً ،

وخوفهم بها طويلاً ، ووصف القرآن مشاهدها حتى لكأن قارئه يراهـــا . يسألونه عن موعدها .

(يسألك الناس عن الساعة . قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) .. ويستعجلون هـــذا الموعد ، ويحمل هذا الاستعجال معنى الشك فيها ، أو التكذيب بها ، أو السخرية منها ، بحسب النفوس السائلة ، وقربها من الإيمان أو بُعدها . والساعة غيب قد اختص به الله سبحانه ، ولم يشأ أن يطلع عليه أحداً من خلقه جميعاً ، بما فيهم الرسل والملائكة المقربون . وفي حديث حقيقة الإيمان والاسلام: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما — قال حدثني أبي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل ، شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منــا أحد حتى جلس الى النبي ﷺ فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخـذيه . وقال يا محمد : أخبرني عن الاسلام . قال : (الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضـــان وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا) قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الايمان . قال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقـــدر خيره وشره) قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الاحسان . قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) قال : فأخبرني عن الساعة . قال : (ما المسؤول عنها أعلم من السائل) قال : فأخبرني عن علاماتها قال : (أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيـان) . قال ثم انطلق ، فلبث ملياً ثم قال لي يا عمر : أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم[1]) .

فالمسؤول رسول الله ﷺ — والسائل — جبريل عليه السلام — كلاهما لا يعلم علم الساعة ، قـل إنما علمها عند الله ، على وجه الاختصاص والتفرد من دون عبـاد الله .

قدّر الله هـذا لحكمة يعلمها ، فلمح طرفاً منها ، وفي ترك الناس على حذر من

(١) البخاري ومسلم .

أمرها ، وفي توقع دائم لها ، وفي استعداد مستمر لفجأتها ذلك لمن أراد الله له الخير ، وأودع قلبه التقوى . فأما الذين يغفلون عن الساعة ، ولا يعيشون في كل لحظة على أهبة للقائها فأولئك الذين يختانون أنفسهم ، ولا يقونها من النار .. وجعل الساعة غيباً مجهولاً متوقعاً في أي لحظة من لحظات الليل والنهار « وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » .. « وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق . ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » .

إن الساعة هي موعد الحكم العدل والقول الفصل . والساعة غيب ، فمن ذا يدري إن كانت على وشك . والناس عنها غافلون وهي منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل الذي لا يهمل فيه شيء ولا يضيع .. والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها ، فلا عجب يستعجلون بها مستهترين . لأنهم محجوبون لا يدركون . وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها ، ومن ثم هم يشفقون ويخافون ، وينتظرونها بوجل وخشية وهم يعرفون ما هي حين تكون . وأنها لحق . أنهم ليعلمون أنها الحق . إن وعد الله حق .. إنه آتٍ لا ريب فيه . إنه واقع لا يتخلف .. « يا أيها الناس انّ وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . إنه حق والحق لا بد أن يقع والحق لا يضيع ولا يبطل ولا يتبدد ولا يحيد . ولكن الحياة الدنيا تغر وتخدع . ولكن الشيطان يغر ويخدع فلا تمكّنوه من أنفسكم ، وميعاد الله آتٍ لا ريب فيه . « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » .

وكل ميعاد يجيء في أجله الذي قدّره الله له . لا يستأخر لرغبة أحد، ولا يستقدم لرجاء أحد . وليس شيء من هذا عبثاً ولا مصادفة . فكل شيء مخلوق بقدر . وكل أمر متصل بالآخر ، وقدر الله يرتب الأحداث والمواعيد والآجال وفق حكمته المستورة التي لا يدركها أحد من عباده إلا بقدر ما يكشف الله له . والساعة غيب غائر

في ضمير المجهول « إليه يُردُّ علم الساعة » « قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذيرمبين » . ومن ثم لم يطلع الله أحداً من خلقه على موعد يوم القيامة ، لأنه لا مصلحة لهم فيمعرفته ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له في التكاليف التي يطالب النـاس بها استعداداً لملاقاته بل المصلحة والحكمة في إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك الموعد دون الخلق جميعاً فالعلم لله وهنـــا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والخاليق وتتجرد ذات الله ووحدانيته بلا شبيه ولا شريك ، ويتمحص العلم له سبحانه. ويقف الخلق بما فيهم الرسل والملائكة في مقامهم متأدبين عند مقام الألوهية العظيم .. « قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » . ووظيفتي الانذار ومهمتي البيان . أماالعلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

إن الله يوجه الرسول ﷺ إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ، وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه توكيد (زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير . « إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العظيم » . « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم » . انه ليس بعد قسم الرسول بربه توكيد ثم لتنبؤن بمـا عملتم . فليس شيء منه بمتروك . والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئنهم به يوم القيامـة . فالله يعلم ما في السموات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شيء قدير . وقد وعد الله الناس أنه مجازيهم بالاحسان احساناً ومجازيهم بالسوء سوءاً « إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع » . فالحساب لا بد هناك وأنه اذا أمهلهم الحساب في الأرض ، فليس بمهمل حسابهم في الاخرة .

لقد كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الساعة . متى موعدها « يسألونك عن الساعة أيّان مرسيها . فيمَ أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » . متى موعدها ، ولكن انها لأعظم من أن تسأل أو نسأل عن موعدها . فأمرها الى ربك وهي من خاصة شانه ، فهو الذي ينتهي

اليه أمرها . وهو الذي يعلم موعـــدها ، وهو الذي يتولى كل شيء فيها ، ووظيفتك وحدودك ، أن تنذر بها من ينفعه الانذار ، وهو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ويعمل لها ، ويتوقعها في موعدها الموكول الى صاحبها سبحانه وتعالى .

ثم يصور هولها وضخامتها في صنيعها بالمشاعر والتصورات ، وقياس الحيـاة الدنيا اليها في احساس الناس وتقديرهم : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » فهي من ضخامة الوقع في النفس بحيث تتضاءل الى جوارها الحياة الدنيا ، وأعمارها ، وأحداثها ، ومتاعها ، وأشياؤها ، فتبدو في حس أصحابها كأنها بعض يوم . عشية أو ضحاها ، وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون والتي يؤثرونها ويدعون في سبيلهـــا نصيبهم في الاخرة ، والتي يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من المعصية والطغيان ، والتي يجرفهم الهوى فيعيشون له فيها . تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم ، فاذا هي عندهم عشية أو ضحاها . هـذه هي : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة زهيدة تافهة . أفمن عشية أو ضحاها يُضحون بالاخرة ، ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى ، ألا انها الحماقة الكبرى . الحماقة التي يرتكبها انسان . يسمع ويرى .

٢ — أشراط الساعة وعلاماتها

يقول الله سبحانه : « أزفت الآزفـة ليس لها من دون الله كاشفة » . أزفت الازفة واقتربت كاسحة جارفة . وهي الطامة والقارعة . وهذه هي الساعة قد اقتربت وها هي ذي أشراطها قد أوضحها رسول الله ﷺ ، كما أوضحها القرآن الكريم ، حتى يستشعر بها القلب . يستشعر برهبة هذه الأحداث الجسام . وعلامات الساعة على قسمين علامات صغرى ، وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة ، وتكون في أصلها معتادة الوقوع ، وعلامات كبرى ، وهي التي تُقارب قيام الساعـــة مقاربة وشيكة سريعة . وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع .

٣ ــ في المسيح والمهدي عليهما السلام

يقول الله سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » . ان قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، قضية يخبط فيها اليهود ــ كما يخبط فيها النصارى بالظنون ــ فاليهود يقولون : انهم قتلوه ويسخرون من قوله انه رسول الله ، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية .

والنصارى يقولون : انه صُلب ودفن ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام . والتاريخ يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له في حساب ، وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين ، فلقد تتابعت الأحداث سراعاً ، وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين . الا ما يقصه رب العالمين . والأناجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته . كلها كُتبت بعد فترة من عهد المسيح ، وكانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد . وقد كُتبت معها أناجيل كثيرة . ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد ، واعتبرت رسمية ، واعترف بها ، لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات.

ومن بين الأناجيل التي كُتبت في فترة كتابة الأناجيل الكثيرة ، انجيل برنابا ، وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمدة ، في قصة القتل والصلب ، فيقول : « ولما دنت الجنود مع يهوذا ، في المحل الذي كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جمّ غفير . فلذلك انسحب الى البيت خائفاً . وكان الأحد عشر نياماً . فلما رأى الخطر على عبده ، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل ، سفراءه . أن يأخذوا يسوع من العالم . فجاء الملائكة الأطهار ، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ، ووضعوه

في السماء الثالثة ، في صحبة الملائكة التي تسبح الى الأبد . ودخـــل يهوذا بعنف الى الغرفة التي أصعد منها يسوع . وكان التلاميذ كلهم نياماً . فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع ، حتى اعتقدنا أنه يسوع . أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت يا سيدي معلمنا . أنسيتنا الان ، الخ[1] » . وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة — التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر — ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية على رواية . « وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ،ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . أما القرآن فيقرر قراره الفصل : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم » ، « بل رفعه الله اليه » ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة ، أم كان بعد الحياة ، ومتى كانت هـذه الوفاة وأين ، وهم ما قتلوه وما صلبوه وانما وقع القتل والصلب على من شُبه لهم سواه .

لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة ، الا ما ورد في سورة أخرى من قوله تعالى « يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي » . وهذه كتلك لا تعطي تفصيلاً عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفي وموعده . وقد اختلف السلف في مدلول قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ، باختلافهم في عائد الضمير في موته ، فقال جماعة : وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته — أي عيسى — وذلك على القول نزوله قبيل الساعة . وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد الا يؤمن بعيسى قبل موته . أي موت الكتابي . وذلك على القول بأن الميت — وهو في سكرات الموت — يبين له الحقيقة حيث لا ينفعه أن يعلم ، وقـــد بين رسول الله ﷺ بياناً واضحاً عن نزول عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامـة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده

---

(١) نقلا عن كتاب « محاضرات في النصرانية » للاستاذ الشيخ محمود أبو زهرة .

ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً[1] ، فيكسر الصليب[2] ، ويقتل الخنزير[3] ، ويضع الجزية[4] ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد[5]) زاد في رواية : (وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها[6]) . ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا ان شئتم : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته[7] » .

وفي أخرى قال : قال رسول الله ﷺ : والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص[8] فلا

---

(١) اي حاكما عادلا . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، ٦ : ٣٥٦ « والمعنى أنه عليه السلام ينزل حاكما بهذه الشريعة ، فان هذه الشريعة باقية لا تنسخ ، بل يكون عيسى عليه السلام حاكما من حكام هذه الامة .

(٢) قال الحافظ ابن حجر : أي يبطل دين النصرانية ، بأن يكسر الصليب حقيقة ، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ٤ : ٣٤٣ اي يأمر باعدام الخنزير ، مبالغة في تحريم اكله ، وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يدعون أنهم على طريقة عيسى عليه السلام ، ثم يستحلون أكل الخنزير ، ويبالغون في محبته » .

(٤) اي عن أهل الكتاب ، ويحملهم على الاسلام ، ولا يقبل منهم غير الاسلام أو القتل ، فيصير الدين واحدا ، فلا يبقى أحد من أهل الذمة ليؤدي الجزية . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦ : ٣٥٦ « ويؤيده أن عند الامام احمد من وجه آخر عند ابي هريرة « وتكون الدعوى — اي الملة — واحدة » .

(٥) اي يكثر المال جدا . وسبب كثرته : نزول البركات ، وتوالي الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم ، وحينئذ تخرج الارض كنوزها ، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلم الناس بقرب الساعة .

(٦) وذلك انهم حينئذ لا يتقربون الى الله الا بالعبادة ، لا بالتصدق بالمال لعدم الانتفاع به اذ لا احد يقبله . قال العلامة فضل الله التوربشتي رحمه الله تعالى : لم تزل السجدة الواحدة في الحقيقة كذلك ، أي خيرا من الدنيا وما فيها ، وانما أراد بذلك أن الناس يرغبون في أمر الله ، ويزهدون في الدنيا ، حتى تكون السجدة الواحدة أحب اليهم من الدنيا وما فيها .

(٧) قال الحافظ ابن حجر : « قال ابن الجوزي : انما تلا أبو هريرة هذه الآية للاشارة الى مناسبتها لقوله صلى الله عليه وسلم : وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها »، فانه يشير بذلك الى صلاح الناس ، وشدة ايمانهم واقبالهم على الخير ، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا . والسجدة تطلق ويراد بها الركعة » .

(٨) القلاص : جمع قلوص : وهي الناقة .

يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء[1] والتباغض والتحاسد ، وليُدعون الى المـــال فلا يقبله أحد[2]) .

وفي رواية أبي داود أن رسول الله ﷺ قال : «ليس بيني وبينه -يعني عيسى- نبي ، وانه نازل ، فاذا رأيتموه فاعرفوه ، فانه رجل مربوع[3] ، الى الحمرة والبياض ، ينزل بين مُمَصَّرتين[4] كأنَّ رأسه يقطر وإن لم يُصبه بلل ، فيقاتل الناس على الاسلام ، فيدقُ الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويُهلك الله في زمانه الملَل كلها إلا الاسلام ، ويُهلكَ المسيح الدجال ، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يُتوفّى ، ويُصلي عليه المسلمون » .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ، فيقول أميرهم : تعال صَلِّ لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة[5]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كيف أنتم إذا نزلَ ابنُ مريم فيكم وإمامكم منكم[6]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده :

---

(١) الشحناء : العداوة . انما تزول هذه الامراض من القلوب والنفوس لزوال حبّ الدنيا الذي هو سبب العداوات .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أي هو معتدل القامة وهو الى الطول اقرب . ولونه اقرب الى الحمرة والبياض .

(٤) ممصرتين : ثوب ممصّر اذا كان فيه صفرة خفيفة يسيرة . وفي رواية احمد « .. فاذا رأيتموه فاعرفوه : رجلا مربوعا ، الى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصّران .. » .

(٥) اخرجه مسلم .

(٦) أخرجه البخاري ومسلم ، قال الحافظ بن حجر في فتح الباري ٦ : ٣٥٨ : وعند احمد من حديث جابر في قصة الدجال ونزول عيسى : « واذا هم بعيسى ، فيقال : تقدم يا روح الله ، فيقول: ليتقدم امامكم فليصل بكم » .

ليُهِلّنَّ (١) ابن مريم بفجّ الروحاء (٢) حاجاً أو معتمراً ، أو ليَثْنِيَنَّهما (٣)) .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني — أو من أهل بيتي — يواطيء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسمُ أبي ، يملأ الأرضَ قسطاً وعدلاً ، كما مُلئت ظلماً وجوراً (٤)) .

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (لو لم يَبْقَ من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً ، كما ملئت جورا (٥)) .

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : (المهديُّ من عِترتي من ولد فاطمة (٦)) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : (المهديُّ مني ، أجلى الجبهة (٧) ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، ويملك سبع سنين (٨)) .

٤ ـ في الدّجّال

عن عامر بن شُراحيل الشعبي رحمه الله : (أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس — وهي من المهاجرات الأُوَل — فقال : حدثيني حديثاً سمعتيه من رسول الله ﷺ ، لا تُسنديه إلى أحد غيره ، فقالت : لئن شئتَ لأفعلنّ ، فقال :

---

(١) معنى (ليهلن) ليرفعن صوته بالتلبية قائلا : لبيك اللهم لبيك ، محرما بحج أو بعمرة . ومعنى او (ليثنيهما) او ليجمعن بين الحج والعمرة .

(٢) مكان في طريق النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة الى بدر . قيل يبعد عن المدينة ستة أميال .

(٣) اخرجه مسلم .

(٤) رواه ابو داود والترمذي ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) (٦) اخرجه ابو داود واسناده حسن .

(٧) أجلى الجبهة : يقال رجل أجلى : اذا ذهب شعر رأسه الى نصفه .

(٨) اخرجه ابو داود واسناده حسن .

أجل حدثيني ، فقالت : نكحتُ ابن المغيرة وهو من خيار قريش يومئذ ، فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله ﷺ ، فلا تأيّمتُ [1] خطبني عبد الرحمن بن عوف في نفر من أصحاب محمد ﷺ ، وخطبني رسول الله ﷺ على مولاه أسامة بن زيد ، وكنتُ قد حُدّثتُ أن رسول الله ﷺ قال : من أحبّني فليُحبّ أسامة ، فلما كلمني رسول الله ﷺ : قلتُ : أمري بيدك فأنكحني مَنْ شئتَ ، فقال : انتقلي إلى أم شريك — وأم شريك امرأة غنية من الأنصار ، عظيمة النفقة في سبيل الله ، ينزل عليها الضّيفان — فقلتُ : سأفعلُ ، قال : لا تفعلي ، إن أمّ شريك كثيرة الضّيفان . فإني أكره أن يسقط عنكِ خمارك ، أو ينكشف الثوب عن ساقيك ، فيرى القومُ منكِ بعضَ ما تكرهين ، ولكن انتقلي الى ابن عمّك عبد الله بن عمرو بن أمّ كلثوم ، وهو رجل من بني فِهْر — فهر قريش — وهو من البطن الذي هي منه ، فانتقلتُ اليه ، فلما انقضت عدّتي سمعتُ نداء المنـــادي — منادي رسول الله ﷺ — الصلاة جامعة ، فخرجتُ إلى المسجد ، فصليتُ مع رسول الله ﷺ ، فكنتُ في النساء التي تلي ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته ، جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : ليلزم كل انسان مُصلاّه ، ثم قال : أتدرون لِمَ جمعتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إني والله ما جمعتكم لرغبة ، ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداريّ كان رجلاً نصرانياً ، فجاء فبايع وأسلم ، وحدثني حديثاً وافق الذي كنتُ أحدثكم عن المسيح الدجال [2] ، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لَخْم وجُذام ، فلعب بهم الموج شهراً في البحر ، ثم أرفؤوا [3] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس ، فجلسوا في أقرُب [4] السفينة ، فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابة

---

(١) تأيّمت المرأة : مات زوجها او فارقها .

(٢) الدجال : الكذاب .

(٣) ارفأت السفينة : قربها الى الشط وأدنيتها من البر . وذلك الموضع مرفأ .

(٤) اقرب القارب : سفينة صغيرة تكون الى جانب السفن البحرية يستعجلون بها حوائجهم من البر .

أهلب[1] ، كثير الشعر ، لا يدرون ما قُبُله من دُبُره . فقالوا : ويلك ، ما أنتِ ؟ قالت : أنا الجسّاسة [2] قالوا : وما الجسّاسة ؟ قالت : أيها القوم ، انطلقوا إلى هذا الرجل الذي في الدّير ، فإنه إلى خبركم بالاشواق ، قال : لمّا سمّت رجلاً ، فَرِقْنا منها أن تكون شيطانة ، قال : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم انسان رأيناه قطّ خَلْقا ، وأشدّه وثاقا ، مجموعة يداه إلى عنقه ، ما بين ركبتيه الى كعبيه بالحديد قلنا : ويلك ما أنت ؟ قال : قد قدرتم على خبري ، فأخبروني ما أنتم ؟ قالوا : نحن أناس من العرب ، ركبنا في سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتلم[3] ، فلعب بنا الموج شهراً ، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه ، فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة ، فلقيتنا دابة أهلب ، كثير الشعر ، لا ندري ما قُبُله من دُبُره من كثرة الشعر ، فقلنا : ويلك ما أنتِ ؟ فقالت : أنا الجسّاسة ، قلنا : وما الجسّاسة ، قالت : اعمدوا الى هذا الرجل الذي في الدير ، فإنه إلى خبركم بالاشواق ، فأقبلنا اليه سراعاً ، وفزعنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة . فقال : أخبروني عن نخل بَيْسان ، قلنا عن أي شيء تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها هل يثمر ؟ قلنا له : نعم ، قال : أما إنه يوشك أن لا تثمر ، قال : أخبروني عن بحيرة الطبرية ، قلنا : عن أي شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هي كثيرة الماء ، قال : أما إنّ ماءها يوشك أن يذهب ، قال : أخبروني عن عين زُغَر ، قالوا عن أي شيء تستخبر ؟ قال : هل في العين ماء ، وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له نعم ، هي كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها ، قال : أخبروني عن نبيّ الأميين ، ما فعل ؟ قالوا : [قد] خرج من مكة ونزل يثرب ، قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب ، وأطاعوه ، قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم ، قال : أما إنّ

---

(1) أهلب : ما غلظ من الشعر ، والاهلب : الغليظ الخشن .

(2) الجسّاسة : فَعّالة من التجسس ، وهو الفحص عن بواطن الامور ، واكثر ما يقال ذلك في الشر .

(3) اغتلام البحر : اضطراب امواجه واهتياجه .

ذاك خيرٌ لهم أن يطيعوه ، وإني مخبركم عني ، أنا المسيح ، وإني أوشك أن يُؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض ، فلا أدعُ قرية إلا هبطتُها في أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة ، فهما مُحرَّمتان عليَّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل من واحدة ، أو واحداً منهما ، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً [1] يصدّني عنها ، وإنّ على كل نـَقْب [2] منها ملائكة يحرسونها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : وطعَن بمخْصرته في المنبر : هذه طيبة ، هذه طيبة – يعني : المدينة – ألا هل كنتُ حدثتكم عن ذلك ؟ فقال الناس : نعم ، قال : فإنه أعجبني حديث تميم : أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا انه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لا بل من قِبَل المشرق ، ما هو ؟ من قبل المشرق ما هو ؟ وأومأ بيده إلى المشرق – قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ [4] » .

وفي رواية قالت : « قَدِمَ على رسول الله ﷺ تميم الداريّ ، فأخبر رسول الله ﷺ : أنه ركب البحر ، فتاهت به سفينته ، فسقط الى جزيرة ، فخرج اليها يلتمس الماء ، فلقي انساناً يجرُّ شعره .. واقتصَّ الحديث ، وفيه : ثم قال : أما إنه لو قد أُذن لي في الخروج قد وطئتُ البـلاد كلها غير طيبة ، فأخرجه رسول الله ﷺ إلى الناس فحدثهم ، وقال : هذه طيبة وذاك الدجال » .

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال [5]

---

(١) صلتا : المسلول من غمده ، المهيأ للضرب به .

(٢) النقب : الطريق في الجبل .

(٣) المخصرة : عصا ، أو قضيب ، أو سوط كانت تكون بين الخطيب اذا تكلم .

(٤) اخرجه مسلم .

(٥) وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم اوصاف هذا الدجال واحواله وافعاله ونهايته اوفى بيان . وذكر الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١٣ : ٨٦ و ٨٩ – ٩٠ مما رواه – خاصةً – الصحابيّ الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انه يهودي ، وانه لا يولد له ولد ، وانه لا يدخل المدينة ولا مكة » رواه مسلم في صحيحه ، ١٨ : ٥٠ ، « وان عينه اليمنى عوراء ، جاحظة ، لا تخفى ، كأنها نخاعة – أي نُخامة – في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري – يعني شدة اتقادها – معه من كل لسان، ومعه صورة

• • • • •   • • • • •   • • • • •   • • • • •

الجنة خضراء يجري فيها الماء ، وصورة النار سوداء » رواه أحمد في « مسنده » ٣ : ٧٩ ، « وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى ، كلما خرجا من قرية دخل أوائله » رواه أبو يعلى والبزار . وذكر الحافظ ابن حجر موطن خروجه فقال في « فتح الباري » أيضا ١٣ : ٧٩ « وسيكون خروجه من قبل المشرق جزما ، ثم جاء في رواية أنه يخرج من خراسان ، اخرج ذلك احمد والحاكم من حديث ابي بكر ، وفي رواية أخرى : أنه يخرج من اصبهان ، اخرجها مسلم . ويخرج أولا فيدَّعي الايمان والصلاح ، ثم يدعي النبوة ، ثم يدعي الالهية ! » ثم قال الحافظ رحمه الله تعالى في « فتح الباري » ١٣ : ٩١ و ٩٣ « قال الخطّابي : فان قيل : كيف يجوز أن يُجري الله الآية على يد الكافر ؟ فان احياء الموتى آية عظيمة من آيات الانبياء ، فكيف ينالها الدجال وهو كذاب مفتر يدعي الربوبية ؟ .

فالجواب : أنه على سبيل الفتنة للعباد ، اذ كان عندهم ما يدل على انه مبطل غير محق في دعواه ، وهو أنه اعور ، مكتوب على جبهته : كافر ، يقرأه كل مسلم . فدعواه داحضة مع وسم الكفر ، ونقص الذات والقدر ، أذ لو كان الها لازال ذلك عن وجهه . وآيات الانبياء سالمة من المعارضة فلا يشتبهان » . ثم قال الحافظ ابن حجر بعد كلام الخطابي هذا : « وفي الدجال دلالة بينة — لمن عَقَلَ — على كذبه ، لانه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصَّنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآفة به من عَوَر عينيه — اي عيبهما — فاذا دعا الناس الى انه ربهم ، فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول ان يعلم أنه لم يكن ليُسَوِّي خلق غيره ويعدله ويحسنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأول ما يجب ان يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والارض ، صور نفسك وعدلها ، وازل عنها العاهة ! فان زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئا فازل ما هو مكتوب بين عينيك » . ثم قال الحافظ رحمه الله تعالى : « وقال القاضي عياض : في هذه الاحاديث حجة لاهل السنة في صحة وجود الدجال وأنه شخص معين ، يبتلي الله به العباد ، ويقدره على أشياء كاحياء الميت الذي يقتله ، وظهور الخصب ، والانهار ، والجنة والنار ، واتباع كنوز الارض له فتتبت ، وكلها ذلك بمشيئة الله تعالى ، ثم يعجزه الله فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ثم يبطل أمره ، ويقتله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

وقال الشيخ ابو بكر بن العربي : الذي يظهر على يد الدجال من الآيات : من انزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجدب على من يكذبه ، واتباع كنوز الارض له ، وما معه من جنة ونار ، ومياه تجري ، كل ذلك محنة من الله واختبار ، ليَهلِك المرتاب ، وينجو المتيقن ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : لا فتنة أعظم من فتنة الدجال . وكان صلى الله عليه وسلم يستعيذ منها في صلاته تشريعا لامته صلى الله عليه وسلم » انتهى .

ذاة غداة فخفّض فيه ورفّع[1] حتى ظنناه في طائفة النخل[2] ، فلما رُحنا اليه عرف ذلك فينا ، فقال : ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله : ذكرتَ الدجال الغداة ، فخفّضتَ فيه ، ورفّعتَ ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه[3] دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط[4] ، عينه طافئة[5] ، كأني أشبهه بـ « عبد العزى بن قطن[6] » . فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح « سورة الكهف[7] » ، إنه خارج خَلَّة[8] بين الشام والعراق ، فعاث[9] يميناً ،

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم « ١٨ : ٦٣ » في معناه قولان :

اولا : ان معنى (خفّض فيه) : حقّره ، ومعنى (رفع) فيه : عظمه وفخمه ، فمن تحقيره قوله صلى الله عليه وسلم : انه أعور العين ، وانه أهون على الله من ذلك ، وانه لا يقدر على قتل احد الا ذلك الرجل ثم يعجز عنه ، وانه يضمحل أمره ويقتل بعد ذلك . ومن تفخيمه وتعظيم فتنته قوله صلى الله عليه وسلم : ليس بين يدي الساعة خلق اعظم من الدجال ، وما من نبي الا وقد أنذر أمته الاعور الكذاب ، وتلك الامور الخارقة للعادة التي تقع له .

القول الثاني في معنى (خفّض فيه ورفّع) : أنه خفض من صوته لكثرة ما تكلم في شأن الدجال ، فخفض بعد طول الكلام والتعب ليستريح ، ثم رفع ليبلغ صوته كل أحد « انتهى (خفض ورفع) ضبطهما النووي بتشديد الفاء فيهما ، وضبطهما القرطبي بتخفيف الفاء فيهما كما في شرح العلامة الأبي على صحيح مسلم » ٧ : ٢٦٧ ، ففيهما روايتان .

(٢) أي في ناحية بساتين النخيل بقرب المدينة كأنه حضر الآن .

(٣) الحجيج : المحاجج ، وهو المجادل والمخاصم الذي يطلب الحجة ، والمعنى : ان خرج وانا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، أي محاجّه ومدافعه ومبطل أمره . وان خرج ولست فيكم فكل مؤمن حجيج نفسه : يدفع عن نفسه ، فقد استخلفت الله عليكم ، فهو لكم نعم العون على دحره وقهره .

(٤) القطط : الشعر الجعد ، اي شديد . جعودة الشعر .

(٥) أي ذهب نورها ، وهي العين اليمنى الممسوحة ، ويروى طافية ، بالياء أي مرتفعة ناتئة ، فتكون العين اليسرى كما حققه النووي في شرح « صحيح مسلم » ٢ : ٢٣٥ .

(٦) هو رجل من خزاعة ، هلك في الجاهلية .

(٧) وروى الامام احمد ومسلم وابو داود والنسائي عن أبي الدرداء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من الدجال .

(٨) انه خارج خَلّة : اي انه يخرج قصدا وطريقا بين الجهتين ، والتخلل : الدخول في الشيء .

(٩) العيث : أشد الفساد ، أي افسد عن يمينه وافسد عن شماله مسرعا في افساده أيما اسراع .

وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا (١) ، قلنا : يا رسول الله: وما لبثه في الأرض ؟ (٢) قال : أربعون يوماً : يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم (٣) ، قلنا : يا رسول الله ، فذاك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟

---

(١) قال القرطبي : امر صلى الله عليه وسلم من لقي الدجال أن يثبت على الاسلام ، فان لبث الدجال في الارض قليل ، وأما من لم يلقه فليفرعنه لحديث ابي داود : « من سمع بالدجال فلينأ عنه ، فوالله ان الرجل ليأتيه وهو يحسب انه مؤمن ، فيتبعه مما يبعث به — يثيره من الشبهات» .

(٢) اي ما قدر مكثه وبقائه ؟

(٣) قال الامام النووي في « شرح صحيح مسلم ج ١٨ : ٦٥ « .قال العلماء : هذا الحديث على ظاهره ، وهذه الايام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور في الحديث ، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « وسائر أيامه كأيامكم » وقوله لهم حين سألوه : فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لا ، اقدروا له قدره » انتهى . وقال العلامة ابن ملك : « وهذا القول في تفسير امتداد الايام الثلاثة جار على حقيقته ، ولا امتناع فيه ، لان الله قادر على أن يزيد كل جزء من اجزاء اليوم الاول حتى يصير مقدار سنة ، خارقا للعادة ، كما يزيد في اجزاء الساعة من ساعات اليوم » .

قال العلامة علي القاري في « المرقاة شرح المشكاة » ٥ : ١٩٥ بعد نقله كلام ابن ملك المذكور : « وهذا القول الذي قرره لا يفيد الا بسط الزمان كما وقع له صلى الله عليه وسلم في قصة الاسراء مع زيادة على المكان . لكن لا يخفى أن سبب وجوب كل صلاة انما هو وقتها المقدر من طلوع صبح ، وزوال شمس ، وغروبها ، وغيبوبة شفقها ، وهذا لا يتصور الا بتحقق تعدد الايام والليالي على وجه الحقيقة ، وهو مفقود .

فنقول — وبالله التوفيق ومنه المعونة في التحقيق — قد تبين لنا باخبار الصادق المصدوق صلوات الله تعالى وسلامه عليه أن الدجال يبعث معه من المشتبهات ويفيض على يديه من التمويهات: ما يسلب عن ذوي العقول عقولهم ، ويخطف من ذوي الابصار أبصارهم ، فمن ذلك تسخير الشياطين له ، ومجيئه بجنة ونار ، واحياء الميت على ما يدعيه ، وتقويته على من يريد اضلاله تارة بالمطر والعشب وتارة بالازمة والجدب . ثم لاخفاء انه اسحر الناس ، فلم يستقم لنا تأويل هذا القول الا ان نقول : انه يأخذ بأسماع الناس وأبصارهم حتى يخيل اليهم أن الزمان قد استمر على حالة واحدة : اسفار بلا ظلام ، وصباح بلا مساء ، يحسبون أن الليل لا يمد عليهم رواقه ، وأن الشمس لا تطوي عنهم ضياءها ، فيبقون في حيرة والتباس من امتداد الزمان ، ويدخل عليهم دواخل باختفاء الآيات الظاهرة في اختلاف الليل والنهار ، فأمرهم صلى الله عليه وسلم ان يجتهدوا عند مصادمة تلك الاحوال ، ويقدروا لكل صلاة قدرها ، الى أن يكشف الله عنهم تلك الغمة . هذا الذي اهتدينا اليه من التأويل ، والله الموفق لاصابة الحق وهو حسبنا ونعم الوكيل » . انتهى .

قال : لا ، اقدروا له قدره[١] ، قلنا : يا رسول الله ، وما اسراعه في الأرض[٢] ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح[٣] ، فيأتي على القوم ، فيدعوهم[٤] فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتُمْطر ، والارض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم[٥] أطول ما كانت عليه درّاً[٦] ، وأسبغه ضروعـاً[٧] ، وأمدّه خواصر[٨] ، ثم يأتي القوم فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين[٩] ، ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمرُّ بالخربة[١٠] ، فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه

---

(١) قال العلامة علي القاري في « المرقاة » ٥ : ١٩٦ : « اي قدروا لوقت صلاة يوم في يوم ـ كسنة مثلا ـ قدره الذي كان له في سائر الايام ، كمحبوس اشتبه عليه الوقت » . وقال الامام النووي في « شرح صحيح مسلم » ١٨ : ٦٦ : معناه انه اذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر ، ثم اذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا العصر ، واذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب ، وكذا العشاء والصبح، ثم الظهر، ثم العصر، ثم المغرب، وهكذا حتى ينقضي ذلك اليوم ، وقد وقع فيه صلوات سنة ، كلها فرائض مؤداة في وقتها . ثم قال النووي : قال القاضي عياض وغيره : هذا حكم مخصوص بذلك اليوم ، شرعه لنا صاحب الشرع . قالوا : ولولا هذا الحديث ووكلنا الى اجتهادنا لاقتصرنا فيه على الصلوات الخمس عند الاوقات المعروفة في غيره من الايام . وأما اليوم الثاني الذي كشهر ، والثالث الذي كجمعة فيقدر لهما ايضا كاليوم الاول على ما ذكرناه ، والله أعلم » .

(٢) اي ما مقدار سرعته في مسيره على الارض وطي مسافاتها .

(٣) وفي رواية « الدر المنثور » للسيوطي ٤ : ٣٣٧ « كالغيث يشتد به الريح » . والمراد بالغيث هنا : الغيم ، اي يسرع في الارض اسراع الغيم تسوقه الريح بقوة وعنف .

(٤) اي الى باطله ودعوى الوهيته .

(٥) السارحة : الماشية ، اي ترجع عليهم آخر النهار ماشيتهم التي تذهب بالغدوة أول النهار الى مراعيها .

(٦) الدر : اللبن .

(٧) الضروع : جمع ضرع وهو الثدي ، واسباغ الضروع : اتساعها بكثرة ما فيها من اللبن .

(٨) الخواصر : جمع خاصرة وهي ما تحت الجنب ، ومدها كناية عن زيادة امتلائها بكثرة ما رعته وأكلته من المراعي الخصبة .

(٩) الممحل : الذي قد اجدبت ارضه وقحطت وغلت اسعاره ، اي يصبحون وقد أصابهم المحل ، وهو انقطاع المطر ويبس الارض من الكلأ والعشب .

(١٠) أي بالارض الخربة والبقاع الخربة .

كنوزها كيعاسيب النحل[1] ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً ، فيضربه بالسيف ، فيقطعه جزْلتين[2] ، رميــة الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ، ويتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك ، إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام ، فينزل عند المنــارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مَهْرُودَتين[3] ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ[4] ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات[5] ، ونَفَسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب

---

(١) اليعاسيب : ذكور النحل ، ومفردها يعسوب ، وهو أمير النحل متى طار تبعته جماعته ، والمراد تتبع كنوز تلك الارض الدجال كما تتبع جماعات النحل يعاسيبها طاعة ومتابعة .

(٢) جزلتين ، يروى بفتح الجيم وكسرها ، أي قطعتين . والغرض : الهدف . ومعنى رمية الغرض : انه حينما يقطع الدجال بالسيف ذلك الشاب قطعتين تتباعد القطعتان عن بعضهما كبعد رمية السهم عن القوس . وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم في صحيحه ١٨ : ٧٣ « ثم يمشي الدجال بين القطعتين » .

(٣) رويت هذه اللفظة بالدال والذال ، يقال : ان الثوب صنع بالورس ثم بالزعفران جاء لونه مثل زهر الحوذانة ، فذلك الثوب مهرود ، ومعناه : ينزل عليه السلام في حلتين لابسهما ، وفيهما صفرة خفيفة .

(٤) اي اذا خفض راسه قطر منه الماء ، واذا رفعه تحدر منه تحدرا أي نزل ببطء ، وصفة ذلك كالجمان وهو حبات من الفضة كبار ، تشبه اللؤلؤ في صفائها وحسنها . وهذا كله كناية عن حسن سيدنا عيسى وجمال خلقته الشريفة عليه الصلاة والسلام الى جمال ثيابه الذي تقدم ذكره ، هذا ما ذكره العلماء في توجيه معنى جملة (اذا طاطأ راسه قطر) . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عيسى عليه السلام في حديث آخر ، رواه البخاري في صحيحه ٦ : ٣٤٩ ، ١٣ : ٨٥ بشرح الحافظ ابن حجر فقال في نعته « رجل آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال ، سبط الشعر ، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم تضرب لمته بين منكبيه ، يقطر راسه ماء ، ربعة ، أحمر كأنما خرج من ديماس ، وتفسير هذه النعوت الكريمة : اسمر جميل السمرة جدا ، له شعر ليس بجعد ، طويل يضرب على منكبيه في غاية النظافة والنضارة والجمال ، حتى كأنه يقطر من الماء الذي سرحه به ، مربوع القامة ، تعلو وجهه حمرة ، كأنه خرج من الحمام تتحدر من وجهه حبات الماء كاللؤلؤ الوضاء .

(٥) اي لا يمكن ولا يقع لكافر يجد ريح نفس عيسى عليه السلام الا مات . قال العلامة القرطبي : يعني ان الله سبحانه قوى نَفَسَ عيسى عليه السلام حتى يصل الى ادراك بصره ، ومعناه أن الكفار لا يقربونه ، وانما يهلكون عند رؤيته ووصول نفسه اليهم ، حفظ من الله سبحانه له ، واظهار لكرامته . نقله العلامة الابي في شرح « صحيح مسلم » ٧ : ٢٧٢ . وقال العلامة علي القاري : ومن الغريب أن نَفَس عيسى عليه الصلاة والسلام تعلق به الاحياء لبعض ، والاماتة لبعض.

لُدّ(١) ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى [بن مريم] قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم(٢) ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل الى عيسى بن مريم ، أني قد أخرجتُ عباداً لي ، لا يَدانِ لأحد بقتالهم(٣) ، فحرِّز عبادي إلى الطور(٤) ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون(٥) ، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية(٦) فيشربون ما فيها ، ويمرُّ آخرهم ، فيقولون : لقد كان بهذه

---

(١) بلدة معروفة الآن في فلسطين ، قريبة من بيت المقدس .

(٢) قال العلامة علي القاري رحمه الله تعالى : أي يزيل عن وجوههم ما اصابها من غبار سفر الغزو مبالغة في اكرامهم ، أو المعنى : يكشف ما نزل بهم من آثار الكآبة والحزن على وجوههم بما يسرهم من خبره لهم بقتل الدجال .

(٣) اي لا قدرة ولا طاقة لاحد بمقاتلتهم .

(٤) اي ضمهم الى الطور واجعله لهم حرزا . والطور هو الجبل الذي ناجى عليه سيدنا موسى ربه .

(٥) الحدب : المرتفع من الارض ، وينسلون : يسرعون . يعني أنهم يتفرقون في الارض فلا ترى مرتفعا من الارض الا وقوم منهم يهبطون منه مسرعين في المشي الى الفساد .

(٦) هي بحيرة في طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها .

وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنّة النبوية ، منها ما رواه الامام احمد في « مسنده » ٣ : ٧٧ وابن ماجه في « سننه » ٢ : ١٣٦٣ واللفظ لاحمد من حديث ابي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، كما قال الله عز وجل « وهم من كل حدب ينسلون » فيغشون الناس ـ لفظ ابن ماجه ـ فيعمون الارض ـ وينحاز المسلمون عنهم الى مدائنهم وحصونهم ويضمون اليهم مواشيهم . ويشربون مياه الارض ، حتى ان بعضهم ليمر بالنهر فيشربون مافيه حتى يتركوه يابسا ، حتى ان من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان ها هنا ماء مرة !

حتى اذا لم يبق من الناس أحد الا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء اهل الارض قد فرغنا منهم ، بقي أهل السماء ، قال : ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها الى السماء فترجع اليه مخضبة دما ، للبلاء والفتنة !

فبينما هم على ذلك اذ بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في اعناقهم ، ـ لفظ ابن ماجة : كنغف الجراد فتأخذ بأعناقهم ـ فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس . فيقول المسلمون الا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ؟ قال : فينحدر رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطنها على انه مقتول ، فيجدهم موتى بعضهم على بعض ! فينادي : يا معشر المسلمين الا ابشروا ان الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم رعي الا لحومهم ، فتشكر عنه ـ تسمن وتمتلىء شحما ـ كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط » انتهى كلام الحافظ ابن كثير .

مرّة ماء ويُحصَر نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه[١] ، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار ، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النَّغف[٢] في رقابهم فيصبحون فَرْسى[٣] ، كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبيّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض[٤] ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهم[٥] ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت[٦] ، فتحملهم فتطرحهم حيثما شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكنُّ منه بيت مدَر ولا وبَر[٧] ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلفة[٨] ، ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك ، وردّي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة[٩] الرمانة ، ويستظلون بقحفها[١٠] ، ويبارك في الرِّسْل[١١] ، حتىإن اللقحة[١٢] من الإبل لتكفي الفئام من الناس[١٣] ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم

---

(١) أي يحاصرون ويحبسون في جبل الطور .

(٢) دود يكون في أنوف الابل والغنم .

(٣) فرس : جمع فريس ، وهو القتيل . وفرس : أي موتى ! قال العلامة التوربشتي رحمه الله تعالى : يعني ان القهر الالهي الغالب على كل شيء يَفْرسهم دفعة واحدة ، فيصبحون قتلى ! وقد نبه صلى الله عليه وسلم بالكلمتين اعني : (النَّغف) و (فرس) على ان الله سبحانه يهلكهم في أدنى ساعة بأهون شيء وهو النغف ، فيفرسهم فرس السبع فريسته بعد أن طارت نعرة البغي في رؤوسهم ــ خيلاؤه وكبره ــ ، فزعموا أنهم قاتلوا من في السماء !

(٤) اي ينزلون من جبل الطور .

(٥) أي رائحتهم الكريهة .

(٦) البخت : نوع من الجمال طوال الاعناق . اي يرسل الله طيرا كبيرة طويلة قوية .

(٧) أي لا يحفظ ولا يصون منه بيت تراب او حجر أو صوف او شعر .

(٨) أي كالمرآة في صفائها ونظافتها .

(٩) أي الجماعة .

(١٠) أي بقشرها لشدة كبرها .

(١١) أي اللبن الحليب .

(١٢) اللقحة : الناقة التي يكون لها لبن .

(١٣) الفئام : الجماعة الكثيرة .

لتكفي الفخذ[1] من الناس ، فبينما هم كذلك ، إذ بعث الله ريحاً طيبة ، فيأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج[2] الحمُر ، فعليهم تقوم الساعة [3] » .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : يخرج الدجال فيتوجَّه قِبَلَهُ رجلٌ من المؤمنين فتلقاه المسالح[4] ـ مسالحُ الدجال ـ فيقولون له : أين تعمِد ؟ فقال : أعمِد إلى هذا الذي خرج ، قال : فيقولون له : أوَما تؤمن بربنا ؟ فيقول : مابربِّنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه ، فيقول بعضهم لبعض : أليس نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه ؟ قال : فينطلقون به الى الدجال ، فاذا رآه المؤمن قال : أيها الناس ، هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ قال : فيأمر الدجال به فيُشجّ ، فيقول : خذوه وشجُّوه ، فيُوسعَ ظهرهُ وبطنه ضرباً ، قال : فيقول أما تؤمن بي ؟ فيقول : أنت المسيح الكذاب ؟ قال فيُؤمر به ، فيؤشر[5] بالمئشار من مفرقه حتى يفرّق بين رجليه ، قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، قال : ثم يقول له قُم ، فيستوي قائماً ، قال : ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددتُ فيك إلا بصيرة[6] قال : ثم يقول : ياأيها الناس : إنه لايفعل بعدي بأحد من الناس ، قال : فيأخذه الدجال ليذبحه ، فيُجعَل مابين رقبته الى تَرقُوَته نحاساً ، فلا يستطيع اليه سبيلا ، قال : فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به ، فيحسب الناس أنما قذفه الى النار ، وانما أُلقي

---

(١) اي الجماعة اقل من القبيلة .

(٢) التهارج : الاختلاف والاختلاط ، واصله القتل . والمعنى أي يتسافدون في الارض تسافد الحمير ، اي يجامع الرجال علانية النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ، ولا يكترثون لذلك . والهرج : الجماع . وهذا نموذج لشيوع الفساد والفواحش حينذاك . اذ في الحديث الذي رواه مسلم في « صحيحه » ١٨ : ٨٨ : « لا تقوم الساعة الا على شرار الناس » .

(٣) اخرجه مسلم .

(٤) المسالح : جمع مسلحة ، وهم قوم معهم سلاح .

(٥) أشرته بالمنشار : اذا شققته به .

(٦) المعرفة واليقين .

في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين[1] .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنـــه ، قال ربعي ابن حراش : انطلقتُ أنا وعقبة بن عمرو الى حذيفة ، فقال عقبة : حدثني ما سمعتَ من رسول الله ﷺ في الدجال ، فقال سمعته يقول : « إن مع الدجال اذا خرج ماءً وناراً ، فأما الذي يرى الناس أنه نار : فماء بارد ، وأما الذي يرى الناس أنه مــــاء ، فنار تحترق ، فمن أدرك ذلك اليوم منكم فليقع في الذي يرى أنه نار ، فانه مــــاء عذب بارد ، قال حذيفة : وسمعته يقول : إن رجلاً ممن كان قبلكم أتاه الملَك ليقبض روحه ، فقال : هل علمتَ من خير ؟ قال : ما أعلم ، قيل له : انظر ، قال : ما أعلمُ شيئاً ، غير أني كنتُ أبايع الناس في الدنيا ، فأنظر[2] الموسر وأتجاوز عن المعسر ، فادخله الله الجنة ، وسمعتُه يقول : ان رجلاً حضره الموت ، فلما يئسَ من الحياة ، أوصى أهله ، إذا أنا متُّ فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزْلاً[3] ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى اذا أكلتْ لحمي ، وخلصَت إلى عظمي ، وإمتُحِشَت[4] ، فخذوها فاطحنوها ، ثم انظروا يوماً راحاً[5] فاذروه في اليم ، ففعلوا ، فجمعه الله عز وجل اليه فقال : لِمَ فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، قال فغفرَ الله له ، فقال عقبة وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نباشاً[6] » .

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته ، وإنه قال لي : ما يضرُّك منه ؟ قلتُ : إنهم يقولون ، إن معه جبل خبز ، ونهر ماء ، قال : هو أهونُ على الله من ذلك[7] » .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) انظار المعسر : تأخير ما عليه من الدين الى حال يساره .

(٣) الحطب الجزل : القوي الغليظ .

(٤) الامتحاش : الاحتراق .

(٥) يوم راح : كثير الريح شديده

(٦) اخرجه البخاري ومسلم .

(٧) اخرجه البخاري ومسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ – ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدّث به نبي قومه ، إنه أعور ، إنه يجيء بمثال الجنة والنار ، فالتي يقول : إنها الجنة : هي النار ، وإني أنذركم به ، كما أنذر به نوح قومه [(١)]) .

عن أبي الزبير رحمه الله سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنـــه يقول : أخبرتني أم شريك ، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليَنفِرَنّ الناس من الدجال في الجبال) . قالت أم شريك : قلت يا رسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل[(٢)]) .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من سمع بالدجال فلْيَنْأَ منه ، فوالله : إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن ، فيتبعه ، مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات[(٣)]) .

عن حميد بن هلال رضي الله عنه عن رهط – منهم أبو الدهماء وأبو قتادة – قالوا : كنا نمرّ على هشام بن عامر ، نأتي عمران بن حصين ، فقال ذات يوم : إنكم لتجاوزونني إلى رجـــال ما كانوا بأحضر لرسول الله ﷺ مني ، ولا أعلم بحديثه مني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما بين خلق آدم الى قيام الساعة : خلق أكبر من الدجال) . وفي رواية (أمرٌ أكبر من الدجال[(٤)]) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ : ذكر الدجال بين ظهراني الناس ، فقال : (إنّ الله ليس بأعور ، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأنّ عينه عنبة طافئة[(٥)]) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) اخرجه مسلم والترمذي .

(٣) اخرجه ابو داود ، واسناده صحيح .

(٤) اخرجه مسلم ، وقد روى مسلم في صحيحه ٥ : ٨٨ عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : قولوا : « اللهم اني اعوذ بك من عذاب جهنم ، واعوذ بك من عذاب القبر ، واعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، واعوذ بك من فتنة المحيا والممات » .

(٥) اخرجه مسلم

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما من نبي إلا وقد أنذر أُمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم عز وجل ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه (ك ف ر [١]) . وفي رواية لمسلم ان نبي الله ﷺ قال : (الدجال مكتوب بين عينيه « ك ف ر » أي كافر) وفي أخرى : قال : قال رسول الله ﷺ (الدجال ممسوح العين ، مكتوب بين عينيه (كافر) ثم تهجاها (ك ف ر) يقرؤه كل مسلم) .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إني حدثتكم عن الدجال ، حتى خشيت أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال قصير أفحج [٢] ، جعد أعور ، مطموس العين ، ليست بناتئة ولا جحراء [٣] ، فإن التبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور [٤]) .

عن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يقتلُ ابن مريم الدجال بباب لدّ [٥]) .

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ قال : (الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجانّ [٦] المطرقة [٧]) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة [٨]) .

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابو داود .

(٢) الفحج : تباعد ما بين الفخذين .

(٣) عين جحراء : اي عين مختفية .

(٤) أخرجه ابو داود واسناده حسن .

(٥) اخرجه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح .

(٦) المجان : جمع مجنة . وهو الترس .

(٧) اخرجة الترمذي وهو حديث حسن وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٨) اخرجه مسلم .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ (يخرج الدجال في خفقة من الدين [1] ، وإدبار من العلم ، وله أربعون يوماً يسيحها في الأرض ، اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه . وله حمار يركبه ، عَرْضُ ما بين أذنيه أربعون ذراعاً . فيقول للناس : أنا ربكم . وهو أعور . وإن ربكم ليس بأعور . مكتوب بين عينيه : (كافر) ، ك ف ر ، مُهجّاةً يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب . يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة حرمها الله تعالى عليه ، وقامت الملائكة بأبوابها ، ومعه جبال من خبز ، والناس في جهد إلا من تبعه . ومعه نهران أنا أعلم بهما منه ، نهر يقول : الجنة ، ونهر يقول النار فمن أُدخل الذي يسميه الجنة فهو النار ، ومن أُدخل الذي يسميه النار فهو الجنة .

ويبعث الله معه شياطين تكلم الناس . ومعه فتنة عظيمة ، يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس ، ويقتل نفساً ثم يحييها فيما يرى الناس ، لا يُسلّط على غيرها من الناس . ويقول : يا أيها الناس هل يفعل مثل هذا إلا الرب عز وجل ؟ فيفر المسلمون إلى جبل الدخان بالشام ، فيأتيهم فيحاصرهم ، فيشتد حصارهم ، ويُجهدهم جهداً شديداً .

ثم ينزل عيسى ابن مريم من السَّحَر ، فيقول : يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ؟ فيقولون : هذا رجل جِنّي [2] ، فينطلقون فاذا هم بعيسى ابن عليه السلام ، فتقام الصلاة ، فيقال له : تقدم يا روح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصلِّ بكم ، فاذا صلى صلاة الصبح خرجوا اليه . فحين يراه الكذاب ينماث كما ينماث الملح في الماء [3] ، فيمشي اليه فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادي يا روح الله هذا

---

(١) أي في حال ضعف من الدين وقلة اهله . ولفظ « في خفه » رواية الحاكم ، ورواية احمد « في خفقة من الدين » والمعنى واحد ، مأخوذ من خفق الليل اذا ذهب ، أو خفق الامر اذا اضطرب .

(٢) هذا كناية عن شدة أذاه .

(٣) اي يختفي ويتوارى كما يذوب الملح في الماء .

اليهودي ، فلا يترك من كان يتبعه أحداً إلا قتله[1]) .

ويلاحظ أن قراءة أخبار الساعة واليوم الآخر وما يكون قبله لها الأثر الكبير البالغ في تصحيح سلوك الناس وتحسين أعمالهم ، كما أن بُعد الناس عن قراءتها ومعرفتها يتسبب عنه سوء العمل ، وينسي على طول الزمن تلك الحقائق من الأذهان ، ويقلصها في النفوس ، حتى قد يقع الاستبعاد والاستخفاف بها ، أو الانكار لوقوعها ممن لا علم عندهم ، ولذلك كان السلف الصالح يداومون على تعليم تلك الأخبار والأحاديث ويذكرونها للناس حتى الأولاد في الكتّاب ـ المدرسة ـ ليتوارثوا معرفتها بعلم وبصيرة ، ولتكون لهم بها عقيدة راسخة أصيلة ، تزيد متانة على مرور الأيام .

وروى مسلم في « صحيحه » : ٥ : ٨٨ (عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : قولوا : (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) . قال مسلم بن الحجاج : بلغني أن طاوساً — وهو راوي هذا الحديث عن ابن عباس ـ قال لابنه : أدعوت بها في صلاتك ؟ فقال : لا ، قال : أعد صلاتك) . انتهى . وانما أمّر طاوس ابنه باعادة الصلاة لأنه كان يرى وجوب الدعاء في الصلاة بهذه الدعوات الأربع ، ويرى أن المصلي إذا أخلّ بها بطلت صلاته ، وذلك لما فهمه من وجوبها من اهتمام النبي ﷺ بتعليمها للصحابة كما يعلمهم السورة من القرآن ، وأمره لهم بالدعاء في صلواتهم . وقد روى مسلم في « صحيحه » أيضاً ٥ : ٨٧ عن عائشة أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة بهذا الدعاء . وروى أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » . وما هذا الاهتمام العظيم من النبي ﷺ بهذا

---

(١) رواه احمد في « مسنده » وصححه الحاكم في « المستدرك » ورجاله ثقات . وقال الذهبي في تلخيص المستدرك ٤ : ٥٣٠ « وهو على شرط مسلم » ، وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧ : ٣٤٤ وقال « رواه احمد باسنادين ، رجال احدهما رجال الصحيح » .

الدعاء عملاً وأمراً وتعليماً إلا لما حواه من التعوذ من عظائم الأمور والأهوال الكائنة الحق ولا ريب ، ولهذا جزم الامام ابن حزم الظاهري بفرضية قراءة هـذا التعوذ بعد الفراغ من التشهد كما في كتابه « المحلّى » ٣ : ٢٧١ أخذاً من ظاهر حديث أبي هريرة رضي الله عنه وبعد أن روى الامام ابن ماجه في « سننه » حديث أبي امامة الباهلي ، وفيه أوصـــاف الدجال وأحواله وأعماله ونزول عيسى عليه السلام ، قال عقبه : (سمعتُ أبا الحسن الطنافسيّ يقول : سمعتُ عبد الرحمن المحاربي يقول : ينبغي أن يدفع هذا الحديث الى المؤدّب حتى يعلمه الصبيان في الكتّاب « أي في المدرسة » . وقال العلامة السفّاريني في شرح منظومته في العقيدة الاسلامية المسمى « لوامع الأسرار البهية » ٢ : ١٠٦ « ينبغي لكل عالم أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال ، ولا سيما في زماننـــا هذا الذي اشرأبت فيه الفتن ، وكثرت فيه المحن ، واندرست فيه معالم السنن ، وصارت السنة فيه كالبدع ، والبدعة شرع يتّبع » انتهى[1]) .

٤ – في الفتن والاختلاف أمام القيامة

١ – الفتـــن

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع[2] الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً ، يبيع أقوام دينهم بعرَض من الدنيـا[3] » .

عن أنس بن مالك رضي الله عنـه قال – عند قرب وفاته – : « ألا أحدثكم حديثاً عن رسول الله ﷺ ، لا يحدثكم به أحدٌ عنه بعدي ؟ سمعت رسول الله ﷺ

(١) كتاب التصريح بما تواتر في نزول المسيح تحقيق الاستاذ الشيخ عبدالفتاح ابو غدة ص ٨ .

(٢) قطع الليل : طائفة منه .

(٣) اخرجه الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

يقول : « لا تقوم الساعة ـ أو قال : إن من أشراط الساعة ـ : أن يُرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويُشرب الخمر ، ويفشو الزنا ، ويذهب الرجال ، ويبقى النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة قيّمٌ[١] واحد[٢] » .

عن عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة أياماً ينزل فيها الجهل ، ويُرفع فيها العلم ، ويكثر فيها الهرج ، والهرج : القتل[٣] » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن يتقارب الزمان[٤] ، وينقص العلم ، وتظهر الفتن ، ويُلقى[٥] الشُّح ، ويكثر الهرج ، قالوا : يا رسول الله ، وما الهرج ؟ قال : القتل القتل[٦] » .

عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : « أتيتُ النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو

---

(١) قيّم المراة : زوجها ، لانه يقوم بأمرها ، وبما تحتاج اليه من نفقة وغيرها ، ومعنى الجملة الاخيرة : أن الرجل الواحد يكون راعيا وقائما بمصالح خمسين امرأة ، له فيهن الزوجة من الواحدة الى الاربع ، والباقي لسن زوجات له ، وانما هن قريبات من أخوات وامهات وخالات وعمات وجدات ونحو ذلك .

(٢) اخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم .

(٤) يتقارب الزمان : كناية عن قصر الاعمار ، وقلة البركة فيها ، وقيل ان الزمان يتقارب حتى تكون السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة ، والساعة كاحتراق السعفة .

(٥) (يلقى الشح) قال الحميدي : لم يضبط الرواة هذا الحرف ، ويحتمل أن يكون « يلقّى » بمعنى يتلقى ويتعلم ويتواصى به ويدعى اليه ، قال الله تعالى « ولا يلقاها الا الصابرون » اي ما يعلمها وينبه عليها ، وقال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) اي تقبلها وتعلمها ، ولو قيل يلقى بمعنى يوجد ، لم يستقم ، لان الشح ما زال موجود قبل تقارب الزمان ، ولو قيلّ : يلقى ـ مخففة القاف ـ لكان أبعد ، لانه لو ألقى لترك ، ولم يكن موجودا ، وكأنه يكون مدحا والحديث مبني على الذم ، الا ان في بعض الروايات لهذا الحديث « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يهم رب المال من يقبض صدقته » فيكون يلقى ـ بالقاف مخففة ـ بمعنى الترك ، هذا لفظ الحميدي .

(٦) اخرجه البخاري ومسلم .

في قبّة آدم ، فقـــال أعدد ستاً بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم مُوتان[1] يأخذ فيكم ، كقعاص[2] الغنم ، ثم استفاضة المال ، حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظلُّ ساخطاً ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلَته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين[3] غاية ، تحت اثنا عشر ألفاً[4] » .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « في هـذه الأمة خسْف ومسْخ وقذف » فقال له رجل من المسلمين : يا رسول الله ، ومتى ذلك؟ قال: « إذا ظهرت القيان والمعازف وشُربت الخمور[5] » .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، قالت : قلت يا رسول الله ، أنهلِك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا ظهر الخبَث[6] » .

عن أبي مالك ــ أو أبي عامر الأشعريان رضي الله عنهما قال عبد الرحمن بن غنَم الأشعري : حدثني أبو عامر ــ أو أبو مالك الأشعري ــ والله ما كذبني سمع النبيﷺ يقول « ليكونَنّ من أمتي أقوام يستحلون الخزّ والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلنّ أقوام إلى جنب علَم[7] تروح عليهم سارحة لهم ، فيأتيهم رجل لحاجة ، فيقولون: ارجع الينا غداً ، فيبيّتهم الله ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة[8] » .

---

(١) موتان : بضم الميم : موت يقع في الماشية فيهلكها .

(٢) القُعاص : داء يأخذ الغنم ، لا يلبثها أن تموت .

(٣) ا ناية : بالغين المعجمة : الراية ، ومنه غاية الخمار ، وهي خرقة يرفعها على بابه ، ومن رواه بالباء ، فانه أراد الاجمة ، شبه كثرة رماح العسكر بها .

(٤) اخرجه البخاري .

(٥) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن ـ يشهد له الذي بعده .

(٦) اخرجه الترمذي ، وهو حديث حسن يشهد له الذي قبله .

(٧) العَلَم : الجبل وما يهتدى به في البرية ، من بناء أو جدار أو غير ذلك .

(٨) أخرجه البخاري .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا قعوداً عند رسول الله ﷺ : فذكر الفتن ، فأكثر في ذكرها ، حتى ذكر فتنة الأحلاس[1] ، فقال قائل : يا رسول الله : وما فتنة الأحلاس ؟ قال : هَرَبٌ وحَرَبٌ[2] ، ثم فتنة السرّاء ، دخَنُها[3] من تحت قدمَيّ[4] رجل من أهل بيتي ، يزعم أنه مني ، وليس مني ، وإنما أوليائي المتقون ، ثم يصطلح الرجال على رجل كورِكٍ[5] على ضلع ، ثم فتنة الدُّهيماء[6] ، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمتْه لطمة ، فاذا قيل انقضت عادت ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، حتى يصير الناس إلى فسطاطين[7] ، فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، فإن كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده[8]».

عن أبي ادريس الخولاني قال حذيفة رضي الله عنه[9]) : والله إني لأعلمُ الناس بكل

---

(١) (فتنة الاحلاس) : شبه هذه الفتنة التي اشار اليها بالاحلاس ، وهي جمع حلس ، وهي كساء يكون على ظهر البعير لدوام هذه الفتنة ولزومها .

(٢) حَرَب : بفتح الراء : ذهاب المال والاهل ، يقال حرب الرجل ، فهو حريب : اذا سلب اهله وماله .

(٣) (دخنها) : اثارها وهيجتهاشبهها بالدخان الذي يرتفع ، أي ان اصل ظهورها هذا الرجل.

(٤) وقوله « من تحت قدمي رجل » يعني أنه يكون سبب اثارتها .

(٥) (كورك على ضلع) مثل ، أي : انه لا يستقل بالملك ، ولا يلائمه ، كما ان الورك لا تلائم الضلع .

(٦) أراد بالدهيماء : السوداء المظلمة ، وقيل اراد بالدهيماء : الداهية .

(٧) (فسطاطين) الفسطاط : الخيمة الكبيرة ، والمراد به في هذا الحديث : الفرقة المجتمعة المنحازة عن الفرقة الاخرى ، تشبيها بانفراد الخيمة عن الاخرى .

(٨) اخرجه ابو داود واسناده صحيح .

(٩) في « المستدرك » للحاكم : ٤٣٢ « وكنت اسأله عن الشر كيما أعرفه فاتقيه ، وعلمت ان الخير لا يفوتني » ، أي اذ يسأل غيري عنه . قال العلامة ابن ابي جمرة في كتابه « بهجة النفوس» ٤ : ٢٦١ : شاءت حكمة الله تعالى ان يقيم كلا من عباده فيما شاء سبحانه ، فحبب الى أكثر الصحابة السؤال عن وجود الخير ليعملوا بها ويبلغوها غيرهم . وحبب الى حذيفة السؤال عن الشر ليجتنبه ويكون سببا في دفعه عمن اراد الله له النجاة .

وكل من حبب اليه شيء فانه يفوق فيه غيره ، ولهذا كان حذيفة صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، حتى خص بمعرفة اسماء المنافقين ، وبكثير من الامور الآتية اي التي ستقع . ونقله ملخصا الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١٣ : ٣١ .

....

وقد عرف حذيفة رضي الله عنه بين الصحابة بصاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى مسلم في « صحيحه » ١٨ : ١٦ عن حذيفة انه قال : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو كائن الى أن تقوم الساعة ، فما منه شيء الا قد سألته ، الا أني لم اسأله ما يخرج اهل المدينة من المدينة ؟ . وروى البخاري ومسلم في « صحيحهما » ان ابا الدرداء قال لعلقمة : اليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيرهُ ؟ يعني : حذيفة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأله عن المنافقين ، وينظر اليه عند موت من يموت منهم ، فان لم يشهد حذيفة جنازته لم يشهدها عمر . وهو الذي كان يحفظ حديث الفتنة كما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال حذيفة رضي الله عنه : « كنا جلوسا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة كما قال : فقلت : أنا أحفظه كما قال ، قال : انت لله أبوك هات ، انك عليه لجريء — أي انك لعالم به ، قوي على حفظه ، لكثرة اهتمامك بالسؤال عنه وعن امثاله من أحاديث الفتن — فكيف ؟ » .

قلت : فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وجاره تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال : ليس هذه أريد ، انما اريد الفتنة التي تموج كموج البحر . فقلت : مالك ولها ؟ لا بأس عليك منها يا أمير المؤمنين ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب انكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير — اي تلك القلوب — على قلبين — أي على نوعين — ابيض مثل الصفا — اي الحجر الابيض الاملس الاصم — فلا تضره فتنة ما دامت السموات والارض . والآخر اسود مربادا — أي متغيرا مظلما تستهويه كل فتنة ، كالكوز مجخيا — اي منكوسا مقلوبا لا يعلق به خير ولا تستقر فيه حكمة ، لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا الا ما اشرب هواه .

وان بينك وبينها — أي الفتنة — بابا مغلقا يوشك أُن يكسر ، فقال عمر : اكسرا ؟ فلو انه فتح لعلة كان يعاد ؟ قلت : لا بل يكسر ! قال : ذلك أحرى ان لا يغلق ابدا الى يوم القيامة .

فقلنا — أي سامعو هذا الحديث من حذيفة — لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم ان دون غد الليلة . اني حدثته حديثا ليس بالاغاليط . — أي حدثته حديثا صدقا محققا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم لا عن اجتهاد وراي — فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب ؟ فقلنا لمسروق : سله ، فسأله فقال : الباب عمررضي الله عنه » رواه البخاري في «صحيحه» ٢ : ٦ ، ٢ : ٢٣٩ ، ٤ : ٩٥ و ٦ : ٤٤٥ ، ومسلم في « صحيحه » ٢ : ١٧٠ و ١٨ : ١٦ ورواه الترمذي وابن ماجــه .

ومن كلام حذيفة وقد سئل اي الفتن اشد ؟ فقال : أن يعرض عليك الخير والشر ، فلا تدري أيهما تركب ! .

فتنة هي كائنة بيني وبين الساعة ، وما بي [إلا] أن يكون رسول الله ﷺ أسرّ إليّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري ، ولكن رسول الله ﷺ — قال يوماً — وهو في مجلس يتحدث عن الفتن ويعدّهن — : منها ثلاث لا يكدنَ يذرنَ شيئاً ، ومنها فتن كرياح الصيف ، منها صغار ، ومنها كبار ، فذهب أولئك الرهط الذي سمعوه معي كلهم غيري [1] » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا تمرُّ الدنيا حتى يمرُّ الرجل بالقبر فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدّين ، ما به إلا البلاء » .

وفي رواية قال : « لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه [2] » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يَقتِيلُ الناس عليه فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، فيقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا أنجو » .

وفي رواية : قال : قال رسول الله ﷺ — « يوشك الفرات أن يُحسر عن كنز من ذهب ، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً [3] » .

عن عبيد الله بن حارث بن نوفل رضي الله عنه قال : « كنت واقفاً مع أُبيّ ابن كعب ، فقال : لا يزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا ، قلت : أجل ، قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « يوشك الفرات أن يُحسر عن جبل ذهب ، فاذا سمع به الناس ساروا إليه ، فيقول مَن عنده : لئن تركنا الناس يأخذون منه ليُذهبنّ به كله ، قال : فيقتتلون عليه ، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون [4] » .

---

(١) اخرجه مسلم .

(٢) اخرجه مسلم ، واخرج البخاري الثانية .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم . واخرج ابو داود والترمذي الرواية الثانية .

(٤) اخرجه مسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تقيء الأرض أفلاذ كبدها [(١)] ، في مثل الاسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل ، فيقول : في هذا قتلتُ ، ويجيء القاطع ، فيقول : في هذا قطعتُ رحمي ، ويجيء السارق ، فيقول : في هذا قُطعَتْ يدي ، ثم يَدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً [(٢)] » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليأتينّ على الناس زمان ، لا يدري القاتل في أي شيء [قَتَل] ، ولا يدري المقتول في أي شيء قُتل؟ قيل : وكيف ؟ قال : الهرْج ، القاتل والمقتول في النار[(٣)] » .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في الفتنة : « كسّروا فيها قِسيّكم ، وقطّعوا فيها أوتاركم ، والزموا فيها أجواف بيوتكم ، وكونوا كابنِ آدم[(٤)] » .

وأخرجه أبو داود بزيادة في أوله قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم[(٥)] ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ، ويُمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والماشي فيها خير من الساعي ، فكسّروا قِسيّكم ، وقطّعوا أوتاركم ، واضربوا سيوفكم بالحجارة ، فإن دُخِل على على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم[(٦)] » وفي رواية « قالوا : فما تأمرنا ؟ قال :

---

(١) (تقيء الارض افلاذ كبدها) الافلاذ : القطع ، جمع فلذة ، والقيء مستعار لهما في اخراج كنوزها ، كما يخرج القيء الطعام من الجوف .

(٢) اخرجه مسلم .

(٣) اخرجه مسلم .

(٤) اخرجه الترمذي .

(٥) (قطع الليل) : طائفة منه ، اراد فتنة مظلمة سوداء ، تعظيما لشأنها .

(٦) (كابن آدم) اراد بقوله : كابن آدم ، وقوله (كخير ابني آدم) هو ابن آدم لصلبه هابيل الذي قتله أخوه قابيل ، وما قال الله تعالى في امرهما « لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لاقتلك » وقوله « اني أريد أن تبوء باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار » .

كونوا أحلاس (١) بيوتكم (٢) » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان من المسلمين فيكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة (٣) » .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم ، وتجتلدوا بأسيافكم ، ويرث دنياكم شراركم (٤) » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر ، ولاتقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة » .

وفي رواية قال : قال رسول الله ﷺ « تقاتلون بين يدي الساعة قوماً نعالهم الشعر ، كأن وجوههم المجان المطرقة ، حمر الوجوه ، صغار الأعين (٥) » .

عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أشراط الساعة : أن تقاتلوا قوماً ينتعلون نعال الشعر ، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه ، كأن وجوههم المجان المطرقة (٦) » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق — أو بدابق (٧) — فيخرج اليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فاذا تصافوا ، قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ،

---

(١) احلاس بيوتكم : فلان حلس بيته : اذا لزمه لا يفارقه ، مأخوذ من الحلس ، وهو الكساء الذي يكون على ظهر البعير .

(٢) رواه ابو داود والترمذي ، وهو حديث صحيح .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم .

(٤) أخرجه الترمذي ، ورواه أيضا ابن ماجه في الفتن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

(٥) اخرجه البخاري ومسلم .

(٦) اخرجه البخاري .

(٧) موقعان بالشام ، بقرب حلب .

فيقول المسلمون : لا والله كيف نخلي بينكم وبين اخواننا ، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلث ، لا يفتنون أبداً ، فيفتتحون قسطنطينية ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ،قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح الدجال قد خلفكم في أهاليكم[1] ، فيخرجون ، وذلك باطل ، فاذا جاءوا الشام خرج ، فبينما هم يعدون للقتال يسوون صفوفهم ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى ابن مريم ، فأمهم ، فاذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده – يعني المسيح – فيريهم دمه في حربته[2] » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « سمعتم بمدينة ، جانب منها في البر ، وجانب منها في البحر ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : « لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني اسحاق ، فاذا جاءوها نزلوا ، فلم يقاتلوا بسلاح ، ولم يرموا بسهم ، قالوا : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فيسقط أحد جانبيها – قال ثور بن يزيد : لا أعلمه إلا قال الذي في البحر – ثم يقولون الثانية : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولون [الثالثة] : لا إله إلا الله، والله أكبر ، فيفرج فيدخلونها فيغنمون ، فبينما هم يقتسمون الغنائم ، إذ جاءهم الصريخ ، فقال : إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون[3] » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل القتل[4] »

عن يسير بن جابر – أو أسير – رضي الله عنه قال : « هاجت ريح حمراء بالكوفة ، فجاء رجل ليس له هجيري[5] إلا : يا عبد الله بن مسعود ، جاءت الساعة ،

---

(١) (خلفكم) : خلفت الرجل في أهله : اذا قمت فيهم مقامه ، وخلفهم العدو : اذا طرقهم وهم غالبون .

(٢ ، ٣ ، ٤) اخرجه مسلم .

(٥) « هجيري » هجيراه : أي عادته وديدنه .

قال : فقعد – وكان متكئاً – فقال : إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث ، ولا يُفرح بغنيمة ، ثم قال بيده هكذا – ونحّاها نحو الشام – فقال : عدوٌّ يجمعون لأهل الاسلام ، ويجمع لهم أهل الاسلام ، قلت : الروم تعني ؟ قال : نعم ، ويكون عند ذلكم القتال ردّة شديدة ، فيتشرط[1] المسلمون شرطة[1] للموت ، لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كلٌّ غير غالب ، وتفنى الشرطة ، ثم يتشرط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، ثم يتشرط المسلمون شرطة للموت ، لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يُمسوا ، فيفيء هؤلاء وهؤلاء ، كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، فاذا كان اليوم الرابع نهد[2] اليهم بقية أهل الاسلام ، فيجعل الله الدائرة عليهم ، فيقتتلون مقتلة – إما قال لا يُرى مثلها ، وإما قال لم يُرَ مثلها – حتى إن الطائر ليمرُّ بجنباتهم ، فما يُخلّفهم حتى يخرَّ ميتاً ، فيتعادُّ[3] بنو الأم كانوا مائة ، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد ، فبأي غنيمة يُفرح ، أو أيّ ميراث يُقسم ؟ فبينما هم كذلك ؟ إذا سمعوا ببأس[4] هو أكبر من ذلك ، فجاءهم الصريخ : إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم ، فيرفضون ما بأيديهم ، ويُقبلون ، فيبعثون عشرة فوارس طليعة ، قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم ، وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ ، أو قال : من خير فوارس[5] » .

قتـال اليهـود

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود [فيقتلهم المسلمون] ، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر

(١) « شرطة » الشرطة : أول طائفة من الجيش يشهد الوقعة ، والتشرّط : تفعّل منه .
(٢) (نهد) الجيش لقتال العدو : اذا نهضوا اليه .
(٣) « فيتعاد » التعاد : تفاعل من العد ، أي يعد بعضهم بعضا .
(٤) الباس : الخوف والشدة .
(٥) أخرجه مسلم .

والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودي خلفي ، تعال فاقتله ، إلا الغرقد ، فانه من شجر اليهود » .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي : يا مسلم ، هذا يهودي ورائي ، فاقتله [1] » .

٢ ـ ظهور الشرك واختفاء الايمان

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات [2] نساء دوْس على ذي الخلَصة ، وذو الخلصة : طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية » وفي رواية : وذو الخلصة : « صنم كان يعبده دوْس في الجاهلية بتبالة [3] » .

عن مرداس الاسلمي رضي الله عنه وكان من أصحاب الشجرة ، سمعه قيس ابن أبي حازم يقول : « يُقبض الصالحون ، الأول فالأول ، ويبقى حثالة كحثالة التمر والشعير ، لا يعبأ الله بهم شيئاً » .

وفي رواية : قال النبي ﷺ « يذهب الصالحون الأول فالأول ، وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر ، لا يباليهم الله بالة [4] » .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة على

---

(١) اخرج مسلم الاولى ، والثانية البخاري .

(٢) (اليات نساء دوس على ذي الخلصة) ذو الخلصة : بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب ، وقيل : هو صنم ، وكان عمرو بن لحي نصبه بأسفل مكة ، حين نصب الاصنام في مواضع شتى ، فكانوا يلبسونه القلائد ، ويعلقون عليه بيضَ النعام ، ويذبحون عنده ، فكان معناهم في تسميتهم بذلك : أن عبّاده خَلَصة ، وقيل : هو الكعبة اليمانية، والمعنى : انهم يرتدون الى جاهليتهم في عبادة الاوثان ، فترمل نساء دوس طائفات حوله ، فترتج أردافهن .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

(٤) اخرجه البخاري وقال : ويقال : حفالة وحثالة ، حثالة كل شيء أردؤه وارذله .

أحد يقول : الله الله » وفي رواية « حتى لا يقال في الأرض الله الله[١] » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير ، فلاتدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلاقبضته[٢] » .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس[٣] » .

عن عبد الرحمن بن شماسة رضي الله عنه قال : كنتُ عند مَسلمة بن مُخلَّد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال عبد الله : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شرٌ من أهل الجاهلية ، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم ، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر ، فقال له مسلمة : يا عقبة ، اسمع ما يقول عبد الله ، فقال عقبة : هو أعلم ، وأما أنا ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ، قاهرين لعدوّهم ، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة ، وهم على ذلك ، قال عبد الله : أجل ، ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك ، مَسُّها مَسُّ الحرير ، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، عليهم تقوم الساعة[٤] » .

عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي قال : سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنه — وجاءه رجل — فقال : « ما هذا الحديث الذي تُحدث به الناس ؟ تقول : إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، فقال : سبحان الله ! — أو لا إله إلا الله ، أو كلمة نحوها — لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً : يُحرق البيت ، ويكون ، ويكون ، ثم سمعته يقول : قال رسول الله ﷺ — : « يخرج الدجال في أمتي ، فيمكث أربعين ، لا أدري — وفي رواية قال ابن عمرو — لا أدري أربعين يوماً ، أو شهراً ، أو عاماً — فيبعث الله

(١ و ٢) اخرجه مسلم .

(٣ و ٤) اخرجه مسلم .

عيسى بن مريم ، كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قِبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد[1] جبل لدخلت عليه حتى تقبضه ، قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : فيبقى شرار الناس في خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان ، فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارٌ رزقهم ، حسنٌ عيشهم ، ثم يُنفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً[2] ، ورفع ليتاً ، فأول من يسمعه : رجل يلوط إبله ، [قال] فيَصعق[3] ، ويصعق الناس ، قال : ثم يرسل الله — أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل[4] ، أو الظل — نعمان يشك — فينبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلمُّوا إلى ربكم (وقِفوهم إنهم مسؤولون) ثم يُقال لهم : أخرجوا بعث النار ، فيقال : [مِنْ] كم؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فذاك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يُكشف عن ساق[5] » .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار ، حتى تُعبد اللات والعزى ، قلت يا رسول الله ، إن كنت لأظنُّ حين أنزل الله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله [ولو كره المشركون] أن ذلك تام ، قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة ، فتتوفَّى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم[6] » .

(١) (كبد جبل) استعارة ، والمراد : ما غمض من بواطنه .

(٢) (أصغى ليتا) الّليت : صفحة العنق ، واصغاؤه امالته .

(٣) (يصعق) يغشى عليه ويموت .

(٤) (الطّل) : الندى الذي ينزل من السماء في الصحو .

(٥) أخرجه مسلم .

(٦) أخرجه مسلم .

عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، فاذا وضع السيف في أمتي ، لم يُرفع عنه إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله [١] » .

٥ – طلوع الشمس من مغربها

يقول الله سبحانه : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك . يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، قل انتظروا إنا منتظرون [٢]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا رآها الناس آمن من عليها) وفي رواية (فاذا طلعت ورآها الناس ، آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً [٣]) .

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي ﷺ جالس ، فقال : يا أبا ذر ، أين تذهب هذه ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم ، قال فانها تذهب تستأذن في السجود ، فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : اطلعي من حيث شئت ، فتطلع من مغربها ، قال : ثم قرأ : (وذلك مستقر لها [٤]) وقال : وذلك في قراءة عبد الله بن مسعود [٥] .

---

(١) قال علي المديني : هم اصحاب الحديث . هذا الحديث أورده رزين هكذا ، واخرج مسلم بعضه ، وهو مذكور في فضائل الامة « من كتاب الفضائل » . رواه مسلم في الامارة وابو داود رقم ٤٢٥٢ في الفتن والترمذي رقم ٢٢٠٣و ٢٢٢٠ و ٢٢٣٠ في الفتن .

(٢) انعام ١٥٧ .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم وابو داود .

(٤) يس : ٣٨ .

(٥) اخرجه الترمذي وهو حديث صحيح .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان ، يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة، وحتى يُبعث دجالون كذابون ، قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يُقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج — وهو القتل القتل — وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه ، فيقول الذي عرضه عليه . لا إرب لي فيه ، وحتى يتطاول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَتِه — أي ناقته — فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط[1] حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة ، وقد رفع أكلته[2] إلى فيه ، فلا يطعمها[3]) .

ولمسلم في رواية : أن رسول ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يخرج قريب من ثلاثين ، كلهم يقول : إنه نبي ، ولا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، ويؤمن الناس أجمعون ، فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ، فيفر اليهودي وراء الحجر ، فيقول يا عبد الله ، يا مسلم ، هذا يهودي ورائي ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر)

---

(١) لاط حوضه ويلوطه ليطا ولوطا : اذا لطخه بالطين واصلحه به — أي يطينه ويصلحه .

(٢) (اكلته) (الاكله) بضم الهمزة : اللقمة ، وفيه : فمه .

(٣) اخرجه البخاري .

٦ ـ الدابة والدخان

١ ـ الدابــة

يقول الله سبحانه (وإذا وقع القول عليهم أخرجنـــا لهم دابة من الأرض تـكلمهم ، أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) .

إن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة ، وحق القول على الباقين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك ، وإنما يقضي عليهم بما هم عليه .. عندئذ يُخرج الله لهم دابة تكلمهم .. والدواب لا تتكلم ، أو لا يفهم عنها الناس . ولـكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة . وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : حفظتُ من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الآيات خروجاً : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضُحى ، وأيها ما كانت قبل حاجتها ، فالأخرى على إثرها قريباً [١]) .

٢ ـ الدخـان

يقول الله سبحانه ـ : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس . هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولّوا عنه ، وقالوا : معلمٌ مجنون . إنا كاشفو العذاب قليلاً إنـكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) . قال بعض المفسرين : لم يمض الدخان بعد . بل هو من أمارات الساعة ، كما ورد في حديث أبي سريحة .

عن حذيفة ابن أسيد الغفاري رضي الله عنه ـ قال : أشرف علينا رسول الله

---

(١) اخرجه مسلم .

ﷺ من غرفة وكنا نتذاكر الساعة ، فقال ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات[1] : طلوع الشمس من مغربهـــا ، والدخان[2] والدابة [3] ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، والدجال . وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس

---

(١) أي عشر علامات . وقد جاءت العلامات العشر هنا معطوفا بينها بالواو ، والواو لمطلق الجمع ، فلا تفيد أنها ستقع بالترتيب المذكور هنا . وهذه الآيات كما قال الطيبي ــ رحمه الله تعالى ــ ونقله عنه الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١١ : ٣٠٣ ــ أمارات « وعلامات » للساعة اما على قربها ، واما على حصولها وقيامها ، فمن أمارات قربها : الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام ويأجوج ومأجوج ، والخسف ، ومن أمارات قيامها : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار التي تحشر الناس .

(٢) قال الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ أي كالرأس المشوي على الجمر . رواه ابن جرير في تفسيره ٢٥ : ٦٨ . وقد جاء تفسير « الدخان » بهذا المعنى عن عدد من أجلاء الصحابة . رفعه بعضهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي سعيد الخدري وأبي مالك الاشعري رضي الله عنهما ، ووقفه بعضهم ولم يرفعه كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عبـــاس رضي الله عنهما .

(٣) هي المعنية بقوله تعالى في سورة النمل : « واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣ : ٣٧٤ « هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عنـــد فساد الناس ، وتركهم أمر الله ، وتبديلهم الدين الحق ! يخرج الله لهم دابة من الارض فتكلم الناس على ذلـــك » . قـــال الآلوسي فـــي « روح المعـــاني » ٦ : ٣١٤ « أي تكلمهـــم بأنهـــم لا يتيقنـــون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها ، أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات . وقصارى ــ أي غاية ــ ما أقول في هذه الدابة أنها دابة عظيمة ذات قوائم ، ليست من نوع الانسان أصلا ، يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الارض ، وتخرج وفي الناس مؤمن وكافر .

ويدل على ذلك ما أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» ص ٣٣٤ ، وأحمد في «مسنده» ٢ : ٢٩٥ ، ٤٩١ ، والترمذي في « سننه » ١٣ : ٦٣ وحسنه ، وابن ماجه في «سننه» ٢ : ١٣٥١ واللفظ له ، عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تخرج الدابة ومعها خـــاتم سليمان بن داود ، وعصا موسى بن عمران، عليهما السلام، فتجلو وجه المؤمن ــ أي تنوره وتبيضه ــ بالعصا ، وتخطم أنف الكافر ــ أي تسمه وتجعل عليه علامة ــ بالخاتم ، حتى ان أهل الحواء ــ أي أهل الحي الذي يجمعهم ماء يستقون منه ــ ليجتمعون ، فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر » ثم قال الآلوسي : وهذا الخبر أقرب الاخبار المذكورة في الدابة للقبول » انتهى .

ـ أو تحشر الناس[1] ـ تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا[2]) .

---

(۱) أي تسوقهم الى مكان حشرهم وهو أرض بلاد الشام . وقد ثبت ذلك في عدة أحاديث أوردها الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ١١ : ٣٢٦ و ٣٢٨ ، قال رحمه الله تعالى :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة ، تحشر الناس ، قلنا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام » رواه الترمذي في سننه ۹ : ٦٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر ، رواه أحمد في « مسنده » ٢ : ٨ و ٥٢ و ٦٩ و ٩٩ و ۱۱۹ وابو يعلى .

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انكم محشورون ونحا بيده نحو الشام ، رجالا ـ أي مشاة ـ وركبانا ـ أي راكبين ـ وتجرون على وجوهكم » رواه الترمذي في « سننه » ۹ : ٢٥٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والنسائي وسنده قوي، وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الارض ألزمهم مهاجر ابراهيم ـ أي بلاد الشام ـ ويبقى في الارض شرار أهلها ، تلفظهم ارضوهم ، وتقذرهم نفس الله ـ اي يكره الله خروجهم الى الشام ومقامهم بها فلا يوفقهم لذلك فتحشرهم النار مع القردة والخنازير » . رواه ابو داود في « سننه » ٣ : ٤ والحاكم في « المستدرك » ٤ : ٥١٠ وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي في «تلخيص المستدرك».

وعن انس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول اشراط الساعة : نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب » . رواه البخاري في « صحيحه » ٦ : ٢٦١ . وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تبعث نار على أهل المشرق فتحشرهم الى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ـ من القيلولة وهي النوم في وقت الضحى ، والمراد أن النار تلازمهم فتكون معهم حيث كانوا في الليل والنهار ـ ويكون لها ما سقط منهم وتخلف ، وتسوقهم سوق الجمل الكسير » . أي تسوقهم ببطء . قال الهيثمي في مجمع الزوائد » ٨ : ١٢ : « رواه الطبراني في الكبير والاوسط ، ورجاله ثقات » .

وعن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « .. وآخر ذلك ـ أي وآخر العلامات الكبرى للساعة ـ نار تخرج من قعر عدن ، ترحل الناس الى المحشر » رواه مسلم في « صحيحه » ١٨ : ٢٨ وابو داود في « سننه » ٣ : ١١٥ .

ثم قال الحافظ ابن حجر : « ووجه الجمع بين هذه الاخبار أن كون النار تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها من المشرق الى المغرب » وذلك ان ابتداء خروجها من قعر عدن ، فاذا خرجت انتشرت في الارض كلها . والمقصود بقوله صلى الله عليه وسلم : « تحشر الناس من المشرق الى المغرب » . ارادة تعميم الحشر ، لا خصوص المشرق والمغرب ، واما جعل الغاية الى المغرب فلان الشام بالنسبة الى المشرق : مغرب انتهى بزيادة وتصرف .

(٢) اخرجه مسلم في صحيحه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة [1]) .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عوف ... عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن ربكم أنذركم ثلاثاً : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال [2]) .

وقال ابن جرير كذلك : حدثني يعقوب ... عن عبد الله بن أبي مليكة ، قال : غدوت على ابن عباس – رضي الله عنهما – ذات يوم ، فقال : ما نمتُ الليلة حتى أصبحت . قلت : لِمَ ؟ قالوا : طلعَ الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق . فما نمتُ حتى أصبحت [3]) .

= وقد تضمنت هذه الاحاديث بيان مكان خروج النار ، وبيان وقته خروجها ، وكيفية سوقها للناس ، ومنتهاها بهم . وجاء في حديث آخر بيان حال الناس حين يساقون الى المحشر في الشام.

روى البخاري في « صحيحه » ١١ : ٣٢٦ ومسلم في « صحيحه » ١٧ : ١٩٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يحشر الناس – أي الى الشام قبل قيام الساعة وهم أحياء – على ثلاث طرائق – اي على ثلاث أحوال – راغبين وراهبين ، واثنان على بعير ، – هذا معطوف على محذوف تقديره : واحد على بعير ، واثنان على بعير – وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير – أي انهم يتعاقبون على ركوب البعير الواحد ، فيركب بعضهم ويمشي بعضهم ، وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا » . أي تلازمهم كل الملازمة الى ان يصلوا الى مكان الحشر .

(١) وفي رواية مثله ، والجميع بواو العطف ، وفي آخره « وخويصة أحدكم » واخرجه مسلم . خويصة : تصغير خاصة الانسان وهي ما يخصه دون غيره ، وأراد به الموت الذي يخصه ويمنعه من العمل ان لم يبادر به قبله .

(٢) رواه الطبراني . وقال ابن كثير في التفسير وهذا اسناد جيد .

(٣) قال ابن كثير في التفسير (وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس – رضي الله عنهما – حبر الامة وترجمان القرآن .) وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم أجمعين – مع الاحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوهما مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة .

٧ - في قرب مبعث النبي ﷺ من الساعـة وخروج الكذابين، وخروج النار

١ – في قرب مبعث النبي ﷺ من الساعة

عن سهل بن سعـد رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا الوسطى والتي تلي الابهام، وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين [١]) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين ، كفضل احداهما على الأخرى ، وضم السبابة والوسطى[٢]) وفي رواية قال: (بعثتُ في نفس الساعة ، فسبقتها كفضل هذه على الأخرى) .

٢ – في خروج الكذابين

عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن بين يدي الساعة كذابين [٣]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يبعث كذابون دجالون[٤] ، قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله [٥]) . وفي رواية أبي داود (حتى يخرج ثلاثون دجالون كلهم يزعم أنه رسول الله) .

وفي أخرى : (حتى يخرج ثلاثون كذاباً ، كلهم يكذب على الله ورسوله) .

(١،٢) أخرجه البخاري ومسلم .

(٣) اخرجه مسلم .

(٤) ليس المراد بالبعث الارسال المقارن للنبوة ، بل هو كقوله تعالى : « انا ارسلنا الشياطين على الكافرين » ، وليس المراد ايضا من ادعى النبوة مطلقا ، فانهم لا يحصون كثرة ، لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء ، وانما المراد من قامت له شوكة وبدت لهم شبهة .

(٥) اخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٣ ـ خروج النار قبل الساعة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء أعناق الابل ببصرى[١]) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ستخرج نار من حضرموت ـ أو من بحر حضرموت ـ قبل القيامة تحشر النـــاس ، قالوا : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام[٢]) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أول أشراط الساعة : نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب[٣]) .

٨ ـ أشراط متفرقة

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الانسَ ، وحتى تكلم الرجل عَذبةُ[٤] سوطه وشراك نعله ، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده[٥]) .

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس لُكع[٦] بن لكع[٧]) .

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم .

(٢) اخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) عذبة سوطه : السير المعلق في طرفه .

(٥) اخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٦) (لكع بن لكع) اللكع عند العرب : العبد ، وقيل : هو اللئيم ، وقيل : هو الوسخ القذر .

(٧) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يقوم رجل من قحطان يسوق[1] الناس بعصاه[2]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (بينا رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم ، إذ جاءه أعرابي ، فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه ، فقال بعض القوم : سمع ما قال ، فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه ، قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا ذا يا رسول الله ، قال : إذا ضُيِّعتِ الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسِّد[3] الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة[4]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تذهب الليالي والأيام حتى يملك رجل من الموالي ، يقال له : الجهجاه) وفي نسخة : « الجهجل[5] » .

عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (يكون خليفة من خلفائكم في آخر الزمان ، يحثو المال ولا يعدُّه[6]) .

عن نافع بن عتبة بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فأتى النبي ﷺ قوم من قِبَل المغرب عليهم ثياب الصوف ، فوافقوه عند أكمة[7] ، فانهم لَقيام ورسول الله ﷺ قاعد ، قال : قالت لي نفسي : ائتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه[8] ، قال : ثم قلت : لعله نجي[9] معهم ، فقمت بينهم وبينه ،

---

(١) (يسوق الناس بعصاه) لم يرد العصا نفسها ، وانما ضربها مثلا لطاعتهم ، واستيلائه عليهم ، الا ان في ذكرها دليلا على ذلك ، وعلى خشونته عليهم وعسفه بهم .

(٢) اخرجه البخاري ومسلم .

(٣) (وسد الامر الى غير أهله) اذا اسند اليه ، هذا كناية عن استقامة الناس وانقيادهم اليه واتفاقهم عليه .

(٤) أخرجه البخاري .

(٥ ، ٦) أخرجه مسلم .

(٧) الاكمة : الرابية ، والموضع المرتفع من الارض .

(٨) الاغتيال : هو ان يؤخذ الانسان بغتة من حيث لا يشعر .

(٩) (النجي) : المناجي وهو المسارر .

قال : فحفظت منه أربع كلمات أعدهن في يدي ، قال : تغزون جزيرة العرب ، فيفتحها الله ، ثم فارس ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله ، قال : فقال نافع : يا جابر — هو جابر بن سمرة — لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم(١)) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ويفيض ، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله ، فلا يجد أحداً يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهارا (٢)) .

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (من حديث جبريل حين أتى النبي ﷺ إلى قول النبي ﷺ لجبريل) : (فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها . قال : أن تلدَ الأمةُ ربّتها (٣) ، وأن ترى الحفاة العراة ، العالة ، رعاء(٤) الشاء يتطاولون في البنيان (٥)) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد (٦)) .

وعند النسائي قال : (من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد) .

(١ ، ٢) اخرجه مسلم .

(٣) ربتها ، ربها : الرب ، السيد والمالك ، وهي الامة تلد للرجل فيكون ابنها مولى لها ، وكذلك ابنتها ، لانها في الحسب كابيها . والمراد ان السبي يكثر ، والنعمة تفشو في الناس وتظهر .

(٤) الرعاء : جمع راع ، والشاء ، جمع شاة .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه ابو داود واسناده صحيح .

الباب الرابع

الأهوال في الكون يوم القيامة

١ ـ نفخة الصور

إن الحكمة تقتضي أن يكون هناك يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم في الأرض ، ومن كل قربى وآصرة ، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم .. (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم) .

هناك يتلقون جزاء ما عملت أيديهم ، لا ينصرهم أحد ولا يرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القـــادر الرحيم العطوف الذين خرجوا من يده ـ سبحانه ـ ليعملوا ، وعادوا إلى يده ـ سبحانه ـ ليتسلموا منه الجـــزاء . وما بين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للعمل ومجال للابتلاء . أما يوم القيـامة فهناك قد قُضي الأمر وعادت الأمور إلى الله (وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور) .. وطوي الزمان ، وأفلتت الفرصة ، وعزت النجاة ، ووقفوا وجهاً لوجه أمام الله الذي ترجع إليه وحده الأمور .. فإلى متى يتخلف المتخلفون عن الايمان والاسلام ، وهذا الفزع الأكبر

ينتظرهم ؟ بل هذا الفزع الأكبر يدهمهم . والسيلم منهم قريب . السلم في الدنيا والسلم في الآخرة يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) . ويوم يُقضى الأمر .. (وقد قضي الأمر) .. (وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) . ففي هذا اليوم يوم الحشر .. يوم ينفخ في الصور (هو القرن المجوف كالبوق) وهو اليوم الذي يكون فيه البعث والنشر ، بكيفية غيبية لا يعلمها البشر ، فهي من غيب الله الذي احتفظ به .

والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته ، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له ، والروايات المأثورة تقول : هو بوق من نور ينفخ فيه ملك ، فيسمع من في القبور حيث يهبون للنشور — وهذه هي النفخة الثانية ، أما الأولى فيصعق لها من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر : (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ .. .(ما بين النفختين أربعون) قيل أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة : أبيتُ ، قالوا : أربعون شهراً ، قال : أبيتُ ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيتُ ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الانسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجْبُ الذّنب ، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة [١]) .

هاهي ذي الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من أحياء ومن في السموات كذلك — إلا من شاء الله — فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لتقوم الساعة وثوبها بينهما لا يبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف بلبن لقحته لا يطعمه ، ولتقوم الساعة يلوط [٢] حوضه

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) لاطه : بمعنى قدره أي طينه لئلا يتسرب منه الماء .

لا يسقيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع لقمته إلى فيه لا يطعمها[1]) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس ، فلا تزال ترتفع في السماء وتنتشر حتى تملأ السماء ، ثم ينادي منادٍ : يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه) . قال رسول الله ﷺ : (فوالذي نفسي بيده إن الرجلين ينشران الثوب فلا يطويانه ، وإن الرجل ليمْدُرُ حوضه فلا يسقي منه شيئاً أبداً ، والرجل يحلب ناقته فلا يشرب أبداً[2]) .

وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا عن يقين ـ أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض ، أو تصوروه .. وهو من ثم غيب من غيب الله .. نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وآثاره ، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ، ولا يقين ، إنما هي الظنون ، وفي هذا اليوم الذي ينفخ فيه الصور يبرز ـ حتى للمنكرين ـ ويظهر حتى للمطموسين ـ أن الملك لله وحده ، وأنه لاسلطان إلا سلطانه ، ولا إرادة إلا إرادته . فأولى لمن يأبون الاستسلام له في الدنيا طائعين أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ في الصور .. (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً) .

مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض . ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج .. ثم إذا نفخة التجمع والنظام (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً) فإذا هم في الصف في نظام .

ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ،

---

(١) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه .

(٢) رواه الطبراني باسناد جيد . ورواته ثقات .

ولكأن في أسماعهم صمماً .. إذا بهؤلاء تُعرض عليهم جهنم فلا يُعرِضون عنها كما كانوا يعرِضون عن ذكر الله . فما يستطيعون اليوم إعراضاً . لقد نزع الغطاء عن عيونهم فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقا . وفي ذلك اليوم تتضاءل أيام الحياة الدنيا ، وتتكشف الأرض من جبالها وتعرى ، وتخشع الأصوات للرحمن ، وتعنو الوجوه للحي القيوم .. (وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا . خالدين فيه ، وساء لهم يوم القيامة حملا . يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) .

هؤلاء المجرمون يحملون أثقالهم كما يحمل المسافر أحماله . ويا لسوئها من أحمال ! فإذا نفخ في البوق للتجمع فالمجرمون يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم . يتخافتون بينهم بالحديث ، لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول ، ومن الرهبة المخيمة على ساحة الحشر . وفيمَ يتخافتون ؟ إنهم يحدسون عما قضوا في الأرض من أيام . وقد تضاءلت الحياة الدنيا في حسهم وقصرت أيامها في مشاعرهم . فليست في حسهم سوى أيام قلائل (إن لبثتم إلا عشرا) وأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر (إن لبثتم إلا يوما) ، وهكذا تنزوي تلك الأعمار التي عاشوها على الأرض وتنطوي ، ويتضاءل متاع الحياة وهموم الحياة ، ويبدو ذلك كله فترة وجيزة في الزمان ، وشيئاً ضئيلاً في القيمة . فما قيمة عشر ليال ولو حفلت باللذائذ كلها وبالمتاع ؟ وما قيمة ليلة ولو كانت دقائقها مليئة بالسعادة والمسرة . ما قيمة هذه أو تلك إلى جانب الآماد التي لانهاية لها ، والتي تنتظرهم بعد الحشر وتمتد بهم بلا انقطاع ، وهناك تتقطع الروابط وتسقط القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) . وشملهم الهول بالصمت فهم ساكنون لايتحدثون ولا يتساءلون .

ليست هناك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الاخلاص . (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) . اخلاص القلب كله لله وتجرده من كل شائبة

ومن كل عرض ومن كل غرض ، وصفائه من الشهوات والانحرافات ، وخلوه من التعلق بغير الله ، فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً (يوم لا ينفع مال ولا بنون) ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير ، فماذا ينتظرون . (ما ينظرون إلا صيحةواحدة تأخذهم وهم يخصّمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . هذاماوعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون) .

إنه مشهد خاطف سريع ، صيحة تصعق كل حي ، وتنتهي بها الحياة والأحياء فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة ، لايتوقعونها ولايحسبون لها حساباً . فاذا هم منتهون . كل على حاله التي هو عليها . لا يملك أن يوصي بمن بعده ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة ، وأين هم ؟ إنهم مثله في أماكنهم منتهون. ثم ينفخ في الصور فاذا هم ينتفضون من القبور ، ويمضون سراعاً ، وهم في دهش وذعر يتساءلون (من بعثنا من مرقدنا) ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً ، فيدركون ويعرفون. هذا ما وعد الرحمن . ثم إذا الصيحة الأخيرة ، صيحة واحدة ، فاذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش ، يثوب ، وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع (فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) . وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب . وقد قال رسول الله ﷺ (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ) فكان ذلك ثقل على أصحابه فقالوا : كيف نفعـــل يا رسول الله ؟ قال : (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا[1]) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن عن أبي سعيد رضي الله عنه ، وابن حبان في صحيحه ، ورواه احمد .

فقال : ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه [1]) .

نحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق ، وتحدث بعدها الأحداث وهي غيب (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) . والصور البوق ينفخ فيه ، وهذه هي نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السموات ومن في الأرض . إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . وفيها يصعق كل حي في السموات والأرض إلا من شاء الله ، (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) . يوم ينفخ في الصور فيصعقون قبيـــل البعث والنشور يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفي هذه يحشر الجميـع وكلهم أتوه أذلاء مستسلمين . (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير) .

هذه الخلائق التي غبرت في تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة . تشقق القبور التي لا تحصى ، والتي تعاقب فيها الموتى كلها تشقق ، وتنكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو هائلة في مسارب الأرض ، لا يعرف مقرها إلا الله . ويصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها (فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة) . فيتبـع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة . ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوي عاليها بسافلها . ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية رتمر كأنها السحاب في خفته وسرعته وتناثره . ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ، وكأنما الجبال مذعورة من المذعورين ، مفزوعة من المفزوعين هائمة مع الهائمين الحائرين المنطلقين بلا وجهة ولا قرار .

مشهد مروع حقاً ، هذه الأرض التي يجوس الانسان خلالها آمناً مطمئناً ، وهي تحته مستقرة مطمئنة . وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الانسان بروعتها

---

(1) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه .

واستقرارها . هذه مع هذه تُحمل فتدك كالكرة في يد الوليد . إنه مشهد يشعر معه الانسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، في ذلك اليوم العظيم فاذا وقع هذا ، إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، فهو حينئذ الأمر الهائل . الواقعة لا بد أنها واقعة ، كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة .

إن هذه النصوص التي تشير إلى الأحداث الكونية في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور ، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس ، ونكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة ، من خلال النصوص القرآنية الجازمة ، وهي نصوص مجملة توحي بشيء عام ، وهذه النصوص هي عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن ، لأنها صادرة من صاحب الشأن ، الذي خلق ، والذي يعلم ما خلق علم اليقين . نكاد نشهد الأرض وهي تحمل بجبالها بكتلها هذه ، الضخمة بالقياس الينا ، الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون فتدك دكة واحدة ، ونكاد نشهد السماء وهي مشققة والكواكب وهي متناثرة منكدرة كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية ، المشخصة بكامل قوتها كأنها حاضرة .

إن الناس لم يُخلقوا عبثاً ، ولن يتركوا سدى . والذي قدر حياتهم هذا التقدير ، لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملاً ، ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثم يذهبون في التراب ضياعاً ، ويهتدون في الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيراً واحداً ، ويعدلون في الأرض أو يظلمون ، ثم يذهب العدل والظلم جميعاً .

إن هنالك يوماً للحكم والفرقان والفصل في كل ما كان (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود ، وهو يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون وينفرط فيه عقد هذا النظام . (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً وفتحت السماء فكانت أبواباً . وسيّرت الجبال فكانت سرابا) . والصور — كما قلنا — هو البوق . ونحن لا ندري عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه ونحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التي يأتي بها الناس أفواجاً .

نتصور هذا المشهد والخلائق التي توارت شخوصها جيلًا بعد جيل ، وأخْلت وجه الأرض لمن يأتي بعدها كي لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود .. نتصور مشهد هذه الخلائق جميعها .. أفواجاً .. مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون ونتصور الأجداث المبعثرة وهذه الخلائق منها قائمة ، ونتصور الجموع الحاشدة لا يعرف أولها آخرها . ونتصور هذا الهول الذي تثيره تلك الحشود التي لم تتجمع قط في وقت واحد وفي ساعة واحدة إلا في هذا اليوم .. أين ؟ لا ندري .. ففي هذا الكون أحداث وأهوال جسام .. وهو يوم عسير .. عسر كله (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) والنقر في الناقور ، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور ، ولكن التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه ، كأنه نقرٌ يصوّت ويدوي . والصوت الذي ينقر الاذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الأذان .. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين ، ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل لليسر فيه .. فهو عسر كله ، عسر لا يتخلله يسر .. إنه أمر يوحي بالاختناق والكرب والضيق . فما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير ، قبل أن ينقر في الناقور ، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير .. إنه نذير الله (ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالاً ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيدَ كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا) .

خلّ بيني وبين هذا المخلوق الذي خلقته وحيداً مجرداً من كل شيءآخر مما يعتزّ به من مال كثير ممدود وبنين حاضرين شهود ، ونعم يتبطر بها ويختال . خلّ بيني وبينه . فأنا سأتولى حربه .. وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حدّ لها ، قوة الجبار القهار ، لتسحق هذا المخلوق المضعوف المسكين الهزيل الضئيل ! وهي الرعشة التي يطلقها النص القرآني في قلب القارىء والسامع الآمنين بها . فما بال الذي تتجه إليه وتواجهه .

في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين

أحسنوا في الحياة الدنيا ، فوق ما ينـــالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر (من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزع يومئذ آمنون) والأمن من هذا الفزْع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنّة . ولقد خافوا الله في الدنيـا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة بل أمّنهم يوم يفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) وهو مشهد مفزع وهم يكبون في النار على وجوههم ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ . لقد تنكبوا عن الهدى وأشاحوا عنه بوجوههم ، فهم يجزون به كباً لهذه الوجوه في النار .

٢ ــ الأهوال في الكون يوم القيامة

آ ــ احوال الارض والجبال

أمور هائلة رهيبة تحدث يوم القيامة ، قلّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ويبرز اسم القيامة في القرآن : القارعة ، القيامة ، الطامة ، الصاخة ، الغاشية ، الحاقة ، وهذه بأسمائها ولفظها وجرسها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار ، ويبرز مشهد القيامة المروع ، وفي نهاية الكون الرهيبة ، ومشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هي تخايل للحس ، وتقرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهول والكآبة . ومن ذا الذي يسمع (وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة)ولا يسمع حسه القرقعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة ! ومن ذا الذي يسمع (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة .

إنها القارعة التي توحي بالقرع واللطم ، فهي تقرع القلوب بهولها ، إنه مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس في ظله صغاراً ضئالاً على كثرتهم : فهم كالفراش المبثوث (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له

هدفاً ! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام .. (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً) ويتجلى المشهد الرهيب فإذا الجبـال الراسية الراسخة قد نسفت نسفاً وإذا هي قاع بعد ارتفاع .

القارعة .. ما القارعة . إن هذه الكلمة كالقذيفة تلقي بظلها وجرسها الايحاء المدوي الموهوب ثم أعقبها سؤال التهويل ما القارعة .. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل .. وهي أكبر من أن يحيط بها الادراك وأن يلم بهـا التصور ، ثم الاجابة بما يكون فيها لا بماهيتها . فماهيتها فوق الادراك والتصور ، إنه مشهد تطير له القلوب شعاعاً ، وترتجف منه الأوصال ارتجافاً . ويحس السامع كأنّ كل شيء يتشبث به في هذه الأرض قد طار حوله هباء ، ثم تجيء الخاتمة للناس جميعاً . فمن ذا الذي لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع (والمَلَكُ على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

إنه يوم القيامة (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) . إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء .

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء (١) كقرصة النقي (٢) ليس فيها علمٌ لأحد) وفي رواية (ليس فيها معلمٌ لأحد (٣)) .

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً وتزلزل زلزالاً ، وتنفض ما في جوفها نفضاً ، وتخرج ما يثقلها من أجساد وغيرها مما حملته طويلاً (وأخرجت الأرض أثقالها) وكأنها تتخفف من هذه الأثقال التي حملتها طويلاً ! وهو مشهد يهز كل شيء

---

(١) العفراء : هي البيضاء ليس بياضها بالناصع .

(٢) النقي : الخبز الابيض .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

ثابت ، والأرض تهتز وتمور ! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض وتحسبه ثابتاً باقياً . ويرى الانسان ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت (وقال الانسان مالها) مالها ؟ ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجاً ؟ مالها ؟ وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ، ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته ، وكل ما حوله يمور موراً شديداً ! . والانسان قد شهد الزلازل والبراكين من قبل وكان يصاب منها بالهلع والذعر والهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لا عهد للانسان به . أمر لا يعرف له سراً ، ولا يذكر له نظيراً ! أمر هائل يقع للمرة الأولى . يومئذ .. يوم يقع هذا الزلزال ، ويشدَه أمامه الانسان ، يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها (يومئذ تحدث أخبارها) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : (يومئذ تحدث أخبارها) قال أتعرفون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنَّ أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمَةٍ بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا [1]) .

يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها ، لقد كان ما كان لها (بأن ربك أوحى لها) وأمرها أن تمور موراً ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها (وأذنت لربها وحُقَّت) تحدث أخبارها (وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحُقَّت) .

لقد تخلت الأرض عما فيها من تلك الخلائق التي لا تحصى ، والتي طوتها الأرض في أجيالها التي لا يعلم إلا الله مداها . وقد حملت حملها هذا أجيالاً بعد أجيال ، وقروناً بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم : ألقت ما فيها وتخلت واستجابت لأمر ربها مستسلمة مذعنة معترفة أن هذا حق عليها ، وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها .

وهذا الانسان مشدوه مأخوذ ، يلهث فزعاً ورعباً ، ودهشة وعجباً واضطراباً

(١) رواه ابن حبان في صحيحه .

ومورا .. يرى الجبال وهي تسير (وإذا الجبال سيِّرت) ، هذه الجبال وقد نسفت وبُسَّت ورآها ذرات في الهواء (وبسّت الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) (يسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً) ، (وسيرت الجبال فكانت سراباً) .

هذه كلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال ، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض ، والذي يقول عنه القرآن (إذا زلزلت الأرض زلزالها) .

هنا والانسان لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل ما لها ؟ ما لها ؟ هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء . ويقف جبريل عليه السلام والملائكة صفاً بين يدي الرحمن خاشعين . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن في الموقف المهيب الجليل . (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) .

في ذلك اليوم المهيب الرهيب . يوم يقف جبريل عليه السلام والملائكة الآخرون صفاً لا يتكلمون إلا بإذن الرحمن حيث يكون القول صواباً . فما يأذن الرحمن به إلا وقد علم أنه صواب . وموقف هؤلاء المقربين إلى الله ، الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن وحساب ، يُلقي في النفس الرهبة والفزع من ذلك اليوم .

ب ــ أحوال السماء يوم القيامة

في يوم القيامة سيكون مشهد الانقلاب التام لكل معهود . والثورة الكاملة لكل موجود . الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور ، ويُعلم كل مجهول ، وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب . وكل شيء من حولها عاصف . وكل شيء من حولها مقلوب ! . وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير إلى أن هذا الكون الذي نعهده الموزون الحركة ، المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبني بأيدٍ وإحكام . إن هذا الكون سينفرط عقد نظامه ، وتتناثر أجزاؤه ،

وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها ، وينتهي إلى أجله المقدر ، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائياً في هذا الكون المعهود . وهذا ما تستهدف إليه آيات القرآن الكريم في المشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة — مهما بدت لها ثابتة — وتتصل بالحقيقة البـاقية .. حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول ، حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول . ولكي تنطلق من إسار المعهود المألوف في هذا الكون المشهود .. إلى الحقيقة المطلقة التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس ، ولا مظهر من المظاهر التي تقيدها في ظرف أو إطار محدود .

إنه انقلاب مرهوب فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات ، فعلمها عند الله ، وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا وتصوراتنـا المقيدة بمألوف حسنا وتفكيرنا ، وأكبر مما نعهده من الانقلابات هو أن ترتجف بنا الأرض في زلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جائح ، أو ينقض على الأرض شهاب صغير ، أو صاعقة .. وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء ، كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال ، وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة ، تسليات أطفال ، ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها ، ومن آيات القرآن الكريم في ذلك : (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) ومنها (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) ومنها (إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت) ومنهـا (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقّت وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحُقّت) ومنها (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) .

هذه الآيات وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله . فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئاً عن حقيقة ما يجري

للكائنات ، فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة ! إن تكوير الشمس قد يعني برودتها ، وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء ، كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف ، استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض ، وتكور، لا ألسنة لها ولا امتداد (إذا الشمس كورت) قد يكون هذا وقد يكون غيره ، أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

أما السماء فستزال (وإذا السماء كشطت) وكشطها إزالتها ، ونتصور أن ينظر الانسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه الأوضاع الكونية التي توجد بها هذه الظاهرة ، حيث تشقق السماء وتصبح وردة حمراء سائلة كالدهان (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) السماء المبنية المتينة فهي منشقة ، منفرجة على هيئة لا عهد لنا بها (وفتحت السماء فكانت أبواباً)

إنه الهول البادي في انقلاب الكون المنظور ، كالهول البادي في الحشر بعد النفخ في الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتدبير .. (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر) فالبصر يخطف ويتقلب سريعاً سريعاً تقلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره . والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق . ويختل نظامها الفلكي المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكوني الدقيق .

إن عذاب الله واقع فعلاً ، لأنه كان في تقدير الله من جهة ، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى . وأن أحداً لا يمكنه دفعه ولا منعه (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع) وهذا العذاب للكافرين هو واقع من الله ، إن قضاءه أمرٌ علويٌ نافذٌ لا مردٌ له ولا دافع . هذا اليوم هو من الناس قريب ولكنهم يستبعدونه . ولكن تقدير الله غير تقدير البشر ، ومقاييسه غير مقاييسهم (تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلا. إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) .

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوي خمسين ألف سنة ، فان عذاب يوم القيامة قد يرونه بعيداً ، وهو عند الله قريب ، يوم تبـــدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجاة بياضاً ، ويظهر هـــذا وذاك في سيما الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران . (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ،وفي وسط هذا الذعر والانقلاب يتساءل الانسان المرعوب (أين المفر) ؟ ويبدو في سؤاله الارتياع والفزع ، وكأنما ينظر في كل اتجاه ، فاذا هو مسدود دونه مأخوذ عليه ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة اليه ، والمستقر عنده ، ولا مستقر غيره ، (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر) ، وما كان يرغب فيه الانسان من المضي في الفجور بلاحساب ولا جزاء ، لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوباً ، وسيُذكر به إن كان نسيه ،ويؤخذبه بعد أن يذكره ويراه حاضراً (يُنبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيراً أم شراً . فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثاراً تضاف لصاحبها في ختام الحساب . ومهما اعتذر الانسان بشتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منه عذر ، لأن نفسه موكولة اليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها فاذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها ، (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) . ثم يظهر معالم الأعمال الشقية سواداً ، ومعالم الأعمال الرضية بياضاً ، ويظهر هـــذا وذاك في سيما الوجوه (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) . وهو مشهد عنيف ، ومع العنف الهوان حيث تجمع الأقدام إلى الجباه . ثم يُقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار ، فهل حينئذ من تكذيب أو نكران ؟

٣ ـ يوم الحشر

إن القضية ، قضية القيامة التي أكدها القرآن الكريم بشتى المؤكدات في مواضع منه شتى ، وكانت عنايته بتقرير هـــذه القضية في عقولهم ، وإقرار حقيقتها في قلوبهم

مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها ، ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعا . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السماوية ، كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الانسانية . واليه مرد كل شيء في هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها ، ومن ثم اقتضت هـــذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول . وإن اختلال الموازين وايثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى . فمن هذا الايثار ينشأ الاعراض عن الذكرى ، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثرونها . وهم يريدون الدنيا ويؤثرونها . (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) ، وتسميتها الدنيا لا تجيىء مصادفة ، فهي الواطية الهابطة ، إلى جانب أنها الدانية العاجلة — إن هؤلاء القريبي المطامح والاهتمامات الصغار المطالب والمطالب (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلًا) هؤلاء الصغـــار الزهيدة الذين يستغرقون في العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلًا ، ثقيلًا بتبعاته ، ثقيلًا بنتائجه ، ثقيلًا في وزنه بميزان الحقيقة . إنهم يختارون العاجلة ويذرون اليوم الثقيل الذي ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير بعد الحساب العسير والظلال التي نراها في يوم القيامة هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة ، إنها ظلال للتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام . فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

إن الله ينادي الناس جميعاً إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ، ويصف الهول المصاحب لها . وهو هول عنيف مرهوب ، إنه مشهد عنيف رعيب ، ومشهد ترتجف له القلوب ، يدعوهم القرآن إلى الخوف من الله ، ويخوفهم ذلك اليوم العصيب مشهد الزلزلة وهو شيء عظيم ، فاذا الرهبة تشتد من الهول ، إذاً هو مشهد حافل بكل

مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، تتحرك ولا تعي . وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع الذي ينتابها ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتاوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتملاه ، والهول شاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية ، في المرضعات الذاهلات عما أرضعن — وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي — والحوامل الملقيات حملهن ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . إنه مشهد عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يُحشر الناس حفاة عراة غرلا (١) قالت عائشة : فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم الى بعض ؟ قال : والأمر أشدُّ من أن يُهمَّهم ذلك ، وفي رواية أن ينظر بعضهم الى بعض (٢)) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلا) وفي رواية قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : (ياأيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) ألا وإن أول الخلائق يكسى ابراهيم عليه السلام ، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا ربِّ أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ! فأقول كما قال العبد الصالح : (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم — إلى قوله العزيز الحكيم) . قال : فيقال لي : إنهم ما يزالون مرتدين

---

(١) غرلا : الغرلة : القلفة التي تقطع من جلدة الذكر ، وهو موضع الختان .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه .

على أعقابهم منذ فارقتهم) زاد في رواية : (فأقول سُحقاً [1] سحقاً [2]) .

وفي أخرى للترمذي أن النبي ﷺ قال : (تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فقالت إمرأة : أيُبصر – أو يرى – بعضنا عورة بعض ؟ قال : يا فلانة (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة ، فقالت أم سلمة : فقلت يا رسول الله ، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ، فقال : شُغِلَ الناس ، قلت : ما شغلهم ؟ قال : نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل الخردل [3]) .

وعن سودة بنت زمعة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان ، فقلت : يبصر بعضنا بعضاً ؟ فقال : شغل الناس (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه [4]) .

إنه مشهد عنيف رعيب .. مشهد هذا اليوم المخيف (يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا) الأرض ترجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهازيل الضعاف . إنها تهز القلوب هزاً ، وتخلعها خلعاً .. (فكيف تتّقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به . كان وعده مفعولا) . وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء ، ورجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان .. إن هذا الوعد واقعاً لا خلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان .

إن كثير من آيات القرآن يقرر أن أحداثاً فلكية ضخمة ستتم في ذلك اليوم . وكلها تشير إلى اختلال كامل في النظام الذي يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه

(١) سحقا : اي بُعدا .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه الطبراني في الاوسط باسناد صحيح .

(٤) رواه الطبراني ورواته ثقات .

ونجومه . وإلى انقلاب في أوضاعه وأشكاله وارتباطاته ، تكون به نهاية هذا العالم . وهو انقلاب لا يقتصر على الأرض ، إنما يشمل النجوم والكواكب والأفلاك . ولا بأس من استعراض مظاهر هذا الانقلاب كما جاءت في سور متعددة (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيّرت .. وإذا البحار سجّرت) (إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجّرت وإذا القبور بعثرت) .. (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقّت . وإذا الأرض مدّت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحُقّت) .. (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) .. (إذا رجت الأرض رجاً وبُسّت الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) .. (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) .. (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) .. (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) .. (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) .. (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) .. (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا) .. (السماء منفطر به) .. (إذا دكت الأرض دكاً دكاً) .. (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) .. (فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت وإذا الجبال نسفت) .. (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمتا) .. (وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهي تمرُّ مرَّ السحاب) .. (ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة) .. (يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات) .. (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) .. (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا) .

فهذه الآيات كلها تنبىء بأن نهاية عالمنا هذا ستكون نهاية مروعة ، ترج فيها الأرض وتُدك ، وتنسف فيها الجبال ، وتتفجر فيها البحار إما بامتلائها من أثر

الاضطراب وإما بتفجر ذراتها واستحالتها ناراً . كذلك تطمس فيها النجوم وتنكدر وتشقق فيها السماء وتنفطر ، وتتحطم فيها الكواكب وتنتثر ، وتختل فيها المسافات فيجمع الشمس والقمر ، وتبدو السماء مرة كالدخان ومرة ملتهبة حمراء .. الى آخر هذا الهول الكوني الرعيب .. وكان يوماً على الكافرين عسيرا بما فيه من هول وبما فيه من عذاب .

لقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكوني في سور شتى من القرآن ، وكلها توحي بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، انفراطاً مصحوباً بقرقعة ودَوِيّ وانفجارات هائلة ، لا عهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التي يستهولونها ويروّعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق .. وما إليها .. فهذه أشبه شيء — حين تقاس بأهوال يوم الفصل — بلعب الأطفال التي يفرقعونها في الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشري على الاطلاق .

إنها صورة مروعة مفزعة حين تقع هذه الواقعة (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة) وانها لتخفض أقداراً كانت رفيعة في الأرض ، وترفع أقداراً كانت خفيضة في دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ، ثم تستقيم في ميزان الله .

إن هول ذلك اليوم يتبدى في كيان هذه الأرض ، الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج الأرض رجاً ، ويبس الجبال بساً ويتركها هباء منبثاً . وما أجهل الذي يتعرضون له وهم مكذّبون بالآخرة ، مشركون بالله ، وهذا أثره في الأرض والجبال . (أفمن يلقى في النار خيرٌ أم من يأتي آمناً يوم القيامة . اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) إنها تزلزل الكيان البشري ، وتهول الحس الانساني . هنالك الكل مجموعون الى الله خاضعين طائعين (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدّهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) .

إن كل من في السموات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً، فلا ولد ولا شريك انما خالق وعبيد .. وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان (لقد أحصاهم وعدهم عداً) فلا مجال لهرب أحد ، ولا نسيان لأحد ، فعين الله على كل فرد وكل فرد يقوم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديّان (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يخرق صماخ الأذن صاخاً ملحاً ، ومشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به . أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقاً ، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً . فالهول يفزع النفس ويفصلها عن محيطها ، ويستبد بها استبداداً . فلكل نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهم الخاص به ، الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد (لكل امرىء يومئذ شأن يغنيه) .

فهاهي ذي الساعة التي يغفل عنها الغافلون ويكذب بها المكذبون . هاهي ذي تجيء ، أو هاهي ذي تقوم ! (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) وهؤلاء المجرمون حائرين يائسين ، لا أمل لهم في النجاة ، ولا رجاء لهم في خلاص ، ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم في الحياة الدنيا ضالين مخدوعين ! هؤلاء حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع . ثم هاهم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم في الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين ثم هاهو ذا مفرق الطريق بين المؤمنين والكافرين . المؤمنين يتلقون فيها ما يُفرح القلب ويسر الخاطر ويسعد الضمير ، والذين كفروا في العذاب محضرون باقون (إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) انكم في يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره ، فلستم بفلتين أو مستعصين ، ويوم الحشر ينتظركم ، وانه لآت لاريب فيه ولن تفلتوا يومها ،

ولن تعجزوا الله القوي المتين . فمن كفر فسيلاقي جزاءه ، ومن عمل صالحاً فقد مَهّد لنفسه الراحة في ذلك اليوم العسير (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لامَرَدّ له من الله يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) ويمهد معناها يُمهّد ويُعَبّد ، ويُعد المهد الذي فيه يستريح ويهيىء الطريق أو المضجع المريح لذلك اليوم ، يوم يجمع الله فيه جميع الخلائق (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) .

فأما أنه يوم الجمع فلأنّ جميع الخلائق في جميع الأجيال تُبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله ، ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله ﷺ — عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إني أرى مالاترون ، واسمع مالا تسمعون ، أطّت [1] السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم الى الصُعدات [2] تجأرون [3] الى الله تعالى . لوددت أني شجرة تعضد [4]) والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك . هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدوداً . والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائرة في الفضاء ! فهل هذا يقرب شيئاً للتصور البشري عن عدد الملائكة ؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع ! وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغبن ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيرورتهم الى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء ،

(١) أطت : من الاطيط : وهو صوت القتب والرحل ونحوهما اذا كان فوقه ما يثقله ، ومعناه أن السماء من كثرة ما فيها من الملائكة العابدين اثقلها حتى أطت .

(٢) الصعدات : الطرقات .

(٣) تجأرون : تضجون وتستغيثون .

(٤) رواه البخاري باختصار ، والترمذي والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد .

وليغبن كل فريق مسابقة ! ففاز المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك .

وهناك يتضاءل في حس الكافرين كل ما وراءهم قبل هذا اليوم ، فيقسمون : ما لبثوا غير ساعة (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) .. ويحتمل أن يكون قسمهم منصباً على مدة لبثهم في القبور ، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم في الأرض أحياء وأمواتاً ..

ننظر فإذا الحياة التي تزحم في حسهم وتشغل نفوسهم ، وتأكل اهتماماتهم ، رحلة سريعة ، قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) في هـذا المنظر ، المحشورون مأخذون بالمفاجأة ، شاعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة قصيرة ، حتى لكأنها ساعة من نهار قضوها في التعارف ، هذه هي الحياة الدنيا ، والناس قد دخلوا ثم خرجوا ، كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف .

إنه لتشبيه ولكنه حق اليقين .. إنه لتشبيه لتمثيل قصر الحياة الدنيـا ولكنه يصور حقيقة أعمق فيما يكون بين الناس في هذه الحياة .. ثم يرحلون !

وتبدو الخسارة الفادحة لمن جعلوا همهم كله هو هذه الرحلة الخاطفة . وكذبوا بلقاء الله ، وشُغلوا عنه واستغرقوا في تلك الرحلة — بل تلك الومضة — فلم يستعدوا لهذا اللقاء بشيء يلقون به ربهم ، ولم يستعدوا كذلك للاقامة الطويلة في الدار الباقية .

في يوم القيامة تتضاءل الحياة الدنيـا . وترى المجرمين يتخافتون بينهم الحديث ، انهم يحدسون عما قضوا في الأرض من أيام . وقد تضاءلت فليست في حسهم سوى أيام قلائل (يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا) فأما أرشدهم وأصوبهم رأياً فيحسونها أقصر وأقصر (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً) ، إنه أمد قصير . وإنهـا لحياة خاطفة تلك التي يمكثونها قبيل الآخرة . انها لتافهة لا تترك وراءهـا من الواقع والأثر في النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار .. ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون

في الأمد الذي يدوم (فإنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) ما كانت تلك الساعة إلا بلاغاً قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم (بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) فما هي إلا ساعة من نهار ثم يكون ما يكون .

٤ ـ أحوال الناس في يوم الحشر

يقول الله سبحانه (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق ، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا . يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا . بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون) .

هذه أبصار الذين كفروا لا تطرف من الهول الذي فوجئوا به . يقولون يا ويلنا . وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان . انها مشاهد يوم القيامة وما يجري فيها من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون ، وفي اغترار النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالفأر في المصيدة ! يرسمهم القرآن الكريم (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) .

يرسم مشهد مكروب ذليل . وفي مشهدهم وهيئتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف . كما أن التعبير فيه من التهكم والسخرية . فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون الى نصب يعبدونه ، ونلمح خلال الكلمات سيماهم كاملة ، صورة ذليلة عانية . لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون . (ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم) . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب

وكأنما هو غول مفزع ، وهو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ، ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون . وكأنه هو بذاته انقلب عذاباً لا مخلص منه وهو واقع به . تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر . تلك آيات الله وبياناته . هناك (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) .

هذه وجوه قد أشرقت بالنور وفاضت بالبشر ، فابيضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن واغبرّت من الغم ، واسودّت من الكآبة ..

وجوه مستنيرة منيرة ضاحكة مستبشرة ، راجية في ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) فهي تنجو من هول القيامة الذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر . أو هي قد عرفت مصيرها ، وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل . ووجوه تعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها سواد الذل والانقباض (ووجوه عليها غبرة ترهقها قترة) وقد عرفت ما قدمت . فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه ، ولكنه اللذع بالتبكيت والتأنيب (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

إنها الخسارة المحققة المطلقة . خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوى الأدنى ، وخسارة الآخرة (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) .

والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حساباً (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) . ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) (ومن أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا) . مشهدهم كالدواب الموقرة بالاحمال . بل الدواب أحسن حالاً . فهي تحمل أوزاراً من الأثقال . ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام ! والدواب تحط

عنها أوزارها فتذهب لتستريح . هؤلاء يذهبون بأوزارهم الى الجحيم مشبعين بالتأثيم . (ألا ساء ما يزرون) .

إنه مشهد ناطق بالخسارة والضياع ، مشهد ناطق بالهول والرهبة . هؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التي لا تقتنع ولا تستجيب . قد أدى بهم ذلك الانكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) وشطراً من ذنوب الذين يضلونهم (ومن أوزار الذين يضلونهم) ويصور التعبير هذه الذنوب أحمالاً ذات ثقل – وساءت أحمالاً وأثقالاً (ألا ساء ما يزرون) .

مشهد مهين مذل

لقد جعل الله للهدى والضلال سنناً ، وترك الناس لهذه السنن يسيرون وفقها ، ويتعرضون لعواقبها . ومن هذه السنن أن الانسان مهيأ للهدى والضلال ، وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو في طريق الضلال (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً . مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) .. فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله ، وهذا هو المهتدي حقاً ، لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال والاعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله في يومهم الموعود (فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) .

يوم ترى جموع خارجة من الأحداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) . وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي ، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه .. وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والاسراع يقول الكافرون (هذا يوم عسر) وهي قولة المكروب المجهود الذي

يخرج ليواجه الأمر الصعيب الرعيب . فهذا اليوم الذي اقترب وهم عنه معرضون ، معرضون عن دلائل الهدى لذلك يحشرهم يوم القيامة في صورة مهينة مزعجة على وجوههم يتكفأون عمياً وبكماً وصماً مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم في هذا الزحام ، جزاء ما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن ادراك دلائل الهدى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم) . قيل يا رسول الله ، و كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : (إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حَدَب وشوك (١)) .

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : إن الصادق المصدوق حدثني (أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج (٢) : فوجاً راكبين طاعمين كاسين ، وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم ، وتحشرهم النار ، وفوجاً يمشون ويسعون يلقي الله الآفة على الظهر ، فلا يبقى ، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة فيعطيها بذات القتب لايقدر عليها (٣)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طرائق (٤) : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا (٥)) .

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٢) الفوج : الجماعة من الناس .

(٣) اخرجه النسائي في الجنائز ، باب البعث ، واسناده حسن .

(٤) طرائق : حالات .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

ومشهد احشر على الوجوه فيه من الاهانة والتحقير والانقلاب ، ما يقـابل التعالي والاستكبار والاعراض عن الحق . إنه مشهد يذل الكبرياء ويزلزل العناد ويهز الكيان ، (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً) .

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، قال الله تعالى (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضلُّ سبيلا) أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ (أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يمشيه على وجهه [1]) .

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنكم تحشرون رجالاً وركباناً وتُجرون على وجوهكم [2]) .

إن هذه الانذارات تهزهم هزاً ولكنهم يتحاملون على أنفسهم ويظلون معاندين لذلك يكون مصيرهم كما بين رسول الله ﷺ .

روي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يبعث الله يوم القيامة ناساً في صورة الذرّ يطؤهم الناس بأقدامهم ، فيقال : ما بال هؤلاء في صورة الذر ؟ فيقال هؤلاء المتكبرون في الدنيا [3]) ثم مأواهم جهنم لا تبرد ولا تفتر (مأواهم جهنم كلما خَبَتْ زدناهم سعيرا) وهي نهاية مفزعة وجزاء مخيف ، ولكنهم يستحقونه بكفرهم بآيات الله فذلك جزاؤهم بما استبعدوا وقوع يوم البعث .

إنها مشاهد عنيفة رعيبة حين تنصت الجموع المحشودة المحشورة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين ، لا يتلفتون ولا يتخلفون ــ وقد كانوا يدعون الى الهدى فيتخلفون ويعرضون (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٣) رواه البزار .

إلا همساً) ويخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر ، ويخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع . والسؤال خافت . والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، وجلال الحي القيوم يغمر الوجوه بالجلال الرزين والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة والضلال والعمي (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) . وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا ، وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولى . حتى إذا سأل كان الجواب .

هؤلاء المجرمون يومئذ زرق الوجوه من الكدر والغم (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) ويعضون على أيديهم حسرة وألماً (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا) .

إنه مشهد الظالم يعض على يديه من الندم والأسف والأسى ، ويصمت كل شيء من حوله ، ويروح يمد في صوته المتحسر ونبراته الأسيفة .. (ويوم يعض الظالم على يديه) .. فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها ، إنما هو يداول بين هذه وتلك ، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين . وهي حركة معهودة يرمز بها الى حالة نفسية .. يا ليتني سلكت طريق الرسول ، لم أفارقه ، ولم أضل عنه ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا ، فلاناً بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله . لقد كان شيطاناً يضل أو كان عوناً للشيطان يقوده الى مواقف الخذلان ، ويخذله عن الجد ، وفي مواقف الهول والكروب .

إنه يوم زحام وخصام ، يوم ذل ومهانة ، يوم عصيب ، يوم عسير « يوم عسير على الكافرين غير يسير » . حيث تنشر صحف الأعمال « وإذا الصحف نشرت » ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها ، فلا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلانية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها ، ويرجف ويذوب

من كشفها ! ثم إذا هي جميعها في ذلك اليوم منشورة مشهودة ! إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم ، كما أنه سمة من سمات الانقلاب الكوني حيث يكشف المخبوء ، ويظهر المستور ، ويفتضح المكنون في الصدور إنه يوم عسير يوم ثقيل ، يوم مكروب ، كلّه عذاب ورهبة .. يوم يقف الناس يوم القيامة « يوم يقوم الناس لرب العالمين » — عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ « يوم يقوم الناس لرب العالمين » قال : يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه [(١)]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يَعرقُ الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقُهم سبعين ذراعاً ، وإنه يُلجمهم حتى يبلغ آذانهم [(٢)]) .

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ـ زاد الترمذي : أو اثنين قال سُليم بن عامر : فوالله ماأدري مايعني بالميل : أمسافة الأرض أم الميل الذي تكحل به العين ؟ ـ قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقْويه [(٣)] ، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاماً ، وأشار رسول الله ﷺ إلى فيه [(٤)]) .

وفي رواية للترمذي قال : (فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (تدنو الشمس من الارض فيعرق الناس فمِنَ الناس من يبلغ عرقه عقبيه ومنهم من يبلغ نصف الساق ، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ إلى العَجُز ، ومنهم من يبلغ

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) حقويه : الحقو : مشد الازار عند الخصر .

(٤) اخرجه مسلم والترمذي .

الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ عنقه ، ومنهم من يبلغ وسطه » وأشار بيده ألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يُشير هكذا « ومنهم من يغطيه عرقه » وضرب بيده وأشار وأمَرّ يده فوق رأسه من غير أن يصيب الرأس دور راحتيه يميناً وشمالاً [1]) .

وعن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال : الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها كواعبها وأكوابها ، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يسبح في الأرض قامته ، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب « قالوا » : مِمّ ذلك يا أبا عبد الرحمن قال ، مما يرى الناس يلقون [2]) ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ، إنّ الرجل ليُلجمه العرقُ يوم القيامة فيقول : « يارب أرحني ولو إلى النار » [3] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يوم يقوم الناس لرب العالمين » مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب [4] » .

هذا المشهد .. مشهد المؤمنين المطمئنين الى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول ، الذين يعيشون في ظل الله وكنفه يوم لا ظل إلا ظله حتى ليخفف ذلك اليوم العسير الرهيب على المؤمن فهم في أمن من الفزع الأكبر « إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » .

ولفظة حسيسها من الألفاظ المصورة بجرسها لمعناها . فهي تنقل صوت النار وهي

---

(١) رواه احمد والطبراني وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال صحيح الاسناد .

(٢) رواه الطبراني موقوفا باسناد جيد قوي .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ، وابو يعلى ومن طريقه ابن حبان .

(٤) رواه أبو يعلى باسناد صحيح وابن حبان في صحيحه .

تسري وتحرق ، وتحدث ذلك الصوت المفزع ، وانه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . ولذلك نجي الذين سبقت لهم الحسنى من سماعه ـ فضلاً عن معاناته ـ نجوا من الفزع الأكبر الذي يذهل المشركين ، وعاشوا فيما تشتهي أنفسهم من أمن ونعيم وتولي الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم في جو الفزع المرهوب .
عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال ، (يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ، فقيل : ما أطول هذا اليوم ! قال النبي ﷺ (والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة[1]) .

إن الذي يريد الآخرة لابد ان يسعى لها سعيها ، وينهض بتبعاتها ، فما يقدم الانسان في هذه العاجلة سيلاقيه في الآجلة القريبة وسيلاقي ربه على ما كان عليه وما مات عليه .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « يُبعث كل عبد على ما مات عليه [2] » .

أما المؤمنون فقادمون على الرحمن وفداً في كرامة وحسن استقبال « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » . .

وأما المجرمون فسوقون إلى جهنم ورداً كما تساق القطعان « ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً » .

يقول الامام المحاسبي رحمه الله « . حتى إذا تكاملت عدة الموتى وخلت من سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حسّ يسمع ، ولا شخص يُرى ، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزلياً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم يُفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم . فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك

---

(١) رواه احمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه .

(٢) اخرجه مسلم .

بأنك تدعى الى العرض على الملك الاعلى فطار فؤادك وشاب رأسك للنداء لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والاكرام والعظمة والكبرياء. فبينا أنت فزع للصوت اذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك ، فوثبت مغبراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبرّون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم .

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدّة المنادي ، والخلائق مقبلون نحوه وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساعٍ بالخشوع والذلة ، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والانس عراة حفاة ، قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصّغار ، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقةً وقدراً بعد عتوّهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل في أرضه ، ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذلّ يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بليّة نابتها ولا خطيئة أصابتها ، فتوهم اقبالها بذلّها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور ، وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتّوها وتمرّدها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور .

حتى اذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامّها ، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها واطفاء نورها . فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمها من

فوق رؤوسهم ، وذلك بعينك تنظر الى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عـام ، فياهول صوت انشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافـّات مايتشقق ويتفطر ، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها ، فأذابها ربّها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير : « فصارت وردة كالدّهان » ، « ويوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن » . .

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب ، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين الى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه . فتوهم تحدّرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل ـ كما حدثني يحيى بن غيلان الأسلمي قال ، حدثنا رشدين بن سعيد عن أبي السمح عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : لله مَلَـكٌ مابين مواقي عينيه إلى آخر شفره مسيرة مائة عام . فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم : أفيكم ربنا ؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم تنزيهاً لما توهمه أهل الأرض : سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ ، حتى أخذوا مصافـّهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم . فتوهمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك وكذلك الى السماء السابعة كل أهل سمـــاء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجسام ، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا ، حتى اذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين ، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين ، فمن بين مستظل بظل العرش ، وبين مضحو بحر الشمس ، قد صهرته بحرهـــا واشتد كربه وقلقه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم

وتدافعت ، فدفع بعضها بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلا حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجـــل بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل (وقال مرة إن الكافر) ليقوم يوم القيامة في بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام .

عن عبد الله رفعه إلى النبي ﷺ إن الكافر يلجم بعرقه يوم القيامـة من طول ذلك اليوم ، (وقال علي من طول القيام قالا جميعاً) حتى يقول رب أرحني ولو إلى النار . وأنت لامحالة أحدهم ، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق وأطبق عليك الغم وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب ، والنـــاس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم .

عن قتادة أو كعب ، قال يوم يقوم الناس لرب العالمين قال : يقومون مقدار ثلاثمائة عام ، قال سمعت الحسن يقول : ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار فسُقوا من عين آنية قد آن حرهـــا واشتد نفحها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحـــة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده ابراهيم ، وموسى وعيسى من بعـد ابراهيم ، كلهم يقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادي

بالشغل بنفسه فيقول : نفسي نفسي ، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها وكذلك يقول الله عز وجل : (يوم تأت كل نفس تجادل عن نفسها) .

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم،منفرد كل واحد منهم بنفسه ينادي نفسي نفسي ، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي . فياهول ذلك وأنت تنـــادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادي فيـه المصطفى آدم ، والخليل ابراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عز وجل وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينـادي : نفسي نفسي ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم في اشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم ، وبحزنك وبخوفك ؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم اليها ، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذِنَ له ثم خرَّ لربه ساجداً ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم[1] .

٥ — استجواب مرهوب ، وشهادة الحق

إن يوم القيامة عسير وثقيل ، ثقيل بأحواله ، ثقيل بنتائجه ، فهناك موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله في الأرض طوال الأجيال . فالرسل قد أُقـِّتَتْ لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح السموات والأرض والجبال . للفصل في جميـع القضايا المعلقة في الحياة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيـال والقرون .. (وإذا الرسل أُقـِّتَتْ) .

(١) من كتاب التوهم ص ٥ — ١٠ .

إنه مجلس الفصل بحضر الرسل فويل يومئـــذ للمكذبين . إنه إنذار من العزيز الجبار .

فاليوم تجمع الحصيلة ويضم الشتات ويقدم الرسل حساب الرسالات (يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أجبتم ؟ قالوا : لا علمَ لنا إنك أنت علام الغيوب) . هنا تعلن النتائج على رؤوس الأشهاد (ماذا أجبتم ؟) ، والرسل بشر من البشر ، لهم علم ما حضر ، وليس لهم علم ما استتر . لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى ، فاستجاب منهم من استجاب ، وتولى منهم من تولى ، وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى . فإنما له ظاهر الأمر ، وعلم ما بطن لله وحده .. وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير من يعرف ، والذي يهابونه أشدّ من يهاب ، والذي يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير .

إنه الاستجواب المرهوب (1) في يوم الحشر العظيم ، على مشهد من الملأ الأعلى

---

(1) من تفسير ابن كثير :

قال الامام احمد : حدثنا وكيع عن الاعمش عن أبي صالح عن ابي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بَلَّغت ؟ فيقول نعم . فيدعى قومه فيقال لهم هل بَلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهد لك؟ فيقول محمد وامته . قال : فذلك قوله « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** » . قال : الوسط « العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم » . رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الاعمش .

وقال الامام احمد أيضا : حدثنا ابو معاوية حدثنا الاعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه ، فيقال لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغتَ قومك ؟ فيقول نعم فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وامته ، فيقال لهم : هل بلغ هـذا قومه ؟ فيقولون : نعم فيقال وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا ، فذلك قوله عز وجل : « **وكذلك جعلناكم امة وسطا** » قال : عدولا « **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** »».

وروى الحافظ ابو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبي مالك الاشجعي « عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنا وامتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ، ما من الناس احد الا وَدَّ انه منا ، وما من نبي كذبه قومه الا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل » .

وعلى مشهد من الناس أجمعين ، الاستجواب الذي يراد به المواجهة ، مواجهة البشرية برسلها ، ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يكذبونهم . ليعلن في موقف الاعلان ، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاؤوهم من عند الله بدين الله ، وهاهم أولاء مسؤولون بين يديه — سبحانه — عن رسالاتهم وأقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون . ثم ينادي الله المكذبين ماذا أجبتم المرسلين ؟ (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون) .

إن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصمت . ذهول المكروب ، وصمت الذي لا يجد ما يقول . والقرآن يلقي ظل العمى على المشهد والحركة .. فهم لا يملكون سؤالاً ولا جواباً وهم في ذهولهم صامتون ساكتون .

هاهم الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون بما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب ، والذين كفروا واقفون لا يُؤْذن لهم في حجة ولا استشفاع (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يُخفف عنهم ولا هم ينظرون) . ولا يُؤذن لهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء . وجاء وقت الحساب والعقاب . ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله او من دون الله . فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون : (ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) فاليوم يُقرون (ربنا) واليوم لا يقولون عن هؤلاء أنهم شركاء الله . إنما يقولون (هؤلاء شركاؤنا) .

ويفزع الشركاء من هذا الاتهام الثقيل فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد (فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) ويتجهون إلى الله مستسلمين خاضعين (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) .. وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئاً يعتمدون عليه في موقفهم العصيب .

٦ ــ الحساب

يقول الله سبحانه : (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) آيات تهز الغافلين هزاً ، والحساب يقترب وهم في غفلة . والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى . والموقف جدّ وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته . والله سبحانه يبين ذلك (يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) .

إنه مشهد يصور الخلائق محشورة . وكل جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته ، أو الرسول الذي اقتدت به ، أو الامام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا . تنادى ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة . فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فَرِح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقص منه شيئاً ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة ! ومن عمي في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير . وأشد ضلالاً . وجزاؤه معروف . والقرآن يرسمه في المشهد المزدحم الهائل . أعمى ضالاً يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به ، ويدعه كذلك ، لأن مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ، يؤثر في القلوب . والله سبحانه يصور ذلهم وخزيهم فيقول : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

إنه السؤال الذي يزلزل ويذيب . فيجيبون إجابة المهين الذليل (بلى وربنا) . فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون . هذا هو مشهدهم البائس المخزي المهين وهو مصير يتفق مع الخلائق التي أبت على نفسها سعة التصور الانساني وآثرت عليه حجر التصور الحسي ، والتي أبت أن ترتفع إلى الأفق الانساني الكريم ، وأخلدت إلى الأرض . وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل ! اقدار تكست

هذه الخلائق التي أهلّت نفسها لهذا العذاب ، الذي يناسب طبائع الكافرين بالآخرة ، الذين عاشوا ذلك المستوى الهابط من الحياة ، بذلك التصور الهابط الهزيل ، هناك سيقف هؤلاء مشفقين مما يجدونه في صحيفة أعمالهم . يقول سبحانه : (ويوم نُسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ، وعُرضوا على ربك صفاً . لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

إنه مشهد الهول يرتسم على صفحات القلوب . مشهد تتحرك فيه الجبال الراسية فتسير ، فكيف بالقلوب ، وتتبدى فيه الأرض عارية ، وتبرز مكشوفة لانجاد فيها ولا وهاد ، ولا جبال فيها ولا وديان . وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية . ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التي لا تخبىء شيئاً ، ولا تخفي أحداً (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) ومن الحشر الجامع الذي لا يخلف أحداً إلى العرض الشامل . (وعرضوا على ربك صفاً) هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد ، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا . هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة ، ولم يتخلف منها أحد . فالأرض مكشوفة مستوية لاتخفي أحداً . وإنا لنكاد نلمح الخزي على الوجوه ، والذل في الملامح ، وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب . فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فاذا هو شامل دقيق ، وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدر بهذا الكتاب الذي لايترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة (ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب وقد ضبط مكشوفاً لا يملك تفلتاً ولا هرباً ولا مغالطة ولا مداورة (ووجدوا ما عملوا حاضراً) ولاقوا جزاءاً عادلاً لقاء ما قدموا من عمل يقول سبحانه : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً

يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) . وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله ، أي ما يقسم له من العمل ، وهو كناية عما يعمله . والزامه له في عنقة تصوير للزومه إياه وعدم مفارقته . فعمله لا يتخلف عنه ولا هو يملك التملص منه . كما أن اخراج كتابه منشوراً يوم القيامة . فهو يصور عمله مكشوفاً ، لا يملك اخفاءه أو تجاهله أو المغالطة فيه ، ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور فاذا هو أعمق أثراً في النفس وأشد تأثيراً في الحس ، وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ، ويلحظ هذا الكتاب في فزع طائر من اليوم العصيب ، الذي تتكشف فيـــه الخبايا والأسرار ولا يحتاج إلى شاهـد أو حسيب (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) إنها مواجهة قاسية . (يوم تجد كل نفس ما عملت من خـــير محضراً ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) . وهي مواجهة تأخـذ المسالك على القلب البشري وتحاصره برصيده من الخير والسوء . وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد ، ويود — ولكن لات حين مودة — لو أن بينه وبين السوء الذي عمله أمـداً بعيداً . أو أن بينه وبين هذا اليوم كله أمداً بعيداً . بينما هو في مواجهته ، آخذبخناقه ، ولات حين خلاص ، ولات حين فرار !

لقد عمل القرآن وأحاديث الرسول ﷺ عملها في تربيـة الجماعة المسلمة حتى أتت بالعجب العجاب ، وحتى أنشأت مجموعة من النـــاس تتمثل فيهم الأمانة والورع كما لم تتمثل قط في مجموعة بشرية ، لقد كان المسلم يعيش في حقيقة الآخرة فعلًا وكانت الآخرة في حسّه واقعاً ، وكان يرى صورته تلك أمام نبيه وأمام ربه . فالآخرة كانت حقيقة يعيشها ، لا وعداً بعيداً . وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفى ما كسبت وهم لا يظلمون وكان هذا هو سر تقواه وخشيته (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

لقـد كان المسلمون يعيشون في الآخرة ، فلقد شقّ عليهم قول الله عز وجل : (من يعمل سوءاً يُجزَ به) . كانوا يعرفون النفس البشرية — كما هي على حقيقتها ،

ولم يخفوا عن أنفسهم سيئاتهـــا ، ولم يتجاهلوا ما يعتور نفوسهم من ضعف أحياناً ، ولم ينكروا أو يغطوا هذا الضعف الذي يجدونه . ومن ثم ارتجفت نفوسهم . وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يُجزون به . ارتجفت نفوسهم كالذي يواجه العاقبة فعلاً ويلامسها . وهذه كانت ميزتهم ، أن يحسوا الآخرة على هذا النحو ، ويعيشوا فيها فعلاً بمشاعرهم كأنهم فيها ، لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت راجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد .

لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء . ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية ، واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى . ولقد هزّت هذه الآية كيانهم ، ورجفت لها نفوسهم ، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جَداً ، ويعرفون صدق وعد الله حقاً ، ويعيشون هذا الوعد ، ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا . لقد كانوا يعيشون لهذا القرآن كانوا يعرفون معنى قوله سبحانه (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) . فما معكم إلا ذواتكم مجردة ، ومفردة كذلك . تلقون ربكم أفراداً لا جماعة . كما خلقكم أول مرة أفراداً ، ينزل أحدكم من بطن أمه فرداً عريان أجرد غلبان ! ولقد ندّ عنكم كل شيء وتفرّق عنكم كل أحد ، وما عدتم تقدرون على شيء مما ملككم الله إياه .

تركتم كل شيء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شيء منه ولا تقدرون منه على قليل أو كثير ! « لقد تقطع بينكم » تقطع كل شيء كل مـــا كان موصولاً كل سبب وكل حبل وغاب عنكم كل ما كنتم تدعونه من شتى الدعاوى وما لهم من شفاعة عند الله أو تأثير في عالم الأسباب ! إنه المشهد الذي يهز القلب البشري هزاً عنيفاً ، وهو يشخص ويتحرك ، ويلقي ظلاله على النفس ، ويسكب ايحاءاته في القلب ، ظلاله الرعيبة المكروبة ، وايحاءاته العنيفة المرهوبة .

إن مشاهد القيامة تزلزل القلب .. فاليوم للعمل ، فان الاعتراف بالخطأ والاقرار

بالحق يوم القيامة لاينفع لقد فات الأوان .. فاليوم للجزاء لا للعمل .. واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان . مشهد وراء مشهد ، وكل مشهد يزلزل القلوب ويخلخل المفاصل ويهز الكيان ! ويفتح العين والقلب ـ عند من يشاء الله أن يفتح عينه وقلبه على الحق .

إن الايمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الايمان بالله وفق التصور الاسلامي ، والذي يقوم على أساس أن الله خلق الانسان ليستخلفه في الأرض بعهد منه وشرط ، يتناول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه في هذه الأرض ، وأنه خلقه واستخلفه ليبتليه في حياته الدنيا ، ثم ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء .

عن أبي برزة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن علمه ماذا عَمِلَ به ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه[1]) .

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به[2]) .

فاليوم الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الايمان وفق التصور الاسلامي .. وهذا الايمان على هذا النحو هو الذي يُكيف ضمير المسلم وسلوكه ، وتقديره للقيم والنتائج في هذه العاجلة . فهو يمضي في طريق الطاعة ، وتحقيق الخير ، والقيام على الحق والاتجاه الى البر سواء كانت ثمرة ذلك في الأرض ـ راحة له أم تعباً . كسباً له أم خسارة . نصراً له أم هزيمة . وجداناً له أم حرماناً . حياة له أو استشهاداً . لأن جزاءه هنالك في الدار الآخرة بعد نجاحه في الابتلاء ، واجتيازه الامتحان . لايزحزحه عن الطاعة والحق والخير والبر أن تقف له الدنيا كلها بالمعارضة والأذى والشر والقتل .. فهو إنما يتعامل مع الله .. وينفذ عهده وشرطه ، وينتظر الجزاء هنالك !

(١) رواه الترمذي وقال حديث صحيح .
(٢) رواه البزار والطبراني باسناد صحيح واللفظ له .

قاعدة الحساب والجزاء

إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة ، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا ، ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه ، وتوجد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس .. فاما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله ، فعلام يحاسبون في الآخرة ؟ أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي يحكمون بها ، ويتحاكمون اليها أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التي لم يكونوا يحاكموا بها ولا يتحاكموا إليها .

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » .. فهو وحده يحكم وهو وحده يحاسب ، وهو لا يبطيء في الحكم ، ولا يمهل في الجزاء . ولذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري. فهو ليس متروكاً ولو إلى مهلة في الحساب إنه لابد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته ولاشريعة العباد، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم ـ كما يقيموا شعائرهم وعباداتهم ـ وفق شريعة الله في الدنيا ، فان هذا سيكون أول مايحاسبون عليه بين يدي الله . وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله سبحانه ـ إلهاً في الأرض ، ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله ـ أو الشرك به باتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر ، واتباع شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي المعاملات والارتباطات ـ والله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . وإن القرآن ينبه إلى حقيقة هامة يجب أن يتبينوها .. « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » هؤلاء لاوزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعاً لأنهم من الغفلة بحيث لايشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى ، فهم ماضون في هذا السعي الخائب الضال . ينفقون حياتهم فيه هدرا « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » فهم مهماون ، لاقيمة لهم ولا

وزن في ميزان القيم الصحيحة ولهم بعد ذلك جزاؤهم « ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا » .

هؤلاء سيقفون أمام الله ويُسألون « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسؤولون » .. احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون .. وفي الأمر ـ على مافيه من لهجة حازمة ـ تهكم واضح في قوله « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » فما أعجبها من هداية خير منها الضلال . وإنها لهي الرد المكافىء لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم . وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال . وهـــاهو ذا الخطاب يوجه اليهم بالتقريع في في صورة سؤال بريء « مالكم لا تناصرون » مالكم لاينصر بعضكم بعضاً وأنتم هنا جميعاً ؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين ؟ « بل هم اليوم مستسلمون » .

إن الله يقرر قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » . لقد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديراً لضعفهم ، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات وجعلها كفارة للسيئات . فاذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم منها بغير حساب .

إن المؤمن يشعر بضخامة سؤال الله له يوم القيامة . سؤال الحواس والقلب (ولا تقفُ ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب . أمانة يُسأل عنها صاحبها . وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها ، كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الانسان رواية ، وكلما أصدر حكماً عن شخص أو أمر أو حادثة . فلا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين وما لم تتثبت من صحته .

فهناك يوم القيامة فلا حاجة إلى كلمة تقال أو إلى صوت يرتفع (وقضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) . (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها . فالموقف موقف إذعان وتسليم ، ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين . فكيف بركب الجنة ركب المتقين (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

فهو الاستقبال الطيب والثناء المستحب وبيان السبب (طبتم) وتطهرتهم كنتم طيبين وجئتم طيبين . فما يكون فيها إلا الطيب ، وما يدخلها إلا الطيبون . وهو الخلود في ذلك النعيم .

حساب وعرض

أمور القيامة هائلة رهيبة ، قلّ أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . ومن ذا الذي لا يرتعش حسه وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب . مشهد الناجي الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة (وأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية) . فهو يدعي الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنّة الفرح والغبطة وما يكاد يصدق بالنجاة .

ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن في كلماته ونبراته وإيقاعاته (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوْت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ..) يا ليتني ! بهذا التفجع الطويل الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير . من ذا الذي لا يرتعش حسه وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب . يوم العرض يوم تتكشف الأمور فلا يخفى شيء . (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

فالكل مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف

العمل ، مكشوف المصير ، وتسقط جميـــع الأستار التي كانت تحجب الأسرار .. وتتعرى النفوس تعري الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود .. ويتجرد الانسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه ! .

وما أقسى الفضيحة على الملأ . وما أخزاها على عيون الجموع ! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن . ولكن لعل الانسان لايشعر بهذا حق الشعور ، وهو مخدوع بستور الأرض . فها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة . وكل شيء بارز في الكون كله . الأرض مدكوكة مسواة لاتحجب شيئاً وراء نتوء ولا بروز . والسماء متشققة واهية لاتحجب وراءها شيئاً ، والأجسام معراة ولا يسترهـــا شيء ، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر .. ألا إنه لأمر عصيب أعصب من دك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء ! وقوف الانسان ، عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ماظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله من الانس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميـع .

إن طبيعة الانسان لمعقدة شديدة التعقيد ، ففي نفسه منحنيات شتى ودروب ، تتخفى فيها نفسه وتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها وإن الانسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخز إبرة ، فتنطوي سريعاً ، وتنكمش داخل القوقعة ، وتغلق على نفسها تماماً . إن الانسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً قد تدسست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه ، وإن لمحة أصابت منه درباً خفياً أو منحنى سرياً ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية .. فكيف بهذا المخلوق وهو عريان حقاً ، عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل ساتر . عريان . كيف

به وهو كذلك تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار . ألا إنه لأمر أمرٌ من كل أمر .

كل شيء مكشوف .. كل شيء مسجل وقد أحصاه الله (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) (ألم تر أن الله يعلم مافي السموات وما في الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

إنها صورة تترك القلب وجلة ترتعش مرة وتأنس مرة ، وهي مأخوذة بحضر الله الجليل المأنوس .. وحيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم ، وحيثما اجتمع خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم ، وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ! وحيثما كانوا أكثر فالله هناك !

إنها حالة لا يثبت لها قلب ، ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز ، وهو محضر مأنوس .نعم .. ولكنه كذلك جليل رهيب . محضر الله وهو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة وهذه لمسة أخرى ترجف وتزلزل فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع مابعده من حساب وعقاب ؟ وكيف إذا كان مايسرّه المتناجون وينعزلون به ليخفوه ، سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به في الملأ الأعلى في ذلك اليوم المشهود .. يوم تبعثر القلوب بعد بعثرة القبور (أفلا يعلم إذا بعثر مافي القبور وحُصّل مافي الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير) .

وهو مشهد عنيف، بعثرة لما في القبور ، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير ، وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنّت بها وخبأتها بعيداً عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي . أفلا يعلم إذا كان هذا ؟ ولا يذكر ماذا يعلم ؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر ، ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب، وتردد كل مراد ، فالمرجع إلى ربهم وإنه لخبير بهم يومئذ وبأحوالهم وأسرارهم .. والله خبير في كل وقت وفي كل حال .

ولكن لهذه الخبرة يومئذ آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام .. إنها خبرة وراءها عاقبة . خبرة وراءها حساب وجزاء . خبرة مسجلة (أم يحسبون أنّا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون) (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .. كل شيء مسطر في الصحائف ليوم الحساب لا ينسى منه شيء وهو مسطور في كتاب الله (وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مُستَطر) .

إن كل ماقدمت أيديهم من عمل ، وكل ماخلَّفته أعمالهم من آثار ، كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شيء ولا ينسى ، والله هو الذي يحصي كل شيء ويثبته (إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) .. (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) .

جاءت كل نفس ، فالنفس هنا هي التي تُحاسَب . وهي التي تتلقى الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشهيد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا وقد يكونان غيرهما والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شيء بالسوق المحاكمة ولكن بين يدي الجبار (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وهذا هو الموعد الذي غفلت عنه ، وهذا هو الذي لم تحسب حسابه . وهذه هي النهاية التي كنت لا تتوقعها . فالآن انظر . فبصرك اليوم حديد . هنا يتقدم قرينه والأرجح أنه الشهيد الذي يحمل سجل حياته (وقال قرينه هذا مالدي عتيد) .. حاضر مهيأ معد لا يحتاج الى تهيئة أو إعداد . وكل شيء مسجل ، ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ، ولا يظلم أحد ، فالمجازي هو الحكم العدل . (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) « هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت » إنها حقائق مخيفة عجيبة .. ياأيها الانسان ألا فاختر لنفسك إما السعادة وإما الشقاء (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً . وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا) .

والذي يؤتى كتابه بيمينه هو المرضي السعيد ، الذي آمن وأحسن ، فرضي الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حساباً يسيراً فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب ، والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ﷺ – وفيها غناء .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : (من نوقش[1] الحساب عُذّب) فقلت : أليس يقول الله : (فأما من أُوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيرا وينقلب إلى أهله مسروراً) فقال : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك[2]) . وفي رواية (وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذّب) .

وعنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته (اللهم حاسبني حساباً يسيرا) فلما انصرف قلت يا رسول الله ما الحساب اليسير قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك[3]) .

وعن ابن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من نوقش الحساب هلك[4]) .

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه ثم ينجو ، وينقلب الى أهله مسروراً ، من الناجين الذين سبقوه الى الله ، إن هذا يصور رجعة الناجي من الحساب الى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب . رجعته متهللاً فرحاً مسروراً بالنجاة واللقاء في الجنان !.

إنه مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب ، وهو ينطلق في فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه وتغلبه على لسانه فيهتف (هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه) ويذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن

---

(١) نوقش : المناقشة في الحساب : تحقيقه وتدقيقه والاستقصاء فيه .

(٢) رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي .

(٣) رواه الامام احمد باسناده عن عبد الله بن الزبير عن عائشة وهو صحيح على شرط مسلم .

(٤) رواه البزار والطبراني في الكبير باسناد صحيح .

يناقش الحساب (ومن نوقش الحساب عُذّب) كما جاء في الأثر .. انها رحمة الله تحيط بالمؤمن يصورها النبي ﷺ :

عن صفوان بن محرز المازني قال : (بينما ابن عمر رضي الله عنه يطوف ، إذ عَرضَ له رجل ، فقـال : يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله ﷺ في النجوى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يُدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كَنَفَه [1] فيقرره بذنوبه . تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : أعرف ربّ ، أعرف — مرتين — فيقول : سترتها عليك في الدنيا ، وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الآخرون — أو الكفار ، أو المنافقون ، فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين [2]) .

ومن رحمته سبحانه أن يبدل السيئات بالحسنات :

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها : رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : أعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغارها ، فيقال له : عملت يوم كذا ، كذا وكذا . وعملت يوم كذا ، كذا وكذا ؟ فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول ربّ ، قد عملت أشياء لا أراها هاهنا . قال : فلقد رأيت رسول الله يضحك حتى بدت نواجذه [3]) .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا بشر بن مطر الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، اخبرنا العاصم عن الأحول عن أبي عثمان ، قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه ، حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع

---

(١) كنفه : المراد به قرب الله تعالى ودنو رحمته وفضله من العبد .

(٢) اخرجه البخاري ومسلم .

(٣) اخرجه مسلم والترمذي .

إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال : فعند ذلك يقول : (هاؤم اقرؤوا كتابيه) .

وروي عن عبد الله بن حنظلة ـ غسيل الملائكة ـ قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدي ـ أي يظهر ـ سيئاته في ظهر صحيفته ، فيقول له أنت عملت هذا ؟ فيقول نعم أي رب ! فيقول له : إني لم أفضحك به ، وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك (هاؤم اقرؤوا كتابيه) ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجي من النعيم (فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) . وأما المعذب الهالك المأخوذ بعمله السيء الذي يؤتى كتابه وهو كاره (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا) .

إنها هيئة الكاره المكروه الخزيان من المواجهة . فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحاً ، وقطع طريقه إلى ربه كدحاً ـ ولكن في المعصية والاثم والضلال ـ يعرف نهايته ، ويواجه مصيره ، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء فيدعو ثبورا ، وينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء . وحين يدعو الانسان بالهلاك لينجو به يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه . حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . فإنما هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذي ليس بعده شقاء .

هذا الشقي عرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن الى العذاب مصيره ، فيقف في المعرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الكئيب (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه) وهي وقفة طويلة وحسرة مديدة ، ونغمة يائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل الى السامع أنها لا تنتهي الى نهاية ، وأن هذا التفجع والتحسر يمضي بلا نهاية . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير ، ومن ثم يطول ويطول ، ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت

هذا الموقف ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه ، كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية ، التي تنهي وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئاً ، ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه ، فلا المال أغنى أو نفع ، ولا السلطان بقي أو دفع ، مع الرنة الحزينة الحسيرة المديدة .

قضـــاء عادل

إن يوم الحساب هو يوم العدل . يوم القضاء والفصل ، ومن عدله سبحانه أن تقوم الشهود على الانسان من نفسه (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق . ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

(ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ماجاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب ، وسلطان الله الذي تطيعـــه جوارحهم وتستجيب وهم يوصمون بأنهم أعداء الله فما مصير أعداء الله ؟

إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيـــع ، إلى أين ؟ إلى النار ، حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب إذا شهود عليهم لم يكونوا في حساب . إن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزىء ، وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم لتستجيب لربها طائعة مستسلمة ، تروي عنهم ما حسبوه سراً . قد يستترون من الله ، ويظنون أنه لا يراهم ولكنهم يتخفون بنواياهم ، ويتخفون بجرائمهم ، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم ، وكيف وهي معهم

بل كيف وهي أبعاضهم ؟ ها هي ذي تفضح ما حسبوه مستوراً عن الخلق أجمعين وعن الله رب العالمين .

عن أنس رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مِمَّ أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ، فيقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ يقول : بلى ، فيقول : إني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداً إلا مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، والكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فِيه ، ويقول لأركانه : أنطقي فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول بُعداً لكُنَّ وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل[1] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون[2] في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ، قالوا : لا ، قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟ قالوا : لا ، قال : فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، فيلقى العبد ربه فيقول : أي فلْ (أي فلان) ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل ، وأذرك ترأس وتربع[3] ؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول فاني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول أي فُل ، فيقول : ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب : فيقول أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول فاني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول : أي فُل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : أي رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك ، وصليت وصمت

---

(١) رواه مسلم .

(٢) تضارون : اي لا يضايق بعضكم بعضا في رؤيته ولا ينازعه .

(٣) تربع : معناه ما يأخذ رئيس الجيش لنفسه وهو ربع الغنائم .

وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ههنا إذاً ، ثم يقول : الآن نبعث شاهداً عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ، ويختم على فيه ويقال لفخذه : انطقي، فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه (١)) . وحتى الأرض تشهد عليه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يومئذ تحدث أخبارها) ، قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا (٢) .

يا للمفاجأة بسلطان الله الخفي ، يغلبهم على أبعاضهم فتلبي وتستجيب ، وقالوا : لجلودهم لما شهدتم علينا ، فإذا هي تجيبهم بالحقيقة التي خفت عليهم في غير مواربة ولا مجاملة . أليس هو الله الذي جعل الألسنة هي الناطقة ؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها وقد أنطق كل شيء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين .

فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم . لقد خدعكم الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم .

يا للسخرية ، فالصبر الآن صبر على النار ، وليس الصبر الذي يعقبه الفرج وحسن الجزاء . وما عاد هناك عتاب ، وما عاد هناك متاب ، فاليوم يغلق الباب في وجه العتاب لا الصفح ولا الرضى الذي يعقبه العتاب . (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

لا ظلم . إنما تجزى كل نفس بما كسبت (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء والفصل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه .

يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء[1] من الشاة القرناء[2] .

ورواه أحمد ولفظه : أن رسول الله ﷺ قال : يقتص الخلق بعضهم من بعض، حتى للجمّاء من القرناء ، وحتى الذرة من الذرة[3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليختصمن كل شيء يوم القيامة ، حتى الشاتان فيما انتطحتا[4] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء منه ، فليتحلله منه اليوم ، من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه ، فحمل عليه[5] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما : يا رب ، خذ لي مظلمتي من أخي ، فقال الله : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ، قال : يا رب فليحمل من أوزاري ، وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يحتاج الناس أن يُحمل عنهم من أوزارهم[6] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : المفلسُ من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته من

---

(١) الجلجاء : التي لا قرن لها

(٢) رواه مسلم والترمذي .

(٣) رواته رواة الصحيح .

(٤) رواه احمد باسناد حسن .

(٥) أخرجه البخاري .

(٦) رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

قبل أن يُقضى ماعليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرحَ في النار (١) .

إنها ظلال يوم القيامة . ظلال للتحذير والترهيب واستجاشة لمشاعر التقوى والوجل والاستسلام . لقد تلقى المسلمون هذا القرآن وتوجيهات النبي ﷺ تلقي القبول فعاشوا في الآخرة عملاً وواقعاً . عاشوا وأقدامهم في الأرض وقلوبهم في السماء .

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ـ جلس بين يديه فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم . فقال له رسول الله ﷺ : يحُسب ماخانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فان كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لالك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل الذي بقي لك . فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : « مالك أما تقرأ كتاب الله » (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فقال الرجل : يارسول الله ماأوجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء ، يعني عبيده ، أُشهدك أنهم كلهم أحرار (٢)) .

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم القضاء الفصل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من ضرب مملوكه سوطاً ظلماً اقتصّ منه يوم القيامة (٣) .

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « يحشر الله العباد يوم القيامة » أو قال ، « الناس عراة غُرلاً بُهماً قال : قلنا وما بُهماً قال : ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب : أنا الديان ، أنا الملك

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد والترمذي ، قال الحافظ واسناد أحمد والترمذي متصلان ورواتهما ثقات احتج بهم البخاري ومسلم .

(٣) رواه الطبراني والبزار باسناد حسن

لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة ، قال : قلنا كيف وإننا نأتي عراة غرلاً بهماً ؟ قال : الحسنات والسيئات(١))

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء الفصل حتى الذرة . (إن الله لايظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً . كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول لا يارب ، يقول : أفلك عذر ؟ فيقول لا يارب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنه فإنه لاظلم اليوم . فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول احضر وزنك فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت ، وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء(٢)) .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رجل : يارسول الله ، أنؤاخذ بما عملناه في الجاهلية ؟ قال : من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر(٣)) . .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، فهل تضارون(٤) في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً

(١) رواه احمد باسناد حسن .

(٢) اخرجه الترمذي في الايمان واسناده صحيح ورواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي وغيره .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم .

(٤) تضارون : أي لا يضايق بعضكم بعضا في رؤيته ولا ينازعه .

ليس معها سحاب ؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فما تضارون في رؤية الله تعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذّن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق الا من كان يعبد الله من برّ وفاجر وغبر[1] أهل الكتاب ، فيدعى اليهود ، فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد عزيراً ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فما تبغون ؟ قالوا عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار اليهم ألا تردُون فيحشرون الى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ، ثم تدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فما تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيُشار اليهم ألا تردُون ، فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبقَ إلا من كان يعبد الله من برّ وفاجر أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : يا ربنا فارقْنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ،ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ولا نشرك بالله شيئاً ، مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أي ينقلب ، فيُقال : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون نعم، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم سلم ، قيل يارسول الله ، وما الجسر ؟ قال : دحْضٌ مزلة[2] ،

---

(١) الغبر : الباقي .

(٢) دحض مزلة : الدحض : الزلق ، المزلة : هو المكان الذي لا يثبت عليه قدم الا زلت .

فيه خطاطيف وكلاليب وحسكه يكون بنجد ، فيها تشويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل والركاب . فناج مسلّم ، ومخدوش مُرسل ، ومكدوش[1] في نار جهنم ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده مامن أحد منكم بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لاخوانهم الذين في النار » .

وفي رواية : فما أنتم بأشد مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار إذا رأو أنهم قد نجوا في اخوانهم ، فيقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ، ويُصلون ، ويحجون ؟ فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ، فيُخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبته ثم يقولون : ربنا مابقي فيها ممن أمرتنا به ، فيقال : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيراً » .

وكان أبو سعيد يقول . إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم (إن الله لايظلم مثقال ذرة ، وإن تكُ حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيُّون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً من النار لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً[2] . فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر ، أو الى الشجر ، ما يكون الى الشمس يكون أصيفر وأخيضر ، وما يكون منها الى الظل يكون أبيض » فقالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية ، قال : « فيخرجون كاللؤلؤة في رقابهم الخواتيم ، ويعرفهم أهل الجنة .

---

(١) المكدوش : المدفوع في نار جهنم دفعا عنيفا .

(٢) الحمم : جمع حممة وهي الفحمة .

هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ،فيقولون : ربنا أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين ! فيقول لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : ياربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضاي فلا أسخط عليكم أبداً[1]) .

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء والفصل . بلا إمهال ولا ابطاء ، يخيم الجلال والصمت ، ويغمر الموقف رهبة وخشوع ، وتسمع الخلائق وتخشع ، ويقضى الأمر ، وتطوى صحائف الحساب .

إنها القيامة المقتربة الزاحفة (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . والله يقضي بالحق والذي يدعون من دونه لا يقضون بشيء . إن الله هو السميع البصير) والآزفة .. القريبة والعاجلة .. وهي القيامة . واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة . والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميماً يعطف عليهم ولا شفيعاً ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب ، وهم بارزون في هذا اليوم لا تخفى على الله منهم شيء ، حتى لفتة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور ، والعين الخائنة تجتهد في إخفاء خيانتها ولكنها لا تخفى على الله . والسر المستور تخفيه الصدور ، ولكنه مكشوف لعلم الله .

والله وحده هو الذي يقضي في هذا اليوم قضاءه الحق (والله يقضي بالحق) فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئاً ، ونرى الكافر والظالم يتحسر ولكن يوم لا تنفع الحسرة ولا الندم وإذا بصوت الجبار يقول (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلّوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) . خذوه كلمة تصدر من العلي الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب ، كما يقول

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له .

ابن أبي حاتم باسناده عن المنهال ابن عمرو (إذا قال الله تعالى « خذوه » ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفاً في النار) . كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة ! فغلوه .. فأي السبعين ألفاً بلغه جعل الغل في عنقه ؟ (ثم الجحيم صلوه) ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه . وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه .

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالعباد . فلم يعد هـذا القلب يصلح إلا لهذه النار وهذا العذاب . خلا قلبه من الايمان فهو موات ، وهو خرب ، وهـو بور . وهو خلو من النور . وهو مسخ من الكائنات لا يساوي الحيوان بل لا يساوي الجماد . فكل شيء مؤمن ، ويسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هـو فمقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله .

إنه المصير المخزي ، والعلة في هذا هو عدم اليقين بلقاء الله .

عن أبي سعيد الخدري وأبو هـريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ؟ وسخرت لك الأنعام والحرث ؟ وتركتك ترأس[1] وتربع[2] ؟ فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا ؟ . فيقول لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني[3]) .

أخرجه الترمذي وقال : معنى قوله (أنساك اليوم كما نسيتني) اليوم أتركك في العذاب .

يقول الامام المحاسبي رحمه الله (.. فبينما أنت مع الخلائق في ظلم القيامة وشدة كربها منتظر متوقع لفصل القضاء والحلول في دار النعيم أو الحزن إذ سطع نور العرش وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلبك بالجبار ، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه

---

(١) (ترأس) الترؤوس : التقدم على القوم وأن يصير رئيسهم .

(٢) تربع : أي تأخذ المرباع وهو ما يأخذه رئيس الجيش لنفسه من الغنائم وهو ربعها .

(٣) رواه الترمذي واسناده حسن ، قال هذا حديث صحيح غريب .

لا يعرض عليه أحد سواك ، ولا ينظر إلا في أمرك — عن حميد بن هلال ، قال : ذكر لنا أن الرجل يدعى يوم القيامة الى الحساب فيقال : يا فلان بن فلان هلمّ الى الحساب ، حتى يقول ما يراد أحد غيري مما يحضر به من الحساب — ثم نادى: ياجبريل ائتني بالنار ؛ فتوهمها وقد أتى جبريل فقال لها : يا جهنم أجيبي ، فتوهم اضطرابها وارتعادها بفرقها أن يكون الله عز وجل خلق خلقاً يعذبها به ؛ فتوهمها حين اضطربت وفارت ونارت ، ونظرت الى الخلائق من بعد مكانها فشهقت إليهم وزفرت نحوهم وجذبت خزانها متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه ؛ فتوهم صوت زفيرها وشهيقها ، وترادف قصبتها ، وقد امتلأ منه سمعك ، وارتفع له فؤادك وطار فزعاً ورعبا ، ففرّ الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم ، وذلك يوم التنادي ، لما سمعوا بدّو" زفيرها ولوا مدبرين وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم فأرسلوا الدموع من أعينهم .

فتوهم اجتماع أصوات بكاء الخلائق عند زفيرها وشهيقها وينادى الظالمون بالويل والثبور ، وينادي كل مصطفى وصدّيق ومنتخب وشهيد ومختار وجميع العوام : نفسي نفسي ، فتوهم أصوات الخلائق الانبياء فمن دون كل عبد منهم ينادي : نفسي نفسي وأنت قائلها ، فبينا أنت مع الخلائق في شدة الأهوال ووجل القلوب إذ زفرت الثانية فيزداد رعبك ورعبهم وخوفك وخوفهم ، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق لوجوههم ينظرون من طرف خاشع خفي خوفاً أن تلفهم فتأخذهم بحريقها ، وانتصفت عندذلك قلوب الظالمين فبلغت لدى الحناجر كاظمين فكظموا عليها وقد غصت في حلوقهم وطارت الالباب وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين . فلا يبقى رسول ولا عبد صالح مختار إلا ذهل لذلك عقله ، فأقبل الله عزوجل عند ذلك على رسله وهم أكرم الخلائق عليه وأقربهم إليه لأنهم الدعاة الى الله عز وجل والحجة على عباده ، وهم أقرب الخلائق الى الله عز وجل في الموقف وأكرمهم عليه ، فيسألهم عما أرسلهم به الى عباده ، وماذا ردوا عليهم من الجواب فقال لهم : (ماذا أجبتم) ؟ فردوا عليه الجواب عن

عقول ذاهلة غير ذاكرة فقالوا : (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فأعظم به من هول تبالغ من رسل الله عز وجل في قربهم منه وكرامتهم حتى أذهل عقولهم ، فلم يعلموا بماذا أجابتهم أممهم .

عن أبي الحسن الدمشقي ، قال : قلت لأبي قرّة الأزدي : كيف صبر قلوبهم على اهوال يوم القيامة ؟ قال : إنهم إذا بعثوا خلقوا خلقة يقوون عليها . قال أبو الحسن : قلت لاسحاق بن خلف قول الله عز وجل للرسل : (ماذا أجبتم قالوا : لا علم لنا) أليس قد علموا ما رُدَّ عليهم في الدنيا ؟ قال : من عظم هول السؤال حين يسألون طاشت عقولهم فلم يدروا أي شيء أجيبوا في الدنيا ، فهم صادقون حتى تجلّى عنهم بعد ، فعرفوا ما أجيبوا . قال : فحدثت به أبا سليمان ، فقال : صدق اسحاق هم في ساعتهم تلك صادقون ، حتى تجلى عنهم فعرفوا ما اجيبوا .. فتوهم نفسك لذلك الخوف والفزع والرعب والغربة والتحير إذا تبرأ منك الولد والوالد والأخ والصاحب والعشائر ، وفررت أنت منهم أجمعين ، فكيف خذلتهم وخذلوك ، ولولا عظم هول ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تفرّ من أمك وأبيك وصاحبتك وبنيك وأخيك ، ولكن عظم الخطر واشتداد الهول فلا تلام على فرارك منهم ولا يلامون .

فبينما أنت في ذلك إذ ارتفعت عنق من النار فنطقت بلسان فصيح بمن وُكّلت بأخذهم من الخلائق بغير حساب ، ثم أقبل ذلك العنق فيلقطهم لقط الطير الحبّ ثم انطوت عليهم فألقتهم في النار فابتلعتهم ، ثم خنست بهم في جهنم فيفعل ذلك بهم ، ثم ينادي مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الحامدون لله على كل حال ، فيقدمون فيسرحون الى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم يشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر مولاه حتى اذا دخلت هذه الفرق من أهل الجنة والنار ، ثم تطايرت الكتب في الأيمان والشمائل نصبت الموازين [1] ..) .

---

(١) كتاب المتوهم ص ١٥ ــ ١٧ .

٧ ــ طلب الفداء

إن الاسلام يفتح باب التوبة ، فلا يغلقه في وجه ضال يريد أن يتوب ، ولا يكلفه إلا أن يطرق الباب ، بل أن يدلف إليه فليس دونه حجاب . وإلا أن يفيء إلى الحمى الآمن ، ويعمل صالحاً . فيدل على أن التوبة صادرة من قلب تاب فأما الذين لا يتوبون ولا يثوبون . الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفراً والذين يلجون في هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة ، وينتهي أمد الاختيار ويأتي دور الجزاء .

هؤلاء وهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة . ولن ينفعهم أن يكونوا قد أنفقوا ملء الأرض ذهباً فيما يظنون أنه خير وبرّ ، ما دام مقطوعاً عن الصلة بالله . ومن ثم فهو غير موصول له بطبيعة الحال . ولن ينجيهم أن يقدموا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة . فقد أفلتت الفرصة وأغلقت الأبواب :

(إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به . أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين) .

فليس لهم من ناصر من الله . إن أموالهم وأولادهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح من فدية لهم من العذاب ، ولا تنجيهم من النار ، وهم أصحاب النار (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

إن الله يقرر مصائر الأعمال والأقوال .. فمن استجاب لله فله الحسنى . والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو ملَك ما في الأرض ومثله معه أن يفتدي به وما هو بمفتد ، إنما هو الحساب الذي يسوء ، وإنما هي جهنم لهم مهاد . ويا لسوء المهاد (للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في

الأرض جميعاً ومثله معـه لافتـدوا به . أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد) .

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض ، هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعاً ، ولكن القرآن يفترض لهم ما هو فوق الخيال في عالم الافتراض. فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ، ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك ، لينجوا به من عذاب يوم القيامة : (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ، ومثله معه ، ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم ، ولهم عذاب أليم) .

ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النـار ثم عجزهم عن بلوغ الهدف ، وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم) .

إنه الهول الملفوف . فلو أن لهؤلاء الظالمين — لو أن لهؤلاء ما في الأرض جميعاً ، مما يحرصون عليه وينأون عن الاسلام اعتزازاً به ومثله معه ، لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة (ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعـالى لأهون أهل النار عذاباً ، لو كانت لك الدنيا كلها ، أكنت مفتدياً بهـا ، فيقول نعم ، فيقول : قد أردت منك أيسر من هذا ؟ وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك[1]) .

والله سبحانه يقول (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) . فلا يقبل منها حتى على

---

(1) أخرجه مسلم .

فرض وجوده معها وهم في كمد يظلل الوجوه . إنه الرعب ليذهب بالانسان وإنه يود لو يفتدى من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، بمن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم (يودُّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا إنها لظى) ببنيه وزوجه وأخيه. وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه . بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ، وهي صورة للّهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الافلات .. كلا .. في ردع عن تلك الأماني المستحيلة في الافتداء .

٨ – الميزان

يقول الله سبحانه (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) في هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً . ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموا في الحياة الدنيا ، ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلائق التي تشهد ذلك اليوم المشهود . وتلتقي الخلائق كلها بربهـا في ساحة الحساب (لينذر يوم التلاق) فهو يوم التلاقي بكل معاني التلاقي . ثم هو اليوم الذي يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ولا تزييف ولا خداع ، (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء) والله لا يخفى عليه منهم شيئاً في كل وقت وفي كل حال ولكنهم في غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون وأن أعمالهم وحركاتهم خافية أما اليوم فيحسون أنهم مكشوفون ويعلمون أنهم مفضوحون ويقفون عارين من كل ساتر حتى ستار الأوهـام . يومئذ يتضاءل المتكبرون وينزوي المتجبرون ويقف الوجود كله خاشعاً ، والعباد كلهم خضع . ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان . وهو سبحانه متفرد به في كل آن ، فأما في هذا اليوم فينكشف هـذا للعيان بعد انكشافه للجنان ويعلم هذا كل مفكر ويستشعره كل متكبر ، وتصمت كل نأمة وتسكن كل

حركة وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب فما في هذا الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا مجيب : (لمن الملك اليوم ؟) .. (لله الواحد القهار) .

هناك تبعثر القبور ويصدر الناس ليروا أعمالهم (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) ، ترى مشهد القيام من القبور ، ترى مشهدهم شتيتاً منبعثاً من أرجاء الأرض كأنهم جراد منتشر ، وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تنبعث من هنا ومن هناك (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) وحيثما امتد البصر ترى شبحاً ينبعث ثم ينطلق مسرعاً لا يلوي على شيء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه ، (مهطعين إلى الداع) ممدودة رقابهم ، شاخصة أبصارهم (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مروع : مفزع . مرعب . مذهل ، كل أولئك وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئاً مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك وفي حدود ما يطيق ! (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) .. (ليروا أعمالهم) ، وهذه أشد وأدهى . إنهم ذاهبون الى حيث تعرض عليهم أعمالهم ، ليواجهوها ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الانسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء . وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير . فكيف به وهو يواجهه بعمله على رؤوس الأشهاد في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟ ..

إنها عقوبة هائلة رهيبة ، مجرد أن يروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم ! ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

ذرة .. كان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة ، وكانوا يقولون : إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة ، فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك

الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في العالم . إنما هي رؤيا في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل ما رآه هو آثارها ، فهذه وما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها ! عندئذ لا يحقر الانسان شيئاً من عمله خيراً كان أو شراً . ولا يقول هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجدانا أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل !.

إن هذا الميزان لم يوجد له شبيه أو نظير بعد في الأرض ، إلا في القلب المؤمن، القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر ، وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائم ، ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال ، إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب .

وثقل الموازين وخفتها تفيدنا : قيماً لها عند الله اعتبار (فأما من ثقلت موازينة فهو في عيشة راضية) . فأما من ثقلت موارينه في اعتبار الله وتقويمه فهو في عيشة راضية ، إنها توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم .

(وأما من خفت موازينه فأمّه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية) وأما من خفّت موازينه في اعتبار الله وتقويه فأمه هاوية ، والأم هي مرجع الطفل وملاذه . فرجع القوم يومئذ وملاذه يومئذ هو الهاوية ، نار حامية ، هذه هي أمّ الذي خفت موازينه ! أمه التي يفيء إليها ويأوي ! والأم عندها الأمن والراحة . فماذا هو واجد عند أمه هذه ، الهاوية ، النار ، الحامية ، إنها حقيقة قاسية .

إنه لا مجال هنا للمغالطة في الوزن ، ولا التلبيس في الحكم ، ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازين ، (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه ، فأولئك هم المفلحون) . فمن ثقلت موازينه ، فقد ثقلت في ميزان الله الذي يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح . وأي فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة الى الجنة، في نهاية الرحلة المديدة ، وفي ختام المطاف الطويل ؟.

روي عن أنس يرفعه ، قال (ملكٌ موكل بالميزان ، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان ، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق . سَعِدَ فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خفَّ ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لا يَسعدُ بعدها أبداً [1]) .

ومن خفّت موازينه فقد خفت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يخطىء (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) ، وقد خسروا أنفسهم . فماذا يكسبون بعد ؟

إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه . فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له ؟.. لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله ، إن الحساب يومئذ بالحق وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وإن عملاً لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع فكل شيء مسجل منسوخ (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) .

إن هذه الأجيال الحاشدة التي عمرت هذا الكوكب في عمره الطويل القصير وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة في ارتقاب الحساب الموهوب . وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها في صعيد واحد ، ومرهوب بهيئته ، والكل جاثون على الركب . ومرهوب بما وراءه من حساب . ومرهوب قبل كل شيء بالوقفة أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل ، ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق يقال لهم (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) فيعلمون أن لا شيء سينسى أو يضيع ، وكيف وكل شيء مكتوب . وعلم الله لا يند عنه شيء ولا يغيب . وإن الله يعلن لهم الاهمال والتحقير والمصير الأليم (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) .

---

(١) رواه البزار والبيهقي .

إن الله سبحانه لا يترك ذرة تضيع يوم الحساب (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً. وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين).

والحبة من الخردل تصور أصغر ما تراه العيون وأخفه في الميزان ، وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع والميزان الدقيق يشيل بها أو يميل .

عن سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو دُرّي فيه السموات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة : يا ربّ لمن يزن هذا ؟ فيقول الله : لمن شئت من خلقي ، فيقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك[1]) ..

وعند الميزان لا يذكر أحد أحداً فعن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرتُ النار فبكيت ، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قلتُ ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخفُّ ميزانه أم يثقل ؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز) وفي رواية الحاكم قال : (وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم ، حافتاه كلاليب كثيرة، وحسك كثيرة ، يحبس الله بها من يشاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا ؟[2]) .

هؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء . فقد خسروا أنفسهم .. (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) .

وحين يخسر الانسان نفسه فماذا يملك إذن ؟ وما الذي يتبقى له . وقد خسر التي بين جنبيه ، وخسر ذاته التي تميزه ، كأنما لم يكن له وجود .

فلتنظر نفس ما قدمت لغد . وليصغ قلب إلى النذير . وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة .

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

إن الله يقرر قضية الآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل ولكن هذه الحقيقة لا تعرض هكذا مجردة ، إنما تعرض في المجال الكوني الفسيح وفي صورة مؤثرة يرتعش لها الوجدان وهو يطالع علم الله الشامل الهائل الدقيق اللطيف . (يابني إنها إن تكُ مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتي بها الله إن الله لطيف خبير) وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور ، حبة من خردل . صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة (فتكن في صخرة) صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها (أو في السموات) في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . (أو في الأرض) ضائعة في ثراها لا تبين (يأت بها الله) فعلمه يلاحقها وقدرته لا تفلتها . إن الثقة واليقين بالآخرة لا ريب فيها والثقة بعدالة الجزاء لا يفلت منه مثقال حبة من خردل .

يقول الامام المحاسبي رحمه الله (.. فتوهم الميزان بعظمه منصوباً ، وتوهم الكتب المتطايرة وقلبك واجف متوقع أين يقع كتابك في يمينك أو في شمالك ، فبينا أنت واقف مع الخلائق ! إذ نظرت الى الملك وقد أُمِرَ أن يحضر بالزبانية فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من النار ، فلما رأيتهم فهيئتهم طار قلبك فزعاً ورعباً ، فبينا أنت كذلك إذ نودي باسمك فنوديت على رؤوس الخلائق الأولين والآخرين : أين فلان بن فلان ؟ هلم الى العرض على الله عز وجل ، وقد وكّل الملائكة بأخذك حتى يقربوك إلى ربك فلم يمنعها اشتباه الاسماء باسمك أن تعرفك لما ترى بك أنك المراد بالدعاء المطلوب .

قال : حدثنا طلحة بن عمرو قال : قال لي عطاء بن أبي رباح : يا طلحة ما أكثر الاسماء على اسمي ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان فقام الذي يعني لا يقوم غيره لما لزم قلبك من العلم — فوثبت على قدميك ترتعد فرائصك وتضطرب جوارحك فتغير لونك ، فزع مرعوب مرتكض قلبك في صدرك بالخفقان ، فلما عاينتك الملائكة

الموكلون بأخذك قد حلّ بك الاضطراب بالارتعاد والمخافة ، علمتَ أنك المراد من العباد فأهوت اليك بأيديها فقبضت عليك بعنفها ثم جذبتك الى ربك عز وجل كما تجذب الدواب المنقادة تتخطى بك الصفوف محثوثاً الى العرض على الله عز وجل والوقوف بين يديه ، وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم وأنت مجبوذ الى ربك عز وجل فيما بينهم .

فتوهم حين وقفتَ بالاضطراب والارتعاد يرعد قلبك ، وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك وغلظ أكفهم حين أخذوك ، فتوهم نفسك محثوثة في أيديهم وتوهم تخطيك الصفوف ، طائر فؤادك منخلع قلبك ، فتوهم نفسك في أيديهم كذلك حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فقذفوا بك من أيديهم ، وناداك الله عز وجل بعظيم كلامه : ادن مني يا ابن آدم ، فغيّبك في نوره ، فوقفت بين يدي رب عظيم جليل كبير كريم بقلب خافق محزون ، وجل مرعوب ، وطرف خائف ، خاشع ذليل ، ولون متغير ، وجوارح مرتعدة مضطربة ، كالحمل الصغير حين تلده أمه ، ترتعد بيدك صحيفة محبّرة لا تغادر بلية كسبتها ولا مخبأة أسررتها ، فقرأت ما فيها بلسان كليل وحجة داحضة وقلب منكسر . فكم لك من حض وخجل وجبن من المولى الذي لم يزل إليك محسناً ، وعليك ساتراً ، فبأي لسان تجيبه حين يسألك عن قبيح فعلك ، وعظيم جرمك ، وبأي قدم تقف غداً بين يديه ، وبأي نظر تنظر اليه ، وبأي قلب تحتمل كلامه العظيم الجليل ومساءلته وتوبيخه ؟ فتوهم نفسك بصغر جسمك ، وارتعاد جوارحك ، وخفقان قلبك ، وقد سمعت كلامه بتذكير ذنوبك ، وإظهار مساوئك ، وتوقيفك وتقريرك بمخبآتك ، فتوهم نفسك بهذه الهيئة والأهوال بك محدقة من خلفك ، فكم بلية قد نسيتها ، قد ذكّركها ، وكم من سريرة قد كنت كتمتها قد أظهرها وأبداها ، وكم من عمل قد ظننت أنه قد خلص لك وسلم بالغفلة منك الى ميل الهوى عما يفسده قد رده في ذلك الموقف عليك وأحبطه ، بعد ما كان تأمُّلك فيه عظيماً ، فياحسرات قلبك وتأسفك على ما فرطت في طاعة ربك ، حتى إذا كرّر عليك السؤال بذكر كل بلية ونشر كل مخبأة فأجهدك الكرب ، وبلغ منك الحياء منتهاه لأنه الملك الأعلى فلا حياء يكون من أحد أعظم من الحياء منه لأنه القديم الأول الباقي الذي ليس له مثل ،

المحسن المتعطف المتحنن الكريم الجواد المنعم المتطول ، فما ظنك بسؤال من هو هكذا أبان عن مخالفتك إياه ، وقلة هيبتك له ، وحيائك منه ، ومبارزتك له ، فما ظنك بتذكيره إياك مخالفته وقلة اكتراثك في الدنيا بالطافه عليك ونظرك إليه ؛ إذ يقول : يا عبدي أما أجللتني أما استحييت مني ، أستخففت بنظري اليك ، ألم أحسن اليك ، ألم أنعم عليك ، ما غرّك مني ، شبابك فيما أبليته ، وعمرك فيما أفنيتـه ، ومالك من أين اكتسبته ، وفيم أنفقته ، وعملك ماذا عملتَ فيه .

عن ابن مسعود أنه بدأ باليمين ، فقال : والله مامنـكم من أحد إلا سيخلو به الله عز وجل كما يخلو أحدكم بالقمر يراه ثم يقول : ياابن آدم ماغرّك بي ، ياابن آدم ما عملتَ لي ، ياابن آدم مـا استحييتَ مني ، ياابن آدم ماذا أجبت المرسلين ، ياابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك وأنت تنظر بهما الى مالا يحلّ لك ، ألم أكن رقيباً على أذنيك وأنت تستمع بهما إلى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على لسانك وأنت تنطق بما لايحل لك ، ألم أكن رقيباً على يديك وأنت تبطش بهما الى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على رجليك وأنت تمشي بهما الى مالا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على قلبك وأنت تهمّ بـمـالا يحل لك ؟ أم أنكرت قربي منك وقدرتي عليك وأنت ياابن آدم بين خطرين عظيمين : إما أن يتلاقاك برحمته ويتطول عليك بجوده ، وإما أن يناقشك الحساب ، فيأمر بك الى الهاوية وبئس المصير . . فما ظنك بنفسك وضعف قلبك ، والله عز وجل يكرر عليك إحسانه اليك ، ومخالفتك له ، وقلة حيائك منه ، فاعظم به موقفاً ، وأعظِـــم به من سائل لاتخفى عليه خافية ، وأعظم بما يداخلك من الحزن والغم والتأسف على مافرّطت في طاعته وركوبك معصيته ، فإذا تبالغ فيك الجهد من الغم والحزن والحيـاء بدا لك منه أحد الأمرين : الغضب أو الرضا عنك والحب لك ، فإما أن يقول : ياعبدي أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فقد غفرت لك كبير جرمك وكثير سيئاتك ، وتقبّلت منك يسير احسانك فيستطير بالسرور والفرح قلبك فيشرق لذلك وجهك ، فتوهم نفسك حين قالهـا لك ، ناابتدأ إشراق السرور ونوره في وجهك بعد كآبته وتكسّفه من الحياء من السؤال

والحصر من ذكر مساوىء فعلك ، فاستبدلت بالكآبة والحزن سروراً في قلبك ، فأسفر وجهك وابيض لونك ، فتوهم رضـــاه عنك حين سمعته منه ، فثار في قلبك ، فامتلأ سروراً وكدت أن تموت فرحـــاً وتطير سروراً ، ويحق لك ، فأي سرور أعظم من السرور والفرح برضا الله عز وجل ؟ فوالله تعالى لو أنك مت فرحاً في الدنيا حين توهم رضاه في الآخرة لكنت بذلك حرياً ، وإن كنت لم تستيقن برضاه في الآخرة ، ولكن آملاً لذلك ، فكيف بك مستيقناً له في الآخرة ، ولو توهمت نفسك ، وقد بدا لك منه الرحمة والمغفرة كنت حقيقاً أن تطير روحك من بدنك فرحاً ، فكيف ان لو قد سمعت من الله عز وجل الرضا عنك والمغفرة لك ، فأمن خوفك وسكن حذرك وتحقق أملك ورجاؤك بخلود الأبد ، وأيقنت بفوزك ونعيمك أبداً لا يفنى ، ولا يبيد بغير تنقيص ولا تكذيب ؛ فتوهم نفسك بين يدي الله عز وجل ، وقد بدا لك منه الرضا ، وطار قلبك فرحاً ، وابيض وجهك ، وأشرق وأنار وأحال عن خلقته ، فصار كأنه القمر ليل البدر ، ثم خرجت على الخلائق بوجه محبور قد حل به أكمل الجمال والحسن ، يسطع نوراً مشرقاً بتلألئه تتخطاهم بالجمال والحسن والنور والضياء كتابك بيمينك ، أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق : هذا فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، لقد شهرك ربك عز وجل بالرضا عنك عند خلقه ، ولقد حقق حسن ظن الظانين وأبطل تهم المتهمين لك ، وإن في هذه المنزلة غدا على رؤوس الخلائق لعوضـــاً من المنزلة عند العباد بطاعته والتصنع لهم زهداً في المنزلة عندهم ، والتعظم عندهم بطاعة ربه عز وجل بصدق معاملته وحده لا شريك له ، عوضك المنزلة الكبرى على رؤوس الخلائق فشهرك برضاه عنك وموالاته إياك ؛ فتوهم نفسك وأنت تتخطى الخلائق ، وكتابك في يمينك بجمال وبهاء ونوره ، وفرح قلبك وسروره . .

عن ابن مسعود أنه قال : ينشر الله عز وجل كنفه يوم القيامة على عبده المؤمن ويبسط كفه لظهرها ، فيقول يا ابن آدم هذه حسنه قد عملتها في يوم كذا وكذا قد

قبلتها ، وهذه خطية قد عملتها في يوم كذا وكذا قد غفرتها لك فيسجد ، فيقول الناس : طوبى لهذا العبد الصالح الذي لم يجد في صحيفته إلا حسنة .

عن عبد الله بن حنظلةقال: إن الله عز وجل يقف عبده يوم القيامة فيبدي حسناته في ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هذا ، فيقول : نعم أي رب ، فيقول : إني لم أفضحك به اليوم وإني قد غفرت لك اليوم ، فيقول عندها : هلموا اقرأوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه ، حين نجا من فضيحة يوم القيامة .

وأما الأمر الآخر فإما أن يقول لك : عبدي أنا غضبان عليك فعليك لعنتي ، فلن أغفر لك عظيم ما آتيت ، ولن أتقبل منك ما عملت ،فيقول لك في ذلك عند بعض ذنوبك العظيمة [أن يقول لك] : أتعرفها ؟ فتقول : نعم وعزتك ، فيغضب عليك فيقول : وعزتي لاتذهب بها مني ، فنادى الزبانية فيقول : خذوه،فماظنك بالله عزوجل يقولها بعظيم كلامه وهيبته وجلاله . فتوهم إن لم يعف عنك ، وقد سمعتها من الله عز وجل بالغضب ، وأسند اليك الزبانية بغضاضتها وغلظ أكفها ، فلم تشعر حين قالها إلا ومجسة غلظ أكفهم في قفاك وعنقك ، فتوهم نفسك مستجذباً ذليلاً موقناً بالهلاك وأنت في أيديهم وهم ذاهبون بك الى النار مسود وجهك تتخطى الخلائق بسواد وجهك وكتابك في شمالك تنادي بالويل والثبور ، والملك آخذ بضبعيك ينادي : هذا فلان بن فلان شقى شقاء لايسعد بعده أبداً .

لقد شهرك بالغضب والسخط عليك ، ولقد تمت فضيحتك عند خلقه ، فأخلف حسن ظن الظانين بك ، وحقق تهم المتهمين لك ، ولعله إن فعل ذلك بك فعله بتصنعك لطاعته عند عباده بطلب المنزلة عندهم بسقوط المنزلة والجاه عنده ، ففضحك عند من آثرته عليه في المعاملة ، ورضيت بحمده على طاعة ربك عز وجل عوضاً من حمده إياك تبارك وتعالى . فتوهم ذلك ثم توهمه واذكر هذا الخطر ، وكن مفكراً حذراً أي الأمرين يرتفع بك وأي الأمرين قد أعد لك .

عن كعب قال : إن الرجل ليؤمر به الى النار فيبتدره مائه ألف ملك .

قال أبو عبد الله : وقد بلغني أنه إذا وقف العبد بين يدي الله عز وجل فطال وقوفه ، تقول الملائكة مالك من عبد عليك لعنة الله أبكل هذا بارزت الله عز وجل وقد كنت تظهر في الدنيا علانية حسنة ؟

قال أبو عبد الله : ولقد بلغني أيضاً أنه إذا حوسب فوبخ بكثرة أعماله الخبيثة ، تقول الملائكة : مالك من آدمي عليك لعنة الله ، أبكل هذا بارزت الله عز وجل ، وقد كنت تظهر الحسن في الدنيا ؟ قال : من تحبّب الى الناس بما لايحب الله عز وجل وبارز الله عز وجل بما يكره لقي الله عز وجل وهو عليه ساخط وله ماقت[1]» .

٩ - رقابة الله

إن رحلة الحياة واحدة تبدأ من الميلاد . وتمر بالموت وتنتهي بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ، ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لافكاك عنه ولا محيد ، وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لايتملص ولا يفلت ، وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل . وإنها لرحلة رهيبة تملأ الحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان في قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور ؟ (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذي لاينسى ولا يغفل ولا ينام (لاتأخذه سنة ولا نوم) إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان في الأرض يتتبعه بجواسيسه وعيونه ، ويراقبه في حركته وسكونه ، وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لايراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتمي منه إذا أوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فمه ! أما في قبضة الجبار فهي مُسَلّطة عليه أينما حلّ وأينما سار . وأما رقابة الله فهي مسلطة على الضمائر والأسرار . فكيف بهذا الانسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم)

(١) التوهم : ١٠١ - ٢٦ .

فالله يعلم مابين أيدي الناس وما خلفهم ، وهو تعبير عن العلم الشامل الكامل المستقصي لكل ما حولهم فهو يشمل حاضرهم الذي بين أيديهم وما خلفهم .. من شأنه أن يحدث في النفس رجّة وهزة . النفس التي تقف عارية في كل لحظة أمام بارئها الذي يعلم ما بين يديهـــا وما خلفها . يعلم ما تضمر . علمه بما تجهر ويعلم ما تعلم علمه بما تجهل . ويعلم ما يحيط بها من ماض وآت مما لا تعلمه هي ولا تدريه ، شعور النفس بهذا خليق بأن يحدث فيها هزة ، الذي يقف عرياناً بكل مافي سريرته أمام الديان ، كما أنه خليق بأن يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه . وشعور المؤمن بأن عين الله — سبحانه — على نيتـه وضميره — وعلى حركته وعمله ، يثير في حسه مشاعر حية متنوعة . شعور التقوى والتحرج أن يهجس في خاطره هاجس رياء أو تظـاهر ، وهاجس شح أو بخل ، وهاجس خوف من الفقر أو الغبن . وشعور الاطمئنان على الجزاء والثقة بالوفاء . وشعور الرضى والراحة بما وفـّى الله وقام بشكر نعمته عليه .

إنها لمسات للقلوب .. واشعاراً أن عين الله عليها ، وأن علم الله يتابعهـا ، وهو امعان في التحذير والتهديد واستجاشة الخشية واتقاء التعرض للنقمة فلا ملجـأ من الله ولا نصرة ! (قل إن تخفوا ما صدوركم أو تبدوه يعلمه الله . ويعلم مافي السموات ومافي الأرض والله على كل شيء قدير) . (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) .

إن هذا التوكيد يتفق مع وحدانية الألوهية والقوامة ، فلن يفلت شيء من علم الله في الأرض ولا في السماء ، بهذا الشمول والاطلاق ولن يمكن إذن ستر النوايا عليه . ولا إخفاء الكيد عنه . ولن يمكن كذلك التفلت من الجزاء الدقيق ، ولا التهرب من العلم اللطيف العميق . فالله حاضر . الله شاهد . يا لها من رهبة إذن ومن روعة تحف به . والسرائر مكشوفة فيه لله . وهو يسمع ما تقول الألسنة ويعلم ما تهجس به الضمائر (والله سميع عليم) فهـو سبحانه يسمع منطق الألسنة ، ويعـلم مكنون القلوب وذات الصدور (والله عليم بذات الصدور) .

وذات الصدور هي الأسرار الخفية الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها . التي لا تبارحها ولا تتكشف في النور ! والله عليم بذات الصدور هذه . إنه العلم الإلهي المحيط بكل شيء المطلع على سر الانسان وعلانيته . وعلى ما هو أخفى من السر ، من ذوات الصدور الملازمة للصدور ، (يعلم ما في السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) واستقرار هذه الحقيقة في القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته ، ويمنحه جانباً من التصور الايماني الكوني . ويؤثر في مشاعره واتجاهاته ، فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائرة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

إنه علم الله الشامل الكامل الذي لا تخفى عليه خافية في السماء وفي الأرض ويجول الفكر والخيال في السماء والأرض ، وراء كل غائبة . من شيء ، ومن سر ، ومن قوة ومن خبر ، وهي مقيدة بعلم الله ، لا تند منها شاردة ، ولا تغيب منها غائبة . (وإن ربك ليعلم ما تُكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) . إنه الله يعلم المشاعر الخافية ، والخواطر الكامنة ، والأسرار الدفينة . وهي على خفائها وكتمانها مكشوفة لعلم الله المطلع على ذات الصدور ، (واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور) .

إنها رقابة الله تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها ، وتتعقبها في سرها وجهرها ، وفي باطنها وظاهرها . رقابة الله ، التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الانساني الضعيف اطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً . ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً . كل نفَس معدود ، وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب ، وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب ، كما هي

مضروبة على حركة الجوارح ، ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة . في كل وقت وفي كل حال .

إن هذه المراقبة تروع النفس روعة المفاجأة ، وتهز النفس هزاً ، وترجها رجاً ، وتثير فيها رعشة الخوف ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب . إن الله معه ، ناظراً اليه ، مطلعاً عليه ، بصيراً بعمله ، قريباً جدّ قريب ، (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) ، وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله سبحانه مع كل أحد ، ومع كل شيء ، في كل وقت وفي كل مكان ، مطلع على مايعمل بصير بالعباد . وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب ،ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشري أن ترفعه وتطهره ، وتدعه مشغولاً بها عن كل أعراض الأرض، كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل اسفاف.

إن هذا الأمر يقيمه على الطريق إلى الله في سره وعلنه ، وحركته وسكونه ، وخوالجه ونجواه . وهو يعلم أنه لا مهرب من الله إلا اليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حماه.

ويشير القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعاً . الطمأنينة وهو في رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ، والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ويطلع على سره ونجواه . إنها التربية ، التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة والتطلع والحذر والانتظار .

ما أهولها رقابة ! والله هو الرقيب ! وهو الرب الخالق الذي يعلم ما خلق ،وهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ، لا في ظواهر الأفعال ولا في خفايا القلوب ، (إن الله كان عليكم رقيباً)،(وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون) فهوسبحانه لا يخفى عليه شيء،ولا شيء مما يخفونه في صدورهم،وهو يدبر ويقدر باطلاعه على الظواهر ، وعلمه بالسرائر ، وهو السميع العليم . فهو المطلع على السرائر،

المحيط بكل مضمر وظاهر ، الذي لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناوله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء (وما تكون في شأن ، وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) .

هذه اللمسة الجديدة للمشاعر والضمائر في هذه الآيات تشعر بمراقبة الله . إنه شعور مطمئن ومخيف معاً ، مؤنس ومرهب معاً ، وكيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه ، شاهد أمره وحاضر شأنه . الله بكل عظمته ، وبكل هيبته ، وبكل جبروته ، وبكل قوته ، الله خالق هذا الكون وهو عليه هين . الله مع هذا المخلوق البشري . إن القلوب ترتجف حين تتدبر ذلك وتتصور . يا لها من رهبة غامرة ، حين يتصور القلب البشري حضور الله سبحانه ، وإحاطة علمه وقهره (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور) .

إن الله سبحانه يصور الوضع الخفي الدقيق من أوضاعهم ، حين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، والليل لهم ساتر ، ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر يعلم في هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون .. والله يعلم ماهو أخفى . وليست أغطيتهم بساتر دون علمه . ولكن الانسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه احد . فالقرآن يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها فيخيل اليه أن ليس هناك من عين تراه : والله عليم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التي لا تفارقها والتي تلزمها كما يلزم الصاحب صاحبه ، أو المالك ملكه : فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور ومع ذلك فالله عليم بها .. وإذن فما من شيء يخفى عليه ، وما من حركة أو سكنة تذهب أو تضيع (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) .

إن الله يعلم سركم وجهركم ، فما يخفى عليه منكم خافية . فأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه . فالله مع الانسان يسمعه ويراه (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وهو سبحانه رقيب على كل نفس مسيطر عليها في كل حال عالم بما كسبت في السر والجهر (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) . إنها الرقابة والسيطرة والعلم : صورة ترتعد لها الفرائص . فلنتصور كل نفس ، مسيطر عليها في كل حال ، عالم بما كسبت في السر والجهر .. فلنتصور كل نفس أن عليها حارساً قائماً عليها مشرفاً مراقباً محاسباً بما كسبت . ومن ؟ إنه الله ! فأية نفس لاترتعد لهذه الصورة وهي في ذاتها حق . إن الله قائم على كل نفس بما كسبت . لاتفلت منه ولا تروغ ، فالله هو الذي خلق النفوس ويعلم مداخلها ومكامنها التي أودعها إياها (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .. وأسروا او اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما أخفى من الجهر والسر . إنه عليم بذات الصدور . التي لم تفارق الصدور ! عليم بها . فهو الذي خلقها في الصدور ، كما خلق الصدور . ألا يعلم وهو الذي خلق .. الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفي المستور . إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أو سر أو نية في الضمير ، يبدون مضحكين ! فالضمير الذي يخفون فيه نيتهم من خلق الله وهو يعلم دروبه وحناياه . والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فماذا يخفون ؟ وأين يخفون ؟

والقرآن يُعنى بتقرير هذه الحقيقة في الضمير لأن استقرارها فيه ينشىء له إدراكاً صحيحاً للأمور . فوق ما يودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى ، تُناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض . أمانة العقيدة وأمانة العدالة ، وأمانة التجرد لله في العمل والنية .. وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سر ونية هو من خلق الله الذي يعلمه الله وهو اللطيف الخبير . عندئذ يتقي المؤمن النية

المكنونة ، والهاجس الدفين ، كما يتقي الحركة المنظورة والصوت الجهير . وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر والجهر . الله الذي خلق الصدور فهو يعلم ما في الصدور .

١٠ — تسجيل واحصاء دقيق

إن الله هو المنشىء الموجد الخالق . إنّ الانسان خارج من يد الله أصلاً ، فهو مكشوف الكُنه والوصف والسر لخالقه العليم بصدره ومنشئه وحاله ومصيره .. (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ..) وهكذا يجد الانسان نفسه مكشوفة لايحجبها ستر ، وكل مافيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيداً ليوم الحساب الذي ينكره ويجحده . (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . الوريد الذي يجري في دمـــه وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الانسان هذه الحقيقة لابد أن يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ماجرؤ على كلمة لايرضى الله عنها . بل ماجرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال بالقبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بهـا الانسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لاتغفل عن المحاسبة . ولكن القرآن يستطرد في إحكام الرقابة . فاذا الانسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطـــع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به . عن اليمين وعن الشمال يلتقيان منه على كل كلمة وكل حركة ويسجلانهـا فور وقوعها .. (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وحسبنا أن نعيش في هذه الحقيقة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة ، وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنـــا من يسجل علينا الكلمة والحركة ، لتكون في سجل حسابنا ، بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير . والذين انتفعوا بهـــذا

القرآن ، وبتوجيهات رسول الله ﷺ الخاصة بحقائق القرآن ، كان سبيلهم أن يشعروا وأن يعملوا وفق ما يشعروا .

قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية : عن بلال ابن الحارث المزني رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه)،قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال ابن الحارث (1) .

وحكي عن الامام أحمد أنه كان في سكرات الموت يئن . فسمع أن الأنين يُكتب . فسكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه . وهكذا كان أولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة فيعيشون بها عن يقين .

فكل نفس عليها من أمر الله رقيب ، (إن كل نفس لما عليها حافظ) وما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها ، ويحصي عليها ، ويحفظ عنها . وهو موكل بها بأمر الله . ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار وهي التي يناط بها العمل والجزاء .

ليست هناك فوضى إذن ولا هيصة ، والناس ليسوا مطلقين في الارض هكذا بلا حارس ، ولا مهملين في شعابها بلا حافظ ، ولا متروكين يفعلون كيف شاؤوا بلا رقيب ، إنما هو الاحصاء الدقيق المباشر والحساب المبني على هذا الاحصاء الدقيق المباشر . ويلقي النص ايحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبداً في خلوة — وإن خلت — فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمن من كل طارق ، هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور .

---

(1) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث محمد ابن عمرو وبه وقال الترمذي : حسن صحيح .

فالله سبحانه صاحب السلطان القاهر ، وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف في قبضة هذا السلطان ، لاقوة لهم ولا ناصر . هم عباد . والقهر فوقهم. وهم خاضعون له مقهورون (وهو القاهر فوق عباده . ويرسل عليكم حفظة) وهــذه هي العبودية المطلقة للألوهية القاهرة . وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس ، مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا ، ومن العلم ليعرفوا ، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة ، إن كل نفس من أنفاسهم بقدر ، وكل حركة في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه . وإن كان هذا الناموس يجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة .

وظل الرقابة المباشرة على كل نفس (ويرسل عليكم حفظة) ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة ، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة . فهناك حفيظ عليها رقيب يحصي كل حركة وكل نأمة ، ويحفظ ما يصدر عنها لا يندّ عنه شيء . وهـــذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشري . وتستيقظ فيه كل خالجة ، وكل جارحة وإن علة الغرور ، وعلة التقصير ، هو التكذيب بالحساب والمؤاخذة والجزاء (كلا بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) .

فما يكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف . فتطيع ربها وتعبده حباً فيه ، لا خوفاً من عقابه ، ولا طمعاً في ثوابه . ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه ، وتتطلع اليه ، لتلقى ربها الذي تحبه وتشتاق للقاءه وتتطلع اليه . فأما حين يكذب الانسان تكذيباً بهذا اليوم ، فلن يشتمل على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب ، ولن يستيقظ فيه ضمير ، تكذبون بيوم الدين ، وأنتم صائرون إليه ، وكل ما عملتم محسوب عليكم فيه . لايضيع منه شيء ، ولا ينسى منه شيء . وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالانسان — من الملائكة — التي ترافقه ، وتراقبه ، وتحصي عليه كل ما يصدر عنه — ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سدى . وإن عليه حفظة كراماً كاتبين يعلمون مايفعله ،

ليرتعش ويستيقظ ، ويتأدب ! وهذا هو المقصود ، والله يذكر أن من صفة الحافظين كونهم « كراماً » ليستجيش في القلوب احساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام. فإن الانسان ليحتشم ويستحي وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسفّ أو يتبذّل في لفظ أو حركة أو تصرف ، فكيف به حين يشعر أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة كرام لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كريم من الخصال والفعال ؟

إن القرآن ليستجيش في القلب البشري أرفع المشاعر باقرار هذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعي الحي القريب إلى الادراك المألوف ، ومن ثم يقرر الله تفرده بالأمر في ذلك اليوم العصيب ليحاسب الانسان على ما قد سجل عليه الحفظة وعلى ما اطّلع الله به عليه . (وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) .

والنفس في ذلك اليوم في العجز الشامل . وهو الشلل الكامل ، والأمر يومئذ لله ، يتفرد به سبحانه ، وهو المتفرد بالأمر في الدنيا والآخرة ولكن في هذا اليوم — يوم الدين تتجلى هذه الحقيقة التي قد يغفل عنها في الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء ، ولا تغيب عن مخدوع ولا مفتون .

إن المؤمن حين يشعر برقابة الله يعيش قلبه في حساسية مرهفة ، وتوفز دائم ، وخشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ، وأن يمضي في الحياة معلقاً في كل حركة وكل خالجة بالله ، شاعراً بقدرته وهيمنته ، شاعراً بعلمه ورقابته ، شاعراً بقهره وجبروته ، شاعراً برحمته وفضله ، شاعراً بقربه منه في كل حال ، شاعراً برقابة الله التي لا يغيب عنها شيئاً (إنه يعلم الجهر وما يخفى) .. (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) .. (عالم الغيب والشهادة) .

ويستقر في الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله في السر والعلانية ويعمل الانسان كل ما يعمل بشعور المراقَب من الله ،

المراقب لله . الذي لا يعيش وحده ، ولو كان في خلوة أو مناجاة ! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذي لا يغفل بعده قلب ولا ينام . وكيف يغفل الانسان وينام والله بالمرصاد (إن ربك لبالمرصاد) يرى ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطىء ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور ولكن بحقائق الأشياء ، وإن رقابة الله لا تدع النفس الانسانية لحظة واحدة من المولد إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة تطبق على هذا المخلوق الانساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في هذه القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً ، ولا تفارقه كثيراً أو قليلاً . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة ، وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب . كما هي مضروبة على حركة الجوارح ، ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة في كل وقت وفي كل حال .

١١ — الصراط

يقول الله سبحانه (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم نُنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب فهم يردُون فيدنون ويمرون بها وهي تتأجج وتتلمظ ، ويرون العتاة يُنزعون ويقذفون .

عن قيس — هو ابن أبي حازم — قال : كان عند عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته ، فبكى ، فبكت امرأته ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكي فبكيت ، قال : إني ذكرت قول الله تعالى (وإن منكم إلا واردها) ولا أدري أنجو منها أم لا ؟[1]) .

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما .

ولو لم يكن بين يدي الانسان إلا هول الصراط لكفاه هولاً وفزعاً ورعباً . حيث لا يسأل أحد أحداً .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرتُ النار فبكيت فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قلت : ذكرتُ النار ، فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : أما في ثلاثة مواطن ، فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخفُ ميزانه أم يثقل ؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز[1]) . .

عن أنس رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل إن شاء الله تعالى ، قلتُ فأين أطلبك ؟ قال: أول ماتطلبني على الصراط قلت : فإن لم ألقك على الصراط قال : فاطلبني عند الميزان : قلت فان لم ألقك عند الميزان ، قال : فاطلبني عند الحوض ، فإنني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن[2]) . وعلى الصراط الكلاليب والخطاطيف تخطف الناس إلى جهنم . قال رسول الله ﷺ « يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ سَلِم سَلِّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان[3] هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم : قال : فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق[4] بعمله ومنهم من يخردل[5] ثم ينجو[6]) .

---

(١) أخرجه أبو داود ، وهو حديث حسن له شواهد ، يشهد له الحديث الذي بعده .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

٣) شوك السعدان : شوك ترعاه الابل .

(٤) يسقط .

(٥) يخردل : يخدش .

(٦) البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يَمُر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يميناً وشمالاً وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سَلِّم سَلِّم . فمن الناس من يمرُّ مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ، ومنهم من يسعى سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون . وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيموتون فيكونون فحماً ثم يؤذن في الشفاعة[1] » .

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : شعار المؤمنين على الصراط يوم القيامة ربِّ سلم سلم[2] » .

عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ (يجمع الله الناس ــ فذكرا الحديث إلى أن قالا ــ فيأتون محمداً ﷺ ، فيقوم ويؤذن له وترسل معه الأمانة والرحم ، فيقوم جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمرُّ أولكم كالبرق ، قال : قلت بأبي أنت وأمي . أيُّ شيء كمرِّ البرق ؟ قال ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ، ثم كمرِّ الريح ، ثم كمرِّ الطير وشدِّ الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول : ربِّ سلِّم سلِّم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أُمرت به فمخدوش ناج ، ومكدوش في النار ، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعين خريفاً[3]) .

حيث تخطف كلاليب جهنم المجرمين (هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) اخرجه الترمذي وهو حديث حسن بشواهده .

(٣) رواه مسلم .

إنه موقف يؤذي . ثم مشهد عجيب ، تشهد عليهم جوارحهم ، .وتتفكك شخصيتهم مزقاً وآحاداً يكذب بعضها بعضاً .-وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى ربه مستسلماً . إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب. الألسنة معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون .

مشهدهم عميان مطموسين ، ثم هم مع العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ، ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون ويتساقطون تساقط العميان حين يسرعون متنافسين (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون) ، ثم مشهدهم قد جمدوا فجأة في مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضي ولا تعود ، بعد أن كانوا منذ لحظة عمياناً يستبقون ويضطربون (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) وإنهم ليبدون كالدمى واللعب في حال تثير السخرية والهزء .

أما المؤمنون فتُزحزح عنهم النار وينجون (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) .

إنه تكريم عظيم أن يضم الله المؤمنين إلى النبي ﷺ فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة في يوم الخزي ثم يجعل لهم نوراً ، نوراً يُعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب . ونوراً يهتدون به في الزحام المريج ، ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف .

هؤلاء المؤمنون ، نراهم ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً . ذلك نورهم يشعُّ منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخوص الانسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعّت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها ، إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها . (يوم ترى

المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) .. ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه الى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم) . وهم في رهبة الموقف وشدته يُلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قَدره بأنه يستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمنُّ بها الله عليهم تضاف إلى منّة الله بالتكريم وبالنور وبالنجاة من العذاب .

عن أم مبشّر الأنصارية رضي الله عنها : أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة : (لا يدخل النار إن شـــاء الله من أهل الشجرة أحد والذين بايعوا تحتها) قالت : بلى يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة (وإن منكم إلا واردها) فقال النبي ﷺ قد قال الله تعالى (ثم نُنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا[1]) .

إنها نعمة النجاة من بعد الورود على جهنم ، نعمة النجاة . فالناس سيقوا إلى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحدُّ من السيف وأدق من الشعر . فمن استقام خفّ على الصراط ونجا ، ومن ابتعد عن الاستقامة وأثقل على ظهره الذنوب وعصى تعثر على الصراط وسقط .

يقول الامام الحارث المحاسبي[2] (.. فتوهم ما حلّ من الوجل بفؤادك حين رفعتَ طرفك فنظرت اليه مضروباً على جهنم بدقته ودحوضه ، وجهنم تخفق بأمواجها من تحته ، فياله من منظر ما أفظعه وأهوله ، وقد علمت أنك راكب فوقه وأنت تنظر الى سواد جهنم من تحته ، وتسمع قصيف أمواجها وجلبة ثورانها من أسفلها ، والملائكة تنادي : ربنا من تريد أن تجيزه على هذا ؟ وتنادي : ربنا ربنا سلّم سلّم ؛

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه .

(٢) التوهم ٢٧ — ٢٩ .

فبينا أنت تنظر اليه بفظاعة منظره ، قيل لك وقيل للخلق معك : اركبوا الجسر . فتوهم خفقان فؤادك وفزعه ، وقد قيل لك اركب الجسر ، فطار عقلك رعباً وفزعاً ، ثم رفعت أحد قدميك لتركبه فوجدت بباطن قدميك حدته ودقته فطار قلبك فزعاً ، ثم ثنيت الأخرى فاستويت عليه راكباً وقد أثقلتك أوزارك وأنت حاملها على ظهرك ، وتهافت الناس من بين يديك ومن ورائك ؛ فتوهم صعودك بضعفك عليه ، وقد نظرت إلى الزالين والزالات من بين يديك ومن خلفك وقد تنكست هاماتهم وارتفعت على الصراط أرجلهم ، وثارت النار بطلبتها وفارت وشهقت على هاماتهم ، ورمتهم الملائكة بالكلاليب فجذبتهم وثارت اليهم النار بطلبتها وحريقها ، وزفرت وشهقت على هاماتهم وبادرت شرر النار الى هاماتهم فتناولتها ثم جذبت هاماتهم الى جوفها ، وهم ينادون ويصرخون وقد أيسوا من أنفسهم ، وهم لاجتذاب النار لهاماتهم فيها ينحدرون وهم بالويل ينادون ، وأنت تنظر اليهم مرعوباً خائفاً أن تتبعهم فتزل قدمك فتهوي من الجسر وتنكسر قامتك وترتفع على الصراط رجلاك .

فتوهم ذلك بعقل فارغ وشفقة على ضعف بدنك بخفّف في الدنيا للمرور عليه ، فان أهوال القيامة إنما تخفف على أولياء الله عز وجل الذين توهموها في الدنيا بعقولهم فعظم خطر النجاة عندهم ، فتحملوا من ثقل همومها في الدنيا على قلوبهم وحرقة خوفها على ضرورتهم فخففها في القيامة بذلك عليهم مولاهم ، فألزم قلبك توهمها والخوف منها والغم بها لأن الله يخففها عليك بذلك ويهونها لأنه آلى على نفسه ألا يجمع على أوليائه الخوف في الدنيا والآخرة .

فتوهم ممرك على الجسر بشدة الخوف وضعف البدن ، وان يكن مغضوباً عليك غير معفي عنك ، ولم تشعر إلا وقد زلّت قدمك عن الصراط ، فتوهم نفسك إن لم يعف عنك أن زلت رجلك عن الصراط فقلت في نفسك مع ذلك ذهبت أبدا . هذا الذي كنت أحاذر وأخاف ، وطار عقلك ، ثم زلّت الأخرى فتنكست هامتك ، وارتفعت عن الصراط رجلاك فلم تشعر إلا والكلّوب قد دخل في جلدك ولحمك ،

فجذبت به وبادرت اليك النار ثائرة غضبانة لغضب مولاها ، فهي تجذبك وأنت تهوي من الجسر وتنادي حين وجدت مس نفحها : ويلي ويلي ، وقد غلب على قلبك الندم والتأسف إلا كنت أرضيت الله عز وجل ، فرضي عنك وأقلعت عما يكره قبل أن تموت ، فغفر لك ، حتى إذا صرت في جوفها التحمت عليك بحريقها ، وقلبك قد بلغ غاية حرقته ومضيضه ، فتورمت في أول ما ألقيت فيها ، ونادى الله عز وجل النار وأنت مكبوب على وجهك تنادي بالويل والثبور ، فناداها : هل امتلأت ؟ فسمعت نداءه وسمعت إجابتها له : هل من مزيد ؟ يقول : هل من سعة وأنت في قعرها ، وهي تتلهب في بدنك . لها قصيف في جسدك ثم لم تلبث أن تقطر بدنك وتساقط لحمك وبقيت عظامك ، ثم أطلقت النار على ما في جوفك فأكلت ما فيه ، فتوهم كبدك والنار تداخل فيها وأنت تنادي فلا ترحم وتبكي وتعطي الندم ، إن رددت ألا تعود ، فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال (هل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر وليس دونه سحاب ؟) قالوا : لا يا رسول الله ، قال : (هل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟) قالوا لا ، قال : (فإنكم ترونه كذلك ، يحشر الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم من يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم. فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيدعوهم ، ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، لا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلّم سلّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان[1] ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها

(١) السعدان : نبت ذو شوك معقف .

إلا الله ، تخطف النــاس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق[١] بعمله ، ومنهم من يخردل[٢] ، ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم بآثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا[٣] ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة مقبل بوجهه قبلَ النــار ، فيقول : يا ربِّ اصرف وجهي عن النار قد قشبني ريحها[٤] وأحرقني ذكاهـا[٥] فيقول : هل عسيتَ أن أفعل أن تسأل غير ذلك ؟ فيقول : لا وعزتك ، فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق ، فيصرف الله وجهه عن النار ، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكتَ ما شاء الله أن يسكت ، ثم قال : يا رب قدِّمني عند باب الجنة ، فيقول الله : أليسَ قد أعطيت العهد والميثــاق أن لا تسأل غير الذي كنت قد سألت ؟ فيقول : يا ربِّ لا أكون أشقى خلقك . فيقول : ما عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غير هذا ، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق ، فيقدمه الى باب الجنة ، فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فسكت ما شاء الله أن يسكت ، فيقول : يا رب أدخلني الجنة ، فيقول الله : ويحك يا ابن آدم ما أغدرك! أليس قد أعطيتني العهود أن لا تسأل غير الذي أعطيت ؟ فيقول يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله منه ، ثم يأذن له في دخول الجنة ، فيقول : تمنَّ ، فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيتــه ، قال الله : تمنَّ من كذا وكذا يُذَكِّره ربه ، حتى إذا انتهت به الأماني قال الله : لك ذلك ومثله معه[٦]) .

---

(١) يوبق : يهلك .

(٢) المخردل : المرمي المصروع : والمعنى انه تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوي في النار .

(٣) امتحش : احترق .

(٤) قشبني ريحها : أي آذاني .

(٥) ذكاها : اشعالها ولهبها .

(٦) رواه البخاري .

١٢ — الشفاعة

يقول الله سبحانه (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) ويقول تبارك أسماؤه (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أَذِنَ له الرحمن ورضي له قولا) .

إن الشفاعة هي مظهر من مظاهر الرحمة الالهية التي يغمر بها الله سبحانه العصاة والمذنبين من خلقه ، وهي كذلك مكرمة لرسوله ﷺ في أن يشفع لأمته .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كل نبي سأل سؤالاً — أو قال : لكل نبي دعوة قد دعاها لأمته — وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي[1] .

ولمسلم قال : قال رسول الله ﷺ : أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة) .

وعن عبـــد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى وانصرف اليهم ، فقال لهم : (لقد أُعطيت الليلة خمساً ما أُعطيهن أحد قبلي : أما أنا فَأُرسِلتُ إلى الناس كلهم عامة ، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه ، ونُصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر للمِلء منه ، وأُحلت لي الغنائم أكلها ، وكان من قبلي يُعظمون أكلها ، وكانوا يحرقونها ، وجُعلت لي الأرض مساجد وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيَعهم، والخامسة هي ما هي قيل لي : سَل ، فان كل نبي قد سأل ، فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله[2]) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (خُيرت بين الشفاعة أو

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه احمد باسناد صحيح .

يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أما إنها ليست للمؤمنين المتقدمين ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين[1]) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي [2]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال : (لكل نبي دعوة مستجابة فَتَعجَّل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا) .

وفي رواية أن أبا هريرة قال لكعب الأحبار : إن نبي الله ﷺ قال : لكل نبي دعوة يدعوها فأريد إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فقال كعب لأبي هريرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم[3]) .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أتاني آتٍ من عند ربي ، فخيرني بين أن يُدخل نصف أمتي الجنة ، وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئاً[4]) .

وشواهد الشفاعة كثيرة يقول الله سبحانه (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ، ويقول عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . والمقام المحمود الذي وعدالله عز وجل رسوله به إنما هو تلك المنزلة العظيمة التي تخوله في أن يشفع لأهل المحشر. وفي أمته خاصة .

عن أنس رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ قال : (إني لقائم انتظر

---

(١) رواه أحمد والطبراني ، واللفظ له ، واسناده جيد .

(٢) رواه ابو داود والبزار والطبراني وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٤) أخرجه الترمذي واسناده حسن .

أمتي تعبر إذ جاء عيسى عليه السلام قال : فقال هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون ــ أو قال : يجتمعون اليك يدعون ــ الله أن يفرّق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء لعظم ما هم فيه ، فالخلق ملجمون في العرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة ، وأما الكافر فيغشاه الموت ، قال : يا عيسى انتظر حتى أرجع اليك ، قال : وذهب نبي الله ﷺ فقــام تحت العرش فلقي ما لم يلق ملك مصطفى ، ولا نبي مرسل ، فأوحى الله إلى جبريل عليه السلام أن اذهب إلى محمد فقل له : ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع ، قال : فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين انساناً واحداً ، قال : فما زلت أتردد على ربي ، فلا أقوم فيه مقاماً إلا شفعت ، حتى أعطاني الله من ذلك أن قال : أدخل من أمتك من خلق الله من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحــــداً مخلصاً ومات على ذلك[1]) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم ، فصلى الغداة ثم جلس حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله ﷺ وجلس مكانه حتى صلى الأولى ، والعصر والمغرب ، كل ذلك لا يتكلم ، حتى صلى العشاء الآخرة ، ثم قام إلى أهله ، فقال الناس لأبي بكر رضي الله عنه : سل رسول الله ﷺ ما شأنه ؟ صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط ، فقال : (نعم ، عُرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة ، فجُمع الأولون والآخرون بصعيد واحد حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام ، والعرق يكاد يلجمهم ، فقالوا : يا آدم ، أنت أبو البشر اصطفاك الله ، اشفع لنا إلى ربك ، فقال : قد لقيت مثل الذي لقيتم ، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم إلى نوح (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) فينطلقون إلى نوح عليه السلام ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله ، واستجاب لك في دعائك فلم يدع (على الأرض من الكافرين ديّاراً) فيقول : ليس ذاكم عندي ، فانطلقوا إلى

(١) رواه احمد ورواته محتج بهم في الصحيح .

ابراهيم ، فان الله اتخذه خليلاً ، فينطلقون إلى ابراهيم عليه السلام فيقول : ليس ذاكم عندي ، فانطلقوا إلى موسى فان الله كَلَّمه تكليماً ، فينطلقون إلى موسى عليه السلام ، فيقول : ليس ذاكم عنـدي ، ولكن انطلقوا إلى عيسى ابن مريم ، فانه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، فيقول : عيسى : ليس ذاكم عندي ، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم ، فانه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، انطلقوا إلى محمد فليشفع لكم إلى ربكم ، قال : فينطلقون إليّ ، وآتي جبريل ، فيأتي جبريل ربه فيقول له : ائذن له وَبشِّره بالجنة ، قال : فينطلق به جبريل فيخرُّ ساجداً قدْرَ جمُعة ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع واشفع تُشفع ، فيذهب ليقع ساجداً ، فيأخذ جبريل بضبعيه ، ويفتح الله عليه من الدعاء ما لم يفتح على بشر قط ، فيقول : أي ربّ جعلتني سيّد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشقّ عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، حتى إنه ليردُ عليّ الحوض أكثر ما بين صنعاء وأيْلة ، ثم يقال : ادعوا الصدّيقين ، فيشفعون ، ثم يقال ادعوا الأنبياء ، فيجيء النبي معه العصابة ، والنبي معه الخمسة والستة ، والنبي ليس معه أحد ، ثم يقال : ادعوا الشهداء ، فيشفعون فيمن أرادوا ، فاذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله جلّ وعلا : أنا أرحم الراحمين أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئا ، فيدخلون الجنة ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : انظروا في النار هل فيها أحد عمِلَ خيراً قط ؟ فيجدون في النار رجلاً ، فيقال له : هل عملت خيراً قط ؟ فيقول : لا ، غير أني كنت أسامح الناس في البيع ، فيقول الله : اسمحوا لعبدي كإسماحه لعبيدي ، ثم يُخرج من النار آخر ، فيقال له : هل عملت خيراً قط ؟ فيقول : لا ، غير أني كنت أمرتُ ولدي إذا متُّ فاحرقوني بالنار ثم اطحنوني حتى إذا كنت مثل الكحل إذهبوا بي الى البحر فذرُّوني في الريح ، فقال الله ، لِمَ فعلتَ ذلك ؟ قال : من مخافتك ، فيقول : انظر الى مُلك أعظم مَلك فإن لك مثله

وعشرة أمثاله ، فيقول : لِمَ تسخر بي وأنت الملك ؟ فذلك الذي ضحكتُ منه من الضحى[1]) .

إنها الشفاعة العظمى للنبي ﷺ عند الله تبارك وتعالى ليريح الناس يوم القيامة من عظيم ما هم فيه من شدة وهول ذلك اليوم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في دعوة ، فرفع إليه الذراع — وكانت تعجبه — فنهس منها نهسة وقال : أنا سيّد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مِمّ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويُسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا تنظرون إلى ما أنتم فيه ، وإلى ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ، فقال : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح أنت أوّل الرسل الى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكورا ، ألا ترى الى ما نحن فيه ، ألا ترى الى ما بلغنا ، ألا تشفع لنا الى ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كان لي دعوة دعوتُ بها على قومي ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم فيقولون : أنت نبيّ الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، واني كنتُ كذبتُ ثلاث

---

(1) رواه احمد والبزار وابو يعلى وابن حبان في صحيحه وقال : قال اسحاق — يعني ابن براهيم — هذا من اشرف الحديث .

كذبات ، فذكرها ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى موسى ، فيقولون يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، أما ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلتُ نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وكلّمتَ الناس في المهد ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً ، نفسي نفسي نفسي . اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى محمد ﷺ فيأتوني ، فيقولون يا محمد ، أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله عليّ من محامده وحُسْنِ الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سَلْ تُعطه ، واشفع تُشفع ، فأرفع رأسي ، فأقول : أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، فيقال : يا محمد أدخِل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب) ثم قال (والذي نفسي بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجر ، أو كما بين مكة وبصرى [1]) .

كما تتمثل الرحمة الالهية في شفاعة المؤمنين لغيرهم : عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيّين ربيعة ومُضر) فقال رجل يا رسول الله ، أو ما ربيعة من مضر ؟ قال : (إنما أقول ما أقول[2]) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه احمد باسناد جيد .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة [1]) .

ورحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء تجلت فيما تجلت بالنبي ﷺ حين أرسله الله لانقاذ الناس من الظلمات إلى النور (وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين) : روى عبد الله بن عمرو بن العاص (أن رسول الله ﷺ تلا قول ابراهيم عليه السلام — (ربِّ إنَّهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وقول عيسى عليه السلام . (إن تعذبهم فانهم عبادك) ثم رفع يديه وقال : أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل ياجبريل اذهب إلى محمد فَسَلْهُ مايُبكيك فأتاه جبريل فأخبره والله أعلم به ،فقال ياجبريل اذهب الى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك [2])

ومن مكرمة الله أن يكون محمداً ﷺ هو الذي يستفتح الجنة :

عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ :(يجمع الله تبارك وتعالى الناس ،قال: فيقوم المؤمنون حتى تُزْلَفَ لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ لستُ بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني ابراهيم خليل الله ، قال : فيقول ابراهيم : لستُ بصاحب ذلك ، إنما كنتُ خليلاً من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى الذي كلّمه الله تكليما ، قال : فيأتون موسى ، فيقول : لستُ بصاحب ذلك ، اذهبوا الى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى : لستُ بصاحب ذلك ، فيأتون محمداً ﷺ ، فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق قال : قلت : بأبي وأمي أي شيء كالبرق ؟قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط

---

(١) رواه البزار ورواته رواة الصحيح .

(٢) رواه مسلم .

يقول : رب سلّم سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكدوش في النار ، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جنهم لسبعين خريفاً[1])

١٣ ـ الحوض

واعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ وهو من مظاهر اكرام الله تعالى له ورحمة بعباده ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقـــه ، فان من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبداً :

عن أنس رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى اغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً ، قلنا ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : لقد أُنزلت عليّ آنفاً سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر) ، ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : فانه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير ، وهو حوض[2] ترد عليه أُمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء ، فيختلج العبد منهم ، فأقول رب إنه من أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدث بعدك[3] .

وفي وصفه بيّن الرسول ﷺ بياناً جميلاً :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) ان ماء الحوض والكوثر شيء واحد كما نص على ذلك هذا الحديث ، وان اصله في الجنة، فما كان جاريا منه في داخلها فهو ماء الكوثر وما انصب منه في خارجها فهو ماء الحوض الذي يرده المؤمنون .

(٣) رواه مسلم .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبداً [1]) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله قد وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب) فقال يزيد بن الأخنس : والله ماأولئك في أمتك إلا كالذباب الأصهب في الذباب ، فقال رسول الله ﷺ (قد وعدني سبعين ألفاً مع كل سبعين ألفاً وزاد في ثلاث حثيات) ، قال : فما سعة حوضك يا نبي الله ! قال : كما بين عدن إلى عمان ، وأوسع وأوسع) يشير بيده ، قال : (فيه مثعبان [2] من ذهب وفضة) ، قال : فما حوضك يا نبي الله ؟ قال : (أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب رائحة من المسك ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، ولم يسود وجهه أبداً [3]) .

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إني لبعُقْرِ [4] حوضي أذود الناس [5] لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض [6] عليهم) فسئل عن عرضه فقال : (من مقامي إلى عمان) وسئل عن شرابه . فقال : (أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، يغث [7] فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورِق [8])

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) المثعب : وهو مسيل الماء .

(٣) رواه احمد ، ورواته محتج بهم في الصحيح وابن حبان في صحيحه

(٤) عقر الحوض : مؤخره .

(٥) اذود الناس لاهل اليمن : اي ادفعهم ليرد أهل اليمن .

(٦) يرفض : اي يسيل ويترشش .

(٧) يغث فيه ميزابان : اي يجريان فيه جريا له صوت .

(٨) رواه مسلم .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما بين جنبتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة) وفي رواية (ما بين المدينة وعمّان) . وفي رواية (تُرى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء) وفي رواية (أو أكثر من عدد نجوم السماء[1]) .

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفس محمد بيده ، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ، في الليلة المظلمة المصحية ، آنية الجنة ، من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه ، يشخب[2] فيه ميزابان من الجنة ، عرضه مثل طوله ، ما بين عمّان الى أيلة ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل[3]) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (حوضي كما بين عدن وعمّان ، أبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحاً من المسك ، أكوابه مثل نجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً . أول الناس عليه وروداً صعاليك المهاجرين) قال قائل : من هم يا رسول الله ؟ قال : (الشّعثة رؤوسهم ، الشحبة[4] وجوههم ، الدنسة ثيابهم ، لا تُفتّح لهم السُّدد[5] ، ولا ينكحون المنعّمات ، الذين يعطون كل الذي عليهم ، ولا يأخذون كل الذي لهم[6]) .

ولا يُحرم من ورود حوض النبي ﷺ إلا من عصى وارتد وبدّل من دين الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يَردُ عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي — أو قال من أمتي — فيحلسون عن الحوض ، فأقول : يا ربّ

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) يشخب : سال وجرى .

(٣) اخرجه مسلم والترمذي .

(٤) الشحبة وجوههم : من الشحوب ، وهو تغير الوجه من جوع او هزال او تعب .

(٥) اي لا تفتح لهم الابواب .

(٦) رواه احمد باسناد حسن .

أصحابي ، فيقول:إنه لاعلم لك بما أحدثوا بعدك،انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى[1]) .

ولمسلم : أن رسول الله ﷺ قال : (تَرِدُ عليَّ أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه ، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا يا نبي الله تعرفنا ؟قال : نعم،لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تَرِدون غُراً محجلين من آثار الوضوء وليصدّن عني طائفة منكم ، فلا يَصلون ، فأقول : يا رب ، هؤلاء من أصحابي ، فيجيبني مَلَك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج الى المقبرة فقال: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد رأيت اخواننا ، فقلنا : يا رسول الله ألسنا باخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، واخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض ، فقالوا يا رسول الله : كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرأيت لو كان لرجل خيل غير محجلة في خيل دُهم بُهم ،ألا يعرف خيله؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : فانهم يأتون يوم القيامة غُراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض . فلا يذدانّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم : ألا هلمّ ، ألا هلمّ ، فيقال :انهم قد بدّلوا بعدك . فأقول:فسُحقاً ، فسحقاً فسحقاً[2]) .

عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول (أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليردنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم ، قال أبو حازم : فسمع النعمان ابن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلا يقول ؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول : فانهم مني ، فيقال: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي[3]) .

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم .

(٢) اخرجه مسلم ومالك في الموطأ

(٣) اخرجه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعنّ إليّ رجال منكم ، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم أُختلجوا[١] دوني ، فأقول : أي ربّ ، أصحابي ، فيقال : لا تدري ما أحدثوا بعدك[٢]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال لهم : هلمّ ، فقلتُ إلى أين ؟ قال : الى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ؟ فقال : إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم ، فقال : هلمّ قلتُ : الى أين ؟ قال : الى النار والله ، قلت : ما شأنهم قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثلُ همَل[٣] النعم[٤]) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بين ظهراني أصحابه : (إني على الحوض أنظر من يَردُ عليّ منكم فوالله ليقتطعنّ دوني رجال ، فلأقولن : أي ربّ من أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، ما زالوا يرجعون على أعقابهم[٥]) .

* * *

---

(١) اختلجوا : استلبوا ، واخذوا بسرعة .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) همل النعم : ضوالها ، ومعناه ان الناجي قليل كضالة النعم بالنسبة الى جملتها .

(٤) اخرجه البخاري ومسلم .

(٥) رواه مسلم .

الباب الخامس

عذاب النار

– صفة جهنم

يقول الله سبحانه : (ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون)

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك .

إنها نار فظيعة متسعرة وقودها الناس والحجارة. الناس فيها كالحجارة سواء . في مهانة الحجارة . وفي رخص الحجارة . وفي قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفظعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل مابها وما يلابسها فظيع رهيب . عليها ملائكة غلاظ شداد . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون ومن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم ، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم. قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال : فانها

فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها [1])

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم [2])

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفّس رجل من أهل النار لأحرقهم [3]) .

وعن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان رضي الله عنه فقال: (إنه ذُكِر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً مايدرك لها قعراً والله لتملأنه، أفعجبتم ؟ [4]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كنا عند النبي صلى الله فسمعنا وجبة [5] فقال النبي ﷺ : (أتدرون ماهذا ؟) قلنا الله ورسوله أعلم ، قال: (هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن حين إنتهى إلى قعرها [6])

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو أن مقمعاً [7] من حديد جهنم وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان [8] ماأقلوه من الأرض [9])

وعلى المؤمن أن يقي نفسه ، وأن يقي أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار .

إنها لمسات تصور العذاب الشديد وشيكا أن يقع، وقد سبقه النذير بخطوة. لينقذ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح .

(٣) رواه البزار وأبو يعلى .

(٥) سمعنا وجبه : معناه سمعنا صوتا يشبه سقوط شيء من مكان عال

(٤،٦) رواه مسلم .

(٧) مقمع : المطرق .

(٨) الانس والجن .

(٩) رواه أحمد ، وابو يعلى ، والحاكم وقال صحيح الاسناد .

من يستمع : (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)

لينقذ من يستمع . كالهاتف المحذر من حريق في دار يوشك أن يلتهم من لا يفر من الحريق . وهو تصوير - فوق أنه صادق - بارع موح مؤثر . .

قال الامام أحمد :حدثنا أبو نعيم بشير ابن المهاجر ، حدثني عبد الله ابن بريرة عن أبيه رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات : «أيها الناس أتدرون مامثلي ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم ، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم،وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه . أيها الناس أتيتم . أيها الناس أتيتم أيها الناس أتيتم »

وروى بهذا الاسناد قال قال رسول الله ﷺ : بعثت انا والساعة جميعاً . إن كادت لتسبقني »

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفَراش يقعن فيها فأنا آخذ بحجزكم[1] وأنتم تقحّمون فيها[2] .

وفي رواية لمسلم « إنما مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله جعل الفراش ، وهذه الدواب يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ، فيتقحمن فيها ، قال : فذلكم مثلي ومثلكم وأنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار هلم عن النار ، فيغلبوني ويقتحمون فيها » .

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار » قال: وأشاح[3] ثم قال : « اتقوا النار » ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة[4] »

---

(١) الحجز - جمع حجزه وهي مقعد الازار .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أشاح : معناه حذر النار كأنه ينظر اليها .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب يقول : أنذرتكم النار ، أنذرتكم النار ، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعهُ من مقامي هذا ، حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه[1] »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هـــذه الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » دعا رسول الله ﷺ قريشا ، فاجتمعوا ، فعمّ وخصّ ، فقال : يابني كعب ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة انقذي نفسك من النار ، فاني لا أملك لكم من الله شيئاً[2] »

هذه جهنم !فيها الكفاية !جهنم التي وقودها الناس والحجارة . جهنم التي يكبكب فيها الغاوون وجنود ابليس أجمعون : جهنم الحطمة التي تطلع على الأفئدة . جهنم التي لاتُبقي ولا تذر . جهنم التي تكاد تميز من الغيظ .

والغاوون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال « وان جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » . فلكل باب منهم جزء مقسوم بحسب مايكونون وما يعملون . وجهنم تحصرهم فلا يفلت منهم أحد « وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » . وجهنم تتسع لهم فلا يندّ عنها أحد « يوم نقول لجهنم هلْ امتلأت وتقول هل من مزيد »

وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . هذا هو كل كفار عنيد . هؤلاء هم كثرة تقذف في جهنم تباعاً ، وتتكدس ركاما ثم تنادى جهنم هل امتلأت ؟ واكتفيت ! ولكنها تتلمظ وتتحرق ، وتقول في كظّة الأكول النهم : هل من مزيد فيا للهول الرعيب . انها جهنم . فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها[3] »

---

(١) رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه مسلم والبخاري والترمذي والنسائي .

(٣) رواه مسلم والترمذي .

هذه نار الدنيافكيف بنارالآخرة . ولكن أين حريق من حريق؟ في شدته أو مدته! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخَلْق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق. وحريق الدنيا لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله . ومع حريق الآخرة غضب الله والارتكاس الهابط الذميم ونحن نتصور حريق الآخرة من أحاديث رسول الله ﷺ التي أنذر فيها وأرهب :

روى عن أنس رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «وقودها الناس والحجارة» فقال : أوقد عليها ألف عام حتى احمّرت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى اسودّت ، فهي سوداء مظلمة . لايطفأ لهيبها [1] »

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جاء جبريل الى النبي ﷺ في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه ، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال : « ياجبريل مالي أراك مُتغير اللون ؟ فقال : ماجئتك حتى أُمر الله عز وجل بمنافخ النار ، فقال رسول الله ﷺ : ياجبريل صف لي النار ،وانعت لي جهنم ، فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودّت . فهي سوداء مظلمة ، لايضيء شررها ، ولا يطفأ لهيبها ، والذي بعثك بالحق لو أن قدر ثقب ابرة فتح من جهنم لمـــات من في الأرض كلهم جميعاً من قبح وجهه ومن نتن ريحه، والذي بعثك بالحق لو أن حلق سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لارفضت وما تقارت ، حتى ينتهي إلى الأرض السفلى، فقال رسول الله ﷺ حسبي ياجبريل، لا ينصدع قلبي فأموت !» قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال : « تبكي ياجبريل وانت بالمكان الذي أنت به ؟) فقال : ومالي لاأبكي ؟ أنا أحقُّ بالبكاء ، لعلي أكون في

(١) رواه البيهقي والاصبهاني .

علم الله على غير هذه الحال الذي أنا عليها، وما أدري لعلي أبتلى بما أبتلي به ابليس فقد كان من الملائكة ، وما أدري لعلي أبتلى بما أبتلي به هاروت وماروت ، فمازالا يبكيان حتى نوديا أن ياجبريل ويا محمد إنّ الله قد أمنكما أن تعصياه ، فارتفع جبريل عليه السلام)

وخرج رسول الله ﷺ فمرّ بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال : (أتضحكون ووراءكم جهنم ، فلو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، ولما أسغتم الطعام والشراب ، ولخرجتم إلى الصّعُدات تجأرون الى الله[1])

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل : (مالي لا أرى ميكائيل ضاحكا قط ؟) قال : ماضحك منذ خُلقت النار[2]) .

هذه هي جهنم .. جهنم التي لاتبقي ولا تذر (لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر) فهي تكنس كنساً ، وتبلع بلعاً ، وتمحو محواً ، فلا يقف لها شيء ، ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء ! إنها وعيد مفزع .. إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها والى ماأعددتُ لاهلها فيها ، قال : فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه قال : وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها فأمر بها فَحُفَّت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فرجع إليها ، فقال وعزتك لقد خفتُ أن لايدخلها أحد ، وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها والى ماأعددتُ لأهلها فيها ، قال، فنظر إليها فاذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأُمرَ بها فحفّت بالشهوات ، فقال : ارجع اليها ، فرجع اليها فقال وعزتك لقد خشيتُ أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها[3])

---

(١) رواه الطبراني في الاوسط وذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » .

(٢) رواه أحمد من رواية اسماعيل ابن عياش وبقية رواته ثقات .

(٣) رواه ابو داود والنسائي والترمذي واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح .

أما أصحاب النار « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ومـــا جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا)

فهم من ذلك الخلق العجيب المغيب الذي لايعلم طبيعته وقوته إلا الله،وقد قال لنا عنهم أنهم .. (لا يعصون الله) .. فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وان بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرون بهـا .. (ويفعلون ما يؤمرون) ..مزودون بالقوة التي يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فاذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قِبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهـــذه المهمة كما يعلمها الله .

إن هذا القرآن هو تنبه وتذكر فمن شاء فليذكر ومن لم يشأ فهـو وشأنه ، وهو وما يختار من جنة وكرامة أو من سقر ومهانة .

٢ ـ أهل النار

إن الكفر عمى . عمى في طبيعته .وعمى عن رؤية دلائل الحق . وعمى عن رؤية حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه . وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء.

والكفر ظلمة أو ظلمات . فعندما يبعد الناس عن نور الايمان يقعون في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال . ظلمات تعز فيهـا الرؤية الصحيحة لشيء من الاشياء . والكفر هاجرة حرور. تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف وعدم الاطمئنان الى نشأة أو مصير . ثم تنتهي إلى حرّ جهنم ولفحة العذاب هناك .

والكفر موت . موت في الضمير . وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل . . وانفصال عن الطريق الواصل . وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبـع الحقيقي المؤثرين في سير الحياة .

إن هؤلاء نتيجتهم أن يكونوا وقوداً لجهنم (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً)

حطباً لجهنم . تتلظى بهم وتزداد اشتعالا ، كما تتلظى النار بالحطب . إن جهنم تستقبل أهلها الذين كفروا في غيظ وحنق شديد (والذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) .

وجهنم مخلوقة تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وهي تفور، ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين . .

ونلمح ظاهرة في خزنة جهنم . . (كلما أُلقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمعُ أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) .

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . . فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق . كما هي مشاركة لها في التعذيب ، وليس أمرّ من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب ! والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحق والغفلة . . فالذي يسمع أو يعقل لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء . لا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ثم هو دعاء الله عليهم بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . . (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) . . والسحق البُعد . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعودون من رحمته . لارجاء لهم في مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . ويالها من صحبة ! وياله من مصير ! . وهذا العذاب عذاب السعير ، في جهنم التي تشهق بأنفاسها وهي تفور ، عذاب شديد مروع حقا . والله لايظلم أحداً . ونحسب والله أعلم — أن النفس التي تكفر بربها — وقد أودع فطرتها حقيقة الايمان ودليله — هي نفس فرغت من كل خير. كما فرغت من

كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود،فهي كالحجر الذي توقد به جهنم . وقد انتهت الى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار . إلى غير نجاة منها ولا فرار . والنفس التي تكفر بالله تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه ، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشناعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يُسبح بحمد ربه ،وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التي تشده الى محور الوجود .. ماعدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود ، الآبدة الشريرة ، الجاسية الممسوخة النفور . فأي مكان في الوجود كله تنتهي اليه ، وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود انها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتملظة ، الحارقة ، المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة .

إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان :

فريق حي ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية عاملة مفتوحة وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه فتستجيب له (إنما يستجيب الذين يسمعون) .

وفريق ميت معطل الفطرة لا يسمع ولا يستقبل،ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله ــ فدليله كائن فيه ،ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه فاستجابت اليه حتماً ــ إنما ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي . . هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة تكشف حقيقة الموقف كله .

فهذا الذي جاء من عند الله بصائر . والبصائر تهتدي وتهدي (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) وهذا بذاته بصائر

تهدي . فمن أبصر فلنفسه فإنما يجد الهدى والنور وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هــــذه الآيات والبصائر إلا أعمى . معطل الحواس، مغلق المشاعر ، مطموس الضمير .

لقدمنح الله سبحانه أسماعاً وأبصاراً وأفئدة (ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) والقرآن يعبر عن قوة الادراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة بالألباب ومرة بالعقل . وكلها تعني الادراك في صورة من صوره – ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء إذ أنهم عطلوها وحجبوها . (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالهـــا) إنهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ، ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر ، أو عطلوا قوة الادراك وراء السمع والبصر ، فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة .

(أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العــــذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون). صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين. والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع – والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى عنها ، وهي أن تكون أدوات موصولة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس – والفريق الثاني كالبصير يرى ، وكالسميع يسمع ، فيهديه بصره وسمعه .. (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) .. والفرق بين الحق والباطل واضح ؟ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، فالعمى وحده هو الذي يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذي يحس بأثره كل من في السموات والأرض .. (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق

كمن هو أعمى . انما يتذكر أولوا الألباب) .. إن المقابل لمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق . وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحده الذي ينشيء الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى . والنـــاس ازاء هذه الحقيقة الكبرى ـــ كما بيّنا ـ صنفان : مبصرون فهـم يعلمون ، وعمي فهـم لا يعلمون ! والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب وانطماس قبس المعرفة في الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الاشعاع .. (أفأنت تُسمع الصمّ أو تهدي العُمي ومن كان في ضلال مبين) .

وهم ليسوا صُماً ولا عمياً ، ولكنهم كالصم والعمي في الضلال وعدم الانتفـاع بالدعاء إلى الهدى ، والاشارة الى دلائله . ووظيفة الرسول أن يُسمع من يَسمع ، وأن يهدي من يبصر . فاذا هم قد عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم (ومنهم من يستمعون إليك أفأنتَ تُسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر اليك أفأنتَ تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون . إن الله لا يظلمُ الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) يستمعون بآذانهم وقلوبهم مغلقة ، وينظرون بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يؤوبون من السمع والنظر بشيء ، ولا يهتدون الى الطريق .

إن هؤلاء الخلائق يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا .. إن هـؤلاء لكثير ، في كل زمان وفي كل مكان . والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئاً . لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدي حقيقة وظيفتها .. (صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون) .

وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون لتلقي الأصداء والأضواء والانتفاع بالهدى والنور فهم قد عطلوا آذانهم فهم صُم . وعطلوا ألسنتهم فهم بُكمٌ ، وعطلوا عيونهم فهم

عمي فلا رجعة لهم الى الحق ولا أوبة لهم إلى الهدى ولا هداية لهم إلى النور .

إن النوافذ المفتوحة في أرواح المتقين مغلقة عند الكافرين . فعلى أبصارهم غشاوة فلا نور يوصوص لها ولا هدى .. (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) .. وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشّى على أبصارهم جزاء وفاقا على استهتارهم بالانذار حتى تَساوى لديهم الانذار وعدم الانذار (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) .

إنها صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة حركة الختم على القلوب والاسماع والتغشية على العيون والأبصار . (فهم صمٌ بكمٌ عميٌ) .. ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون ما داموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون ، فكأنها لا تؤدي وظيفتها التي خُلقت من أجلها ، وكأنهم إذن لم توهب لهم آذان وعيون ، وهذه منتهى الزراية بمن يعطل تفكيره ويغلق منافذ المعرفة والهداية ويتلقى في أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التي ينبغي أن يتلقى منها أمر العقيدة والشريعة.

إنهم صمٌ لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون غارقون في الظلمات لا يبصرون !.. (والذين كذبوا بآياتنا صمٌ وبكمٌ في الظلمات) .. إنهم كذلك من ناحية التكوين الجثماني المادي فإن لهم عيوناً وآذاناً وأفواهاً ولكن ادراكهم معطل فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل ؟.. وانه لكذلك هذه الآيات المبثوثة في صفحات الوجود والآيات الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن .. هذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وايقاعها وتأثيرها لو أنها استقبلت وتلقاها الادراك ، وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته فلم يعد صالحاً لحياة الهدى ، ولم يعد أهلاً لذلك المستوى الراقي من الحياة، (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

إن للهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقي .. هذه مصارع الغابرين شاخصة موحية،

تتحدث بالعبر ، وتنطق بالعظات .. (أفلم يسيروا في الأرض) .. فيروها فتوحي لهم بالعبرة ؟ وتنطق لهم بلسانها البليغ ؟ وتحدثهم بما تنطوي عليه من عبر ؟ (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) .. فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنّة لا تتخلف ولا تتبدل ، أفلم تكن لهم قلوب ؟ فانهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون ، ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى ، وجاشت بالعبرة ، وجنحت الى الايمان . ويخلع الله على (الصم البكم الذين لا يعقلون) صورة البهيمة في الحس والخيال !.. (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شرّ الدوابّ عند الله الصمُّ البكم الذين لا يعقلون) .

وانهم لكذلك ! إنها لدواب بهذا الظل . بل هم شر الدواب ! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمة ؛ ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتاً مفهومة . إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية .

أما هؤلاء الدواب فهم موكولون الى ادراكهم الذي لا ينتفعون به . فهم شر الدواب قطعاً (إن شر الدواب عند الله الصمُّ البكم الذين لا يعقلون . ولو علِمَ الله فيهم خيراً لأسمعهم) .. أي لأسمعَ قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم ، ولكنه ـ سبحانه ـ لم يعلم فيهم خيراً ولا رغبة في الهدى ، فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة ؛ فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم ، وما أفسدوا هم من فطرتهم . ولو جعلهم الله يدركون حقيقة ما يُدعَون إليه ، ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا .. (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .. لأن العقل قد يدرك ، ولكن القلب المطموس لا يستجيب . فحتى لوأسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة . والاستجابة هي السماع الصحيح . وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب .. (أرأيتَ من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا) .

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بارزة ، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة ، والموازين المضبوطة ، وتخضع لهواها . ، وتحكم شهواتها ، وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بحد ، ولا تعتنق بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلهاً يُعبد ويطاع .

إنه الصورة الناطقة المعبرة عن ذلك النموذج الذي لا جدوى من المنطق معه ، ولا وزن للحجة ، ولا قيمة للحقيقة . فهو غير قابل للهدى . ويخطو القرآن في تحقير هؤلاء الذين يتعبدون هواهم ، ويحكّمون شهواتهم ، ويتنكرون للحجة والحقيقة ، تعبداً لذواتهم وهواها وشهواتها ، يخطو خطوة أخرى فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل . ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام الى درك أسفل وأحط .

هذه الكثرة التي تتخذ من الهوى إلهاً مطاعاً ، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول ، فهي كالأنعام . وما يفرق الانسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والادراك ، والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع . ووقوف عند الحجة والاقتناع . بل إن الانسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة ، لأن البهيمة تهتدي بما أودعها الله من استعداد ، فتؤدي وظائفها أداء كاملاً صحيحاً . بينما يهمل الانسان ما أودعه الله من خصائص ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة .

فهم لم يفتحوا القلوب التي أعطوها ليفقهوا — ودلائل الايمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسالات تدرك بالقلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة — وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية . ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة ، لقد عطلوا هذه الأجهزة التي وهبوها ولم يستخدموها . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون (أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) والذين يغفلون عما

حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ، والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . فللأنعام استعدادات فطرية تهديها . أما الجن والانس فقد زُوّدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة . فاذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا . إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم ايقاعاتها وايحاءاتها ، فانهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة الى استعداداتها الفطرية الهادية ، ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجري بهم قدر الله اليها وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا فكانوا — كما هم في علم الله القديم — حطب جهنم منذ كانوا .. (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوبٌ لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

والله سبحانه يرسم مشهداً حسياً لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والايمان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون .. (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) .

إن أيديهم مشدودة بالأغلال الى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم ، ومن ثم فان رؤوسهم مرفوعة قسراً ، لايملكون أن ينظروا بها الى الأمام ! ومن ثم فهم لايملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف ! وهم الى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسدٍّ من أمامهم وسد من خلفهم ، فلو أرخى الشد لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سُدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسي وشدته فان الانسان ليلتقي بأناس من هذا النوع يخيل اليه وهم لايرون الحق الواضح ولا يدركون أن هنالك حائلاً عنيفاً كهذا بينهم

وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغـــلال في الأيدي ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك .. مسدودة عن الهدى قسراً وملفوتة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سدٌّ من هنا وسد من هناك .

كذلك يصورهم الله موتى لاحياة فيهم ، صماً لا سمــــع لهم ، عمياً لايهتدون إلى طريق .. (إنك لاتسمع الموتى ولا تُسمع الصُمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسْمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) . . والذي ينفصل حسه عن الوجود فلا يدرك نواميسه وسننه ميت لاحياة فيه . إنمـــا هي حياة حيوانية ، بل أضل وأقل ، فالحيوان مهدي بفطرته التي قلما تخونه ! والذي لايستجيب لما يسمع من آيات الله ذات السلطان النافذ في القلوب أصمّ ولو كانت له أذنان تسمعان ذبذبة الأصوات ! والذي لايبصر آيات الله المبثوثة في صفحات الوجود أعمى ولو كانت له عينان كالحيوان !

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة . حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ،وهمود الشعور (إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مـــدبرين . وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) .

والقرآن يخرجهم مرة في صورة الموتى ، والرسول ﷺ يدعو ، وهم لايسمعون الدعاء ، لأن الموتى لايشعرون ! ويخرجون مرة في صورة العمي يمضون في عماهم ؛ لايرون الهادي لأنهم لايبصرون !

أما المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ..

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله ، بالحياة والسمـــع والبصر وآية

الحياة الشعور . وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم .

إن الاسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ، فما يكاد القلب السليم يعرفه حتى يستسلم له .

أما الذين لايستجيبون فهم الذين يتعبدون هواهم . . (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) . .

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت وتتبع الهوى المتقلب ، وحين تتعبّد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيمه إلهاً قاهراً لها مستولياً عليها ، وتتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول . . يرسم هذه الصورة ويعجب منها في استنكار شديد . لقد انطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور ، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى ، وتعطلت فيه أدوات الادراك بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم . . هؤلاء هم أهل النار (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة) .

أصحاب المشأمة . أي أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم والنحس . عليهم نار مُؤْصَدة . . أي مغلقة . . أي أبوابها مغلقة عليهم . وهم في العذاب محبوسون . . لايخرجون منها . . وهل أعسر من جهنم ؟ وإنها لهي العسرى .

لقد عاشوا معطلي المدارك مغلقي البصائر كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر . . (يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع ومـا كانوا يبصرون ، ولهم عذاب عظيم) . . وهي النهاية الطبيعية للكفر العنيد الذي لايستجيب للنذير ، والذي يستوي عنده الانذار وعدم الانذار كما علم الله من طبعهم المطموس العنيد .

إنها آيات القرآن تنذر من جهنم ونارها لعل القلوب الغافلة تفيق قبل أن يواجهها

العذاب . (فأنذرتكم ناراً تلظى) . . هذه النـــار المستعرة . . وهل بعد الصلي في النار شقوة . .

وقد وصف النبي ﷺ بأحاديثه الشريفة كيف يتعذب أهل النار في النار :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي بفرس يجعل كل خطـــو منه أقصى بصره ، فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم ، كلـــما حصدوا عاد كما كان ، فقال : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصّخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : ياجبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة ، ثم أتى على قوم على أدبارهم رقاع ، وعلى أقبالهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزّقّوم ورضف جهنم ، قال : ماهؤلاء ياجبريل قال : هؤلاء الذين لايؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لايستطيع حملها وهو يريد أن يزيد عليها ، قال ياجبريل ماهذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة الناس لايستطيع أداءها وهو يريد أن يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لايفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : ياجبريل ماهؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ، ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع ، قال : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع ، ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيّبة ووجد ريح مسك مع صوت ، فقال : ماهذا ؟ قال : صوت الجنة ، تقول يارب ائتني بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثر غرسي وحريري وسندسي واستبرقي وعبقريّي ومرجـــاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي وفواكهي وعسلي ومائي ولبني وخمري ، ائتني بما وعدتني ، قال :

لكَ كلّ مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بي وبرسلي، وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئاً ، ولم يتخذ من دوني أنداداً ، فهو آمن ، ومن سألني أعطيته ، ومن أقرضني جزيته ، ومن توكل عليَّ كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا ، لا اخُلف لميعادي ، قد أفلح المؤمنون ، تبارك الله أحسن الخالقين ، فقالت : قد رضيت ، ثم أتى على واد فسمع صوتا منكراً ، فقال : ياجبريل ، ماهذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنم ، تقول : يارب ائتني بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقي وغسليني ، وقد بعُد قعري ، واشتد حري ، ائتني بما وعدتني ، قال: لكَ كل مشرك ومشركة ، وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت :قد رضيت[1])

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاقبل أن يبلغ قعره[2]) وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : في قوله (سأرهقه صعودا) قال : (جبل من نار يكلف أن يصعده ، فإذا وضع يده عليه ذابت ، فاذا رفعها عادت ، واذا وضع رجله عليه ذابت ، فاذا رفعها عادت ، يصعد سبعين خريفاً ، ثم يهوى كذلك[3])

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعوذوا بالله من جُب الحزن أو وادي الحزن) قيل : يارسول الله، وما جب الحزن أو وادي الحزن ؟ قال (واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة ، أعده الله للقراء المرائين[4])

وعن أنس عن النبي ﷺ قال ، (الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة

---

(١) رواه البزار ، عن الربيع بن انس عن أبي العالية ـ أو غيره ـ عن ابي هريرة « الترغيب والترهيب ٥٢٥٢ » .

(٢) رواه احمد ، والترمذي الا انه قال : « واد بين جبلين يهوي فيه الكافر سبعين خريفا قبل ان يبلغ قعره » ورواه ابن حبان في صحيحه بنحو رواية الترمذي ، والحاكم ، وقال صحيح الاسناد .

(٣) رواه احمد والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه البيهقي باسناد حسن .

الأوثان . فيقولون يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال لهم: ليس من علم كمن لا يعلم[١])

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (ثلاثة لايدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر ، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة) قيل : وما نهر الغوطة؟ قال : (نهر يجري من فروج المومسات[٢]، يؤذي أهل النار ريح فروجهن[٣])

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شرب الخمر لم يرضى الله عنه أربعين ليلة ، فإن مات مات كافرا ، فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال). قيل : يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : (صديد أهل النار [٤])

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . . ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحها . وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا[٥])

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب[٦])

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا، فيطيف به أهل النار فيقولون:

---

(١) رواه الطبراني وابو نعيم .

(٢) المومسات : هن الزانيات .

(٣) رواه احمد وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه احمد باسناد حسن .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه مسلم .

مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه[1])

إنها آيات القرآن تنذر من جهنم ونارها لعل القلوب الغافلة تفيق قبل أن يواجهها العذاب (فانذرتكم ناراً تلظى) .. هذه النار المستعرة .. وهل بعد الصلى في النار شقوة (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ..) ليس بالبعيد . . فجهنم تنتظركم وتترصد لكم على النحو الذي رأيتم .والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب ! وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) ..

وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب ! وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم. حتى ليتمنى الكائن الانساني أن ينعدم ، ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد . .

إنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة . وإنه لبكاء في الآخرة. وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون .. (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) ..

عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ — أنه قال : (والذي نفسي بيده ، لورأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) قالوا: وما رأيت يارسول الله؟ قال : (رأيت الجنة والنار[2])

روى عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بقوم وهم يضحكون فقال : (تضحكون وذكر الجنة والنار بين أظهركم) قال : فمارئي أحد منهم ضاحكا حتى مات ، قال : ونزلت فيهم : (نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم[3])

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم وابو يعلى .

(٣) رواه البزار وليس في اسناده من ترك ولا اتهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه خطب فقال : (لا تنسوا العظيمتين : الجنة والنار) ثم بكى أو بلّ لحيته ، ثم قال : (والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم من أمر الآخرة لمشيتم إلى الصعيد ولحثيتم على رؤوسكم التراب[1])

قال محمد بن كعب : (لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا : يقولون : (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) .. فيقول الله تعالى مجيباً لهم : (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) .. ثم يقولون : (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) فيجيبهم الله تعالى : (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) . فيقولون : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) فيجيبهم الله تعالى : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالين من نصير) .

ثم يقولون : (ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنا قوماً ضالين ،ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) . فيجيبهم الله تعالى : (اخسئوا فيها ولا تكلمون).. فلا يتكلمون بعدها أبداً و ذلك غاية شدة العذاب[2] .

٣ – أحوال الناس في جهنم

يقول الله سبحانه : (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما) .

هذه جهنم ، مشهد وراء مشهد ، مشهد مؤلم مفزع رعيب ، إنها عذاب الله القوي العزيز ، لا يتصور هذا العذاب إلا من ذاقه – والعياذ بالله – (يومئذ لا يعذب عذابه

---

(١) رواه ابو يعلى .

(٢) احياء علوم الدين ج ٤ ص : ٥١٨ .

أحد ولا يوثق وثاقه أحد) .. فأهون العذاب كما يصوره النبي ﷺ بقوله : (إن أهون أهل النـــار عذاباً رجلٌ في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم[1]) .

وقوله ﷺ (إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أهون أهل النار عذاباً رجل منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من في النار إلى كعبيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من في النـار إلى ركبتيه مع أجزاء العذاب ، ومنهم من قد اغتمر[2]) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أهون أهل النـار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه[3]) .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته[4]) .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يؤتى بأنعم أهل الدنيا [من أهل النار] فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيـا من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك من شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط[5]) .

---

(١) رواه البخاري والثاني لفظ مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) رواه احمد والبزار ورواته رواة الصحيح .

« ٣ ، ٤ ، ٥ » رواه مسلم .

إنه الهول .. فكيف بمن (كلما نضجت جلودهم بدلنـاهم جلوداً غيرهـا) .. إنه مشهد شاخص متكرر . يشخص له الخيـال ، ولا ينصرف عنه ! إنه الهول . وللهول جاذبية آسرة قاهرة !

إن القرآن يرسمه مشهداً عنيفاً مفزعـاً (كلما نضجت جلودهم) ويرسمه عجيباً خارقاً للمألوف (بدلنـاهم جلوداً غيرها) .. ذلك جزاء الكفر ـ وقد تهيأت أسباب الإيمان ـ وهو مقصود . وهو جزاء وفاق .

السعير المتأجج . الجلود الناضجة المشوية المعذبة . كلما نضجت بدلت . ليعود الاحتراق من جديد . ويعود الألم من جديد ، إنه مشهد مكروب ملهوف . مشهد أولئك الكافرين حين تكون النار ثيـابهم ، وتسيل جلودهم ولحومهم (فالذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار ، يصبُّ من فوق رؤوسهـم الحميم ، يصهر به ما في بطونهـم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها ـ من غم ـ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) .

إنه مشهد عنيف صاخب ، هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يُصهر به ما في البطون والجلود عند صبّه على الرؤوس . وهذه سياط من حديد أحمته النار ، وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز الطاقة ، فيهبُّ الذين كفروا من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمُّون بالخروج من الغم . وهاهم أولاء يردُّون بعنف . ويسمعون التأنيب ، وذوقوا عذاب الحريق .

هاهي ذي جهنم محيطة بالكافرين (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول:ذوقوا ما كنتم تعملون) .. إنه مشهد مفزع في ذاته ، يصاحبه التقريع المخزي والتأنيب المرير .

فأنى يستعجل من تحيط به جهنم وتهم أن تطبق عليه وهو غافل مخدوع ، يصيرون إليها ويأوون . ويا سوءها من مأوى خير منه التشريد (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار

كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) . وهومشهد فيه حركة المحاولة للفرار والدفع للنار (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) .. فهو التقريع زيادة على الدفع والتعذيب .

ولهم في جهنم مهاد ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم (فبئس المهاد) ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيىء . إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار ! أو لهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب

(هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) .

ثم مشهد أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت في الدنيا متوادة متحابة . فهي اليوم متناكرة متنابزة .. (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار . قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) .

هاهم يقتحمون النار فوجاً بعد فوج . وهاهم أولاء يقول بعضهم لبعض (هذا فوج مقتحم معكم) .. فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب في اندفاع وحنق (لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار) .. فهل يسكت المشتومون ؟ كلا إنهم يردون .. (بل أنتم لا مرحباً بكم) .. فلقد كنتم أنتم السبب في هذا العذاب . وإذ دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) .

وإننا لنجدحنق المخدوعين الذين زين لهم قرناؤهم وأغروهم (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) ، إنه الحنق العنيف ، والتحرق على الانتقام ، وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والتزيين .

إنها جهنم يكتوون فيها ويحترقون وفيها يفتنون (يوم هم على النار يفتنون) ومعه التبكيت المؤلم في الموقف العصيب ، (ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون) .. (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا إنما تجزون ما كنتم تعملون) .

٤ ـــ هيئة أهل النار

إن حديث القيامة هو حديث هذا القرآن المتكرر ، يُذكّر به وينذر ويبشر ، وليستجيش به في الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس ، كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحيي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل . يقول الله سبحانه : (هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية).. فهناك يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة، عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترضى العاقبة . ولم تجد إلا الوبال والخسارة ، فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعباً ، فهي عملت لغير الله ، ونصبت في غير سبيله . عملت لنفسها ولأولادها . وتعبت لدنياها ولأطماعها ، ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته في الدنيا شقوة لغير زاد. ووجدته في الآخرة سواداً يؤدي إلى العذاب. وهي تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس الخائب الرجاء! ومع هذا الذل والرهق والعذاب والألم تصلى ناراً حامية تذوقها وتعانيها يقول الله سبحانه : (إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مَس سقر)

في ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفي سعر تكوى الجلود والأبدان . وهم يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار. وهم يزادون عذاباً بالإيلام النفسي .. (ذوقوا مَس سقر). هؤلاء المجرمون في ضلال وسُعر يُسحبون في النار على وجوههم في مهانة. ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير.

هذه هي جهنم حاضرة معروضة – كما ترون – (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) .. متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار ! وهم يتراوحون بين هذا السائل الآني . إنظروا إنهم يطوفون الآن .

والهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام . والماء متناه في الحرارة لا يُبرد ولا يُروي (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم) ..وهناك الظل.. ظل من يحموم .. ظل الدخان اللافح الخانق .. إنه ظل للسخرية والتهكم . ظل لا بارد ولا كريم..فهو ظل ساخن لا رَوْح فيه ولا برد، وهو كذلك كزّ لا يمنح وُرّاده راحة ولا انعاشاً .. هذا الشظف كله جزاء وفاق . . (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) .. وما آلم الشظف للمترفين .

إنه جزاء وفاق ،وإننا لنكاد نسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ليأخذوا طريقهم إلى العذاب ، في تأنيب مرير وإيلام عسير :(انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شُعب. لا ظليل ولا يغني من اللهب. إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالت صفر . ويل يومئذ للمكذبين) .

ذهبوا طُلقاء بعد الارتهان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين؟ إنه انطلاقٌ خيرٌ منه الارتهان .فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود . إنه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنة في ثلاث شُعب . ولكنه ظل خيرٌ منه الوهج .. إنه ظل خانق حار لافح. وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهكم..انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين!وتعرفون هذه التي تنطلقون إليها .. إلى جهنم .. فالشرر يتتابع في حجم البيت .. فإذا تتابع بدا كأنه جمالت صُفر ترتع هنا وترتع هناك!وهذا هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر ؟

تغشاهم وتركبهم ، وتكربهم الذلة (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أُغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ..

الآية ترسم صوره حسية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجـه المكروب المأخوذ المرعوب . كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعاً غشيت بها هذه الوجوه .. وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليـل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم .

هناك الخسران الذي مابعده خسران ، خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم وخسران (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين . لهـم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده . ياعباد فاتقون) ..

وهو مشهد رعيب حقاً . مشهد النار في هيئة ظل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم . وهي من النار ! إنه مشهد رعيب . يعرض الله لعباده . وهم بعد في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه ، ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبوه .

إن الله طرد الكافرين من رحمته ، وهيأ لهـم ناراً مسعرة متوقدة ، فهي معدة جاهزة حاضرة .. (إن الله لَعَن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبداً لايجدون ولياً ولا نصيرا ، يوم تُقلَّب وجوههم في النار ، يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا) .. إنها نار معدة جاهزة . باقين فيها عهداً طويلاً ، لايعلم مداه إلا الله ، ولا نهاية له إلا في علم الله ، حيث يشاء الله . وهم مجردون من كل عون ، محرومون من كل نصير ، فلا أمل في الخلاص من هذا السعير ، بمعونة من ولي ولا نصير . . يوم تقلّب وجوههم في النار . والنار تغشاهم من كل جهة ، والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة في النكال .. يقولون : ياليتنا .. وهي أمنية ضائعة ، لا موضع لها ، ولا استجابة ، فقد فات الأوان . إنما هي الحسرة على ما كان

إنها البغتة التي تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتحرمهم مهلة الأنظار والتأجيل ، . (لو يعلم الذين كفروا حين لايكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) .

ها هي النار حميت واحمرت . وها هي ذي معدة مهيأة فليبدأ العذاب الأليم . . (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) . .

ها هي ذي الجباة تكوى . . لقد انتهت عملية الكي في الجباه ، فليداروا على الجنوب . ها هي ذي الجنوب تكوى . . لقد انتهت هذه فليداروا على الظهور . . ها هي ذي الظهور تكوى . . ثم يتبع ذلك الترذيل والتأنيب . هو بذاته الذي كنزتموه للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب . . ذوقوا كنوزكم . . إنه هو الذي تذوقون منه مسّة للجنوب والظهور والجباه ! ألا إنه لمشهد مفزع مروع . هذه هي هيئتهم في النار . . (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) فلهم من نار جهنم من تحتهم فراش ، يدعوه — للسخرية — مهاداً ، وما هو ممهد ولا لين ولا مريح . ولهم من نار جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم !

إنها الاهانة والتحقير في العذاب . لا مجرد العذاب . . (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون) .

بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش ! وعلام التكريم ؟ ولقد خلعوا من أنفسهم شارة التكريم . وبعد السحب والجر في هذا العذاب ، وفي هذه المهانة ينتهي بهم المطاف الى ماء حار والى نار . . (في الحميم ثم في النار يسجرون) . . أي يربطون ويحبسون ، على طريقة سجر الكلاب . أي يملأ لهم المكان ماء حاراً وناراً موقدة . والى هذا ينتهون . وبينما هم في هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والترذيل

والاحراج والاعنات (ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟) . . فيجيبون إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته ، وهو يائس حسير . . « قالوا : ضلوا عنا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً) . . لقد كانت كلها أوهاماً وأضاليل . ويوجه إليهم التأنيب : (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) . .

يا مغيث ! وأين كان السحب في السلاسل والأغلال ، وكان الماء الحار والنار ؟ يبدو أنها كانت مقدمة للدخول في جهنم للخلود .

إن أغلال العقل والقلب جزاؤها الأغلال في الأعناق يوم القيامة (وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

تنسيقاً بين غل العقل وغل العنق ؛ والجزاء هو النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل مقومات الإنسان التي من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا في الدنيا فهم في الآخرة يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا ، التي عاشوها معطلي الفكر والشعور والاحساس .

لذلك أعدّ الله للكافرين جهنم بأغلالها وسلاسلها . . (إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً وأغلالاً وسعيرا) .

سلاسل للأقدام ، وأغلالاً للأيدي ، وناراً تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين . وقد زاد الله عذاب الكافرين بزيادة حجم أجسامهم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع[1]) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (ضرس الكافر مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء ، ومقعده من النار كما بين قديد ومكة ، وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار[١]) [٢] .

وفي رواية للترمذي قال : (إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة[٣]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى .. (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) قال : (يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعاً ، ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من نور يتلألأ ، فينطلق الى أصحابه ، فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم آتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا ، حتى يأتيهم ، فيقول لهم : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، قال : وأما الكافر فيسود وجهه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعاً في صورة آدم ، ويلبس تاجاً من نار ، فيراه أصحابه ، فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، فيأتيهم ، فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا[٤]) .

عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا ، قال : أجل والله ، والله ماتدري ! إن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً تجري فيه أودية القيح والدم ، قلت أنهار ؟ قال : بل أودية[٥]) .

ومن ظلال هذه المشاهد تنطلق صيحة من صيحات الانذار ، وهزة للنائمين السادرين في الخمار (ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذاباً

---

(١) الجبار : ملك اليمين له ذراع معروف المقدار كذا قال ابن حبان وغيره .

(٢) رواه أحمد واللفظ له ، ومسلم ولفظه : قال : « ضرس الكافر - أو ناب الكافر - مثل احد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » .

(٣) وقال في هذه : حديث حسن غريب صحيح .

(٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(٥) رواه أحمد باسناد صحيح والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

قريباً . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) .

إن الفرصة ما تزال سانحة . فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا قبل أن تكون جهنم مرصاداً ومآبا .. وهذا الانذار الذي يوقظ من الخمار : (إنا أنذرناكم عذاباً قريبا) .. ليس بالبعيد ، فجهنم تنتظركم وتترصد لكم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب .

وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) .. وما يقولها إلا هو ضائق مكروب . وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم ، حتى ليتمنى الكائن الانساني أن ينعدم . ويصير الى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد .

من هناك .. من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور يعطي الرسول ﷺ هذه المشاهد لعلّ الانسان يراجع نفسه ويتخذ إلى ربه مآبا :

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (وهم فيها كالحون) قال : (تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرّته)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيها السفن لجرت) رواه ابن ماجه وابو يعلى ، ولفظه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في خدودهم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فيسيل – يعني الدم – فيقرح العيون (٢)) .

---

(١) رواه أحمد والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح غريب ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد.

(٢) وفي اسنادهما يزيد الرقاشي ، وبقية رواة ابن ماجه ثقات احتج بهم البخاري ومسلم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم فلفحتهم لفحة ، فلم تدع لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب[1]) .

وعن النبي ﷺ قال : (يعظمُ أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أُذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غِلظَ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أُحد[2]) .

قال الحافظ عبد العظيم : وقد ورد أن من هذه الأمة من يعظم في النار كما يعظم فيها الكفار ؛ فروى ابن ماجة ، والحاكم وغيرهما ، من حديث عبد الله بن قيس قال : كنت عند أبي بردة ذات ليلة ، فدخل علينا الحارث بن أقيش رضي الله عنه ، فحدثنا الحارث ليلتئذ أن رسول الله ﷺ قال : (إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مُضر ، وإن من أمتي من يعظّم للنار حتى يكون أحد زواياها[3]) .

٥ ــ طعام أهل النار

لقد كان الانذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً في القرآن هو الانذار بيوم الجمع « وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير » .

يوم يجمع الله ماتفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد (فريق في الجنة وفريق في السعير) بحسب عملهم في دار العمل في هذه الأرض . في فترة هذه الحياة الدنيا . حيث يُلقى أهل النار في النار .. يلقى أهل جهنم في جهنم ليذوقوا العذاب .. (إن عذاب جهنم كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومُقاما)

---

(١) رواه الطبراني في الاوسط ، والبيهقي مرفوعا ، ورواه غيرهما موقوفا عليه ، وهو أصح .

(٢) رواه احمد والطبراني في الكبير والاوسط ، واسناده قريب من الحسن .

(٣) اللفظ لابن ماجه ، واسناده جيد ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

يوم تنتح جهنم فاها ، تهم أن تلتهم ، باسطة أيديها تهم أن تقبض على القريب والبعيد . إن عذابها ملازماً لايتحول عن صاحبه ولا يفارقه ولا يقيله . فهذا ماجعله مروعاً مخيفاً شنيعاً .. وهل أسوأ من جهنم مكاناً يستقر فيه الانسان ويقيم . وأين الاستقرار وهي النار ؟ وأين المقام وهو التقلب على اللظى ليل نهار ! (هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) تذوقها وتعانيها .. وتسقى من عين آنية . حارة بالغة الحرارة . وطعامهم شجر من نار جهنم (تسقى من عين آنية ليس لهم طعام إلا من ضريع لايُسمن ولا يغني من جوع)

فهذا لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقي هذه الألوان لا تُسمن ولا تغني من جوع . وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة . إنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى مايملك تصوره من الألم الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية ، ومن البرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة ! والتغذي بالطعام الذي لاتقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك لانفع فيه ولا غناء .

من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد . وطبيعته لا يتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله ! . فكيف بمن طعامهم الضريع والزقوم التي يتكرر ذكرها في القرآن .. (أذلك خيرٌ نزلاً أم شجرة الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) .

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون ؟ ولكنها مفزعة ولا شك . ومجرد تصورها يثير الفزع والرعب . فكيف إذا كان طلعها يأكلونه . ويملأون منه البطون .

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظالمين . فحين سمعوا باسمها سخروا وقالوا : كيف تنبت شجرة في الجحيم ولا تحترق . فإذا شاكت حلوقهم وهي كرؤوس الشياطين — وحرّقت بطونهم — وهي في أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم! وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء اللهيب . فإنهم لشاربون عليها ماء ساخناً مشوباً غير خالص ، وبعد هذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم . وياله من نزل ! وياله من معاد .. (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم)

فالجوع طاغ والمحنة غالبة وليس لهم إلا شجرة الزقوم (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون) ..

ولا يدري أحـــد ماشجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به من أن طلعها كرؤوس الشياطين. ورؤوس الشياطين لم يرها أحد، ولكنها تلقي في الحسّ ماتلقيه ! على أن لفظ الزقوم نفسه يصور بجرسه ملمساً خشناً ،شائكا مدبباً يشوك الأكف يبله الحلوق، ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون .

إنها نار الله تتلظى وتتحرق (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) .. تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعاً . وهي غول مفزعة. ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب عن إرادة وقصد (تدعوا من أدبر وتولى) تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعـــوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى . ولقد كان من قبل مشغولاً عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لايملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدي بما في الأرض كله منها .

إنها مشاهـد عنيفة لتلمس في حسنا الألم لنخاف ونستقيم .. (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم . ثم صبُوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذُق إنك أنت العزيز الكريم . إن هـذا ما كنتم بـــه تمترون) ..

إنه مشهد مفزع مرعب مخيف .. إن هذا الطعام مثل درردي الزيت المغلي — وهو المهل — يغلي في البطون كغلي الحميم . وهناك هذا الأثيم . هذا المتعالي على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالي يصدر إلى الزبانية ليأخذوه في عنف يليق بمقامه الكريم .. خذوه أخذاً، واعتلوه عتلا ، وشدوه في إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هوادة . وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلي الذي يشوي ويكوي . ومع الشد والجذب والدفع والعتل ، والكي والشي .. التأنيب والترذيل .. وهذا جزاء العزيز الكريم في غير ما عزّة ولا كرامة . إنه الأخذ والعتل والصب والكي والتأنيب والخزي .

إنه العذاب الأليم الأليم . عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .. فقال رسول الله ﷺ (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه[1])

إنه عذاب الجبار القهار القوي المتين .. لقد أعدّ لهم ما لم يتصوروه .. (ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهّلهم قليلا) ، خلّ بيني وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل . كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين ، والمكذبون بشر من البشر ، والذي يتهددهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض بـ .. (كن) ولا تزيد .

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من المخاليق ، ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلا . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار افهي قليل أيا كان

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه الا انه قال « فكيف بمن ليس له طعام غيره » ورواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح ، وروي موقوفا على ابن عباس .

الأمد ، ولو مضوا من هذه الحياة .. ثم إلى عذاب الله .. (إن لدينا أنكالاً وجحيما وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً) .

والأنكال - هي القيود - والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلوق والعذاب الأليم ، كلها جزاء مناسب ، إن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحيماً تجمعهم وتصليهم ، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق ، وعذاباً أليماً في يوم مخيف .

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (طعاماً ذا غصة) قال : (شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج[1]) .

إنها صور حسية عنيفة من العذاب تتناسب مع الناس الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم) ، فالجو جو متاع غليظ وأكل غليظ ، والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأمعاء التي كانت تحشى وتلتهم الأكل كالأنعام : (وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم) .

٦ ـ شراب أهل النار

إن الذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ولا تحس بحكمة الخلق والاعادة ، ولا ترى إلا واقعها القريب في هذه الدنيا . وحتى العبر التي تمر في هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً ، والقيامة تقترب : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأتِ لا تكلّمُ نفس إلا باذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد) .

يرتسم أمامنا مشهد التجمع يشمل الخلق جميعاً . على غير إرادة منهم ، إنما هو

(١) رواه الحاكم موقوفا ، وقال صحيح الاسناد .

سوق الجميع سوقاً إلى ذلك المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون ، والصمت الهائل يغشى الجميع ، والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه ، ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع فمنهم شقي في النار مكروبي الأنفاس لهم فيها زفير وشهيق من الحر والكتمة والضيق .

إنهم لا يخشون يوماً يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء .. (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً) .

إنه مشهد يزلزل القلوب الصلدة ويهز المشاعر الخامدة ، ماذا ينتظرهم ، إنها السعير حاضرة مهيأة ، إنه مشهد السعير المتسعرة ، وقد دبت فيها الحياة ! فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذبين بالساعة . تراهم من بعيد ! فإذا هي تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها ، وهي تتحرق عليهم ، وتصعد الزفرات غيظاً منهم ، وهي تتميز من النقمة ، وهم إليها في الطريق .

مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب ! ثم هاهم أولاء قد وصلوا . فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء . يصارعونها فتصرعهم ، ويتحامونها فتغلبهم . بل ألقوا إليها إلقاء . ألقوا مقرنين ، قد قرنت أيديهم الى أرجلهم في السلاسل . وألقوا في مكان منها ضيق، يزيدهم كربة وضيقاً ، ويعجزهم عن التفلت والتململ ، ثم هاهم أولاء يائسون من الخلاص ، مكروبون في السعير . فراحوا يدعون الى الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء . فالهلاك اليوم أمنية المتمني ، والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب ، وكيف وشرابهم يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء : (وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم) .

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصاداً للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون

إليها فإذا هي معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم (إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا لابثين فيها أعقابا لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا إلا حميماً وغساقا جزاء وفاقا) .

فهم يشربون المـــاء الساخن يشوي الحلوق والبطون . فهذا هو البّرد ! وإلا الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل فهـــذا هو الشراب . وهو يوافق ما أسلفوا وما قدموا ، انهم كانوا لا يرجون حسابا ولا يتوقعون مآبا ، فمآبهم يوم القيامة هو جهنم (إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بمـاء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) .

أعددناها وأحضرناها ، فهي لا تحتاج الى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمنـــاً لإعدادهـا . وهي نار ذات سرادق يحيط بالظالمين ، فلا سبيل إلى الهروب ، ولا أمل في النجاة والافلات . ولا مطمع في منفذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيـه استرواح . فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أُغيثوا بماء كدردري الزيت المغلي في قـول ، وكالصديد الساخن في قول ! يشوي الوجوه بالقرب منها . فكيف بالحلوق والبطون التي تتجرعه .

عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في قوله كالمهل قال : كعكر الزيت ، فإذا قرّب الى وجهه سقطت فروة وجهه فيه [1]) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الحميم ليصبّ على رؤوسهم فينفذ الحميم ، حتى يخلص الى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهـو الصّهر ثم يعاد كما كان [2]) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) قال : يُقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدنيَ منه شوى وجهه ووقعت فروة

---

(١) رواه احمد والترمذي . قال الحافظ : قد رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال صحيح الاسناد ..

(٢) رواه الترمذي والبيهقي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

رأسه ، فاذا شرب قطّع أمعاءه حتى يخرج من دُبره ، قال الله عز وجل : (وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم) ويقول (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب[1]) .

لقد أُخذوا بما فعلوا ؛ وهذا جزاؤهم : شراب ساخن يشوي الحلوق والبطون ، وعذاب أليم بسبب كفرهم : (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) .

وإن الشوك الخشن الذي يأكلونه في جهنم ليدفع الى الماء لتسليك الحلوق وري البطون ! فطعامهم ذي غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطّعت مافي بطونهم ! وإنهم لشاربون (فشاربون عليه من الحميم) الساخن الذي لا يبرد غلة ولا يروي ظمأ . (فشاربون شرب الهيم) وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوي من الماء .

إنه الشراب ، ليس شراب ارتواء إنما شراب للحريق والعذاب (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه . ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ) .. (فليذوقوه حميم وغساق) .

مشهد عجيب .. إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، من ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهويسقى من الصديد السائل من الجسوم . يسقاه بعنف فتجرعه غصباً وكرهاً ، ولا يكاد يسيغه ، لقذارته ومرارته ، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحها من خلال الكلمات !

---

(١) رواه احمد والترمذي والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو أن دلوا من غساق[١] يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا[٢]) .

ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ .. (هـذا نزلهم يوم الدين) والنزل للراحة والاستقرار . ولكن نزلهم هذا لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا يشكون فيه ويتساءلون عنه . إنه مشهد عجيب للجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروع الفظيع .

وإن الله سبحانه يدعو الناس للاستجابة لمنهجه قبل أن يفجأهم هـذا المصير (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ، مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير) .

استجيبوا لربكم قبل أن يفجأكم المصير فلا تجدوا ملجأ يقيكم ، ولا نصير ينكر مصيركم الأليم . هنـاك يفيق الانسان كما يفيق المخمور ، ويفتح عينيه بعد العشي والكلال . فها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من قبل النـار ، ملؤه الرجاء والاستجداء (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

---

(١) هو المذكور في القرآن (فليذوقوه حميم وغساق) (لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا ، الا حميما وغساقا) وقد اختلف في معناه ، فقيل : هو ما يسيل من بين جلد الكافر ولحمه ، قاله ابن عباس ، وقيل هو صديد أهل النار ، قاله ابراهيم وقتاده ، وعطية وعكرمة ، وقال كعب : هو عين في جهنم تسيل اليها حمة كل ذات حمة من حية أو عقرب او غير ذلك فيستنقع فيؤتى بالادمي فيغمس فيها غمسة واحدة ، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويتعلق جلده ولحمه في عقبيه وكعبيه ، فيجر لحمه كما ـ يجر الرجل ثوبه ، وقال عبد الله بن عمرو : الغساق : القيح الغليظ ، لو ان قطرة منه تهراق في المغرب لانتنت أهل المشرق ، ولو تهراق في المشرق لانتنت اهل المغرب .

(٢) رواه الترمذي « قال الحافظ » : رواه الحاكم وغيره من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث به ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا) .

هكذا يجيب أهل الجنة جواباً ملؤه التذكير الأليم المرير ، ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى ، لينطلق رب العزة والجلالة ، وصاحب الحكم : (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا . وما كانوا بآياتنا يجحدون) .

إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

يقول الامام المحاسبي (.. فتوهم كبدك والنار تداخل فيها ، وأنت تنادي فلا ترحم ، وتبكي وتعطى الندم ، إن رددت ألا تعود ، فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك .

فتوهم نفسك وقد طال فيها مكثك وألح العذاب ، فبلغت ، غاية الكرب ، واشتد بك العطش فذكرت الشراب في الدنيا ففزعت إلى الجحيم ، فتناولت الاناء من يد الخازن الموكل بعذابك ، فلما أخذته نشّت كفك من تحته ، وتفسّخت لحرارته ، وهيج حريقه ، ثم قرّبته إلى فيك فشوى وجهك ، ثم تجرعته فسلخ حلقك ، ثم وصل الى جوفك فقطع أمعاءك ، فناديت بالويل والثبور ، وذكرت شراب الدنيا وبرده ولذته ، ثم أقلعت الحريق ، فبادرت إلى حياط الحميم لتبرد بها ، كما تعودت في الدنيا الاغتسال والانغماس في الماء إذا اشتد عليك الحر فلما اغتمست في الحميم تسلخ من قرنك إلى قدمك ، فبادرت الى النار رجاء أن تكون هي أهون عليك ، ثم اشتد عليك حريق النار فرجعت الى الحميم وأنت تطوف بينها وبين حميم آن ، وهو الذي قد انتهى حره وتطلب الروح فلا روح بين الحميم وبين النار ، تطلب الروح فلا روح أبداً . فلما اشتد بك الكرب والعطش وبلغ منك المجهود ذكرت الجنان فهاجت غصة من فؤادك إلى حلقك أسفاً على جوار الله عز وجل ، وحزناً على نعيم الجنة ، ثم ذكرت شرابها وبرد

مائها وطيب عيشها ، فتقطع قلبك حسرة لحرمان ذلك ، ثم ذكرت أن فيها بعض القرابة من أب أو أم أو أخ ، وغيرهم من القرابة فناديتهم بصوت محزون من قلب محترق قلق : ياأماه أو ياأبتاه أو ياأخاه أو ياخالاه أو ياعماه أو ياأختي ، شربة ماء ، فأجابوك بالخيبة فتقطع قلبك حسرة بما خيبوا من أملك ، وبمارأيت من غضبهم عليك لغضب ربك عز وجل ، ففزعت إلى الله بالنداء بالمرجع والعتبى أن يردك الى الدنيا ، فمكث عنك دهراً طويلاً لايجيبك هواناً بك وإن صوتك عنده ممقوت ، وجاهك عنده ساقط ، ثم ناداك بالخيبة منه أن (اخسئوا فيها ولا تكلمون) ، فلما سمعت نداءه ضاقت نفسك في صدرك وبقيت قلقاً تزفر لاتطيق الكلام ولا يخرج منك نفس ، ثم أراد أن يزيدك إياساً وحسرة ، فأطبق أبواب النار عليك وعلى أعدائه فيها. فما ظنك إن لم يعف عنك ، وقد سمعت رجوف بابها قد أغلق ؟

فيا إياسك وإياس سكان جهنم حين سمعوا وقع أبوابها تطبق عليهم فعلموا عند ذلك أن الله عز وجل إنما أطبقها لئلا يخرج منها أحدٌ أبداً ، فتقطعت قلوبهم إياساً وانقطع الرجاء منهم ألا فرج أبدا ولا مخرج منها ولا محيص لهم من عذاب الله عز وجل أبداً خلودٌ فلا موت ، وعذاب لازوال له عن أبدانهم ، فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبدا ، أحزان لا تنقضي ، وغموم لا تنفد ، وسقم لا يبرأ ، وقيود لاتحل ، وأغلال لا تفك أبدا ، وعطش لا يُروَوْن بعده أبدا ، وكرب لايهدأ أبدا ، وجوع لا يشبعون بعده أبدا إلا بالزقوم ينشب في حلوقهم فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم فيقطع أمعاءهم ، وحسرة فوت رضوان الله عز وجل في قلوبهم ، وكمد حرمان جوار الله عز وجل يتردد في صدورهم ، لا يرحم بكاؤهم ، ولا يجاب دعاؤهم ، ولا يغاثون عن تضرعهم ، ولا تقبل توبتهم ، فهم في عذاب دائم وهوان لا ينقطع ، فمثل نفسك بهذا الوصف إن لم يعف عنك.

فلو رأيت المعذبين في خلقهم وقد أكلت النار لحومهم ومحت محاسن وجوههم واندرس تخطيطهم ، فبقيت العظام مواصلة محترقة مسودة وقد قلقوا واضطربوا في قيودهم

وأغلالهم وهم ينادون بالويـل والثبور ، ويصطرخون بالبكاء والعويل، إذا لذاب قلبك فزعاً من سوء خَلقهم وتضعّفت من رائحة نتنهم ولما بقي روحك في بدنك من شدة وهج أبدانهم وحرارة أنفاسهم . فكيف بك إن نظرت إلى نفسك فيها وأنت أحدهم ، وقد زال من قلبك الأمل والرجاء ولزمه القنوط والإياس وعطفت على بدنك فتقحمت على الحدقتين فسمعت تفضيضها انتقامـــاً وبدلاً من نظرك الى مـــا لايحب ولا يرضى ، ودخلت النار في مسامعك فتسمع لهـا فيه قصيفاً وجلبة ، والتحفت عليك فنفضت منك العظام ودوبت اللحام ، واطلعت الى الجوف فأكلت الكبد والأحشاء فغلبت على قلبك الحسرة والندامة والتأسف .

فتوهم ذلك بعقل فارغ ، وقد هاجت منك رحمة لضعفك ، وارجع عمـا يكره مولاك وترضى عسى أن يرضى عنك وأعذ به بعقلك واستقله يقلك عثراتك ، وابك من خشيته عسى أن يرحمك ويقيل عثراتك ، فان الخطر عظـيم وان البدن ضعيف والموت منك قريب ، والله جل جلاله مع ذلك مطلع يراك ، وناظر لا يخفى عليه منك سر ولا علانية ، فاحذر نظره بالمقت والبغضة والغضب والقـلاء ، وأنت لاتشعر فرحاً أو قرير العين ،فاحذر الله عزّ وجل وخفه واستحي منه وأجلّه،ولا تستخف بنظره ولا تتهاون باطلاعه ، وأجلّ مقامه عليك وعلمه بك وافرقه واخشه قبل أن يأخذك بغتة ، وليرى أثر مصيبة مخالفتك له ليعلم ما قد بلغ منك خلافه ، فيعظم حزنك ويشتد غمك بمخالفته ، فان علم ذلك منك صفح عنك وعفى عنك، فلا تتعرض لله عز وجل فانه لا طاقة لك بغضبه ولا قوة لعذابه ، ولا صبر لك على عقابه ، ولا صبر عندك عن جواره فتدارك نفسك قبل لقائه ، فكأنك بالموت قد نزل بك بغتة الموت فكأنه قد نزل فتوهم ماوصفتُ لك فإنما وصفتُ بعض الجمل،فتوهم ذلك بعقل فارغ موقن عارف بما قد جنيتَ على نفسك وما استوجبت بجنايتك ، وفكر في مصيبتك في دينك ، وليرى الله عز وجل عليك أثر المصيبة لعـله أن يرحمك فيتجاوز عنك لمغفرته وعصمته[1])

(١) التوهم ص ٢٥ .

٧ – اغواء .. وتبرؤ .. وعذاب

إنه لا إمهال ولا فكاك ، يوم عصيب تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك .. (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) .

إنهم في زحمة الهول ، مسرعين لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون الى شيء رافعين رؤوسهم لاعن ارادة ولكنها مشدودة لايملكون لها حراكاً. يمتد بصرهم الى ما يشاهدون من الرعب. فلا يطوف ولا يرتد اليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء .

إن الله يؤخر الناس حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هـذا الرعب المذهل . هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله اليه ، والذي ينتظرهم بعد الامهال هناك . فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا فكاك يومئذ ولا اعتذار (وأنذر النـاس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخّرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ! أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) .

هنـاك الكل مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم . إنمـا هم في العراء أمام الواحد القهار : (يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) ثم ترى المجرمين (وترى المجرمين يومئـذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) .

مشهد المجرمين : اثنين اثنين مقرونين في الوثاق ، يمرون صفاً وراء صف . مشهد مذل . ويضاف الى قرنهم في الوثاق أن سرابيلهم وثيـــابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب . وهي في ذات الوقت قذرة سوداء . ففيها الذل والتحقير وفيها الايحاء بشدة

الاشتعال بمجرد قربهم من النار . وتغشى وجوههم النار . مشهد العذاب المذل المتلظى المشتعل جزاء المكر والاستكبار (ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب) أولئك لو مدّوا بأبصارهم الى يوم يقفون بين يدي الله الواحد ! لو تطلعوا ببصائرهم الى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين ! (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الاسباب . وقال الذين اتّبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار) . لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين . ورأوا العذاب . فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والاسباب ، وانشغل كلٌ بنفسه تابعاً كان أم متبوعاً . وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها ، وعجزت عن وقاية نفسها فضلاً على وقاية تابعيها . وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة ، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب . وتبدى الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة . وتمنوا لو يردون لهم الجميل ! لو يعودون الى الأرض فيتبرؤوا من تبعيتهم لتلك القيـــادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها ، التي خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب !

إنه مشهد مؤثر : مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين . بين المحبين والمحبوبين . وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) .

إلى النار ، انضموا الى زملائكم وأوليائكم من الجن والانس (قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النــار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً . قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم : فما

كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) ، هنا في النار ، أليس ابليس هو الذي عصى ربه ؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه ؟ وهو الذي أغوى من أغوى من أبنائه ؟ وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار ؟.. فادخلوا إذن جميعاً ، ادخلوا سابقين ولاحقين ، فكلكم أولياء ، وكلكم سواء !.

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، ويملي متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها (كلما دخلت أمة لعنت أختها) ، فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولي لمولاه .

وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال ، وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم . ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ، يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويطلب له من (ربنا) شر الجزاء . فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة ! لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب ، إنه مشهد ساخر أليم .

ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب .. (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلجَ الجمل في في سمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين) .

مشهد الجمل تجاه ثقب الابرة . فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ — وحينئذ فقط — أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فتقبل دعاءهم أو توبتهم — وقد فات الأوان — وأن يدخلوا الى جنات النعيم ! أما الآن ، وإلى أن يلجَ الجمل في سمّ الخياط ، فهم هنا في النار ، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا ، وتلاوموا فيها وتلاعنوا ، وطالب بعضهم لبعض سوء الجزاء .

هناك وقد برزوا لله جميعاً . الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين

(وبرزوا لله جميعاً) ، برزوا جميعاً مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائماً . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسُّون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق .

والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم الذين استكبروا يسألونهم (إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) ، وقد اتبعناكم فانتهينا الى هذا المصير الأليم .

لقد حقّ العذاب ، ولا رادّ له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان فيه العذاب يجدي فيرد الضالين الى الهدى ، وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ولم يعد هناك مفر ولا محيص .. (قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) .. لقد قضي الأمر وانتهى الجدل ، فالنار هي الرفد والعطاء فهي ورْدهم ، ويا بئساه من ورد (بئس الورد المورود) ، ورْد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، انما يشوي البطون والقلوب ، أولئك المبعودون المطرودون لهم اللعنة (أولئك لهم اللعنة ولهم سوءالدار) أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا الى الآخرة ونعيمها المقيم .

٨ ــ حسرة وألم

إنها حلقات عذاب رهيبة لاهثة مكروبة ، فاذا انتهت الحلقة بدأ الظالمون يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً وهكذا . فها هي الجحيم وقد سُعرت،(واذا الجحيم سُعرت) ، حيث تتوقد الجحيم وتتسعر، ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها ، فعندما تقع أحداث القيامة الهائلة ، في كيان الكون. عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب ، (علمت نفس ما أحضرت) .

كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل مامعها ومالها وما عليها، تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها ، تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئاً مما أحضرت ، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه ، تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها ، معهود في حياتها أو تصورها وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها .وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء . ولم يبق إلا وجه الله الكريم ، الذي لا يتحول ولا يتبدل ، فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم ، فتجده سبحانه ، عندما يتحول الكون كله ويتبدل! فكل ما على الأرض ومن على الأرض عائد إلى الله في ذلك اليوم العظيم ، (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين. وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) .

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم . بهذا التنكير والتفخيم والتهويل . المشهد الذي يشهده الثقلان : الانس والجن ، وتشهده الملائكة في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار ، فما أعجب حالهم ، لا يسمعون ولا يبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم .

وأنذرهم يوم الحسرة،يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم محض الحسرة لاشيء فيه سواها،فهي الغالبة على جوه،البارزة فيه. أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات. أنذرهم ذلك اليوم الذي لاشك فيه . أنذرهم العذاب الدائم،أنذرهم عذاب الخلود. (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون،لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) . وهو عذاب دائم،وفي درجة شديدة عصيبة،لا يفتر لحظة،ولا يبرد هنيهة. ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص،ولا كوة من رجاء بعيد. فهم يائسون قانطون. ثم تتناوح في الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) . إنها صيحة

متناوحة من بُعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم . إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين ، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغيث . فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون في طلب الهلاك . الهلاك السريع الذي يريح. وحسب المنايا أن يكن أمانيا ، وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق، وانا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب ، وأجساماً تجاوز الألم بها حدّ الطاقة ،فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة، (يامالك ليقضي علينا ربك). والجواب يجيء في تيئيس وتخذيل، وبلا رعاية ولا اهتمام . (قال : إنكم ماكثون). فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ،انكم ماكثون ، (إنه من يأت ربه مجرماً فان لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) فلا هو ميت فيستريح ، ولا هو حيّ فيتمتع إنما هو العذاب الذي لا ينتهي الى موت ولا ينتهي الى حياة . فهم متروكون في جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب (فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون). (والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يُقضى عليهم فيموتوا ،ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) .

نرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار، فلا هذه ولا تلك. حتى الرحمة بالموت لاتنال ، ونسمع صوت غليظ محشرج مختلط الاصداء ، متناوح من شتى الأرجاء . إنه صوت المنبوذين في جهنم (وهم يصطرخون فيها) ، ولنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول : (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل). إنه الانابة والاعتراف والندم إذن . ولكن بعد فوات الأوان .

فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر ، وهي كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر .

إنه العذاب الشديد ، فلا مراجعة في الحكم ، ولا مجال لتغييرفيه أو تعديل . وقد قضي الأمر (إن الله قد حكم بين العباد) ، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً

من حكم الله . وحين يدرك هؤلاء أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، إتجه هؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع وفي ضراعة . إنهم يستغيثون حراس جهنم ، ليدعوا ربهم في رجاء يكشف عن شدة البلاء (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) .

.. يوماً .. يوماً فقط يلقطون فيه أنفاسهم ويستروحون فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة . فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ، ويعرفون أن الأوان قد فات . وهم لهذا يزيدون المعذبين عذاباً بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب .

وعندئذ نفض الخزنة أيديهم منهم وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار ، (قالوا : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ! فادعوا) إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئاً . فتولوا أنتم الدعاء . (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) . لا يبلغ ولا يصل ولا ينتهي إلى جواب . إنما هو الاهمال والازدراء .

لقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ،الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين . وانهم لعلى مشهد من الجحيم يقفون ، حيث يسمعون التقريع والتأنيب . (وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود ابليس أجمعون . قالوا : وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) .

إنهم يُسألون عما كانوا يعبدون من دون الله . ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب. إنما هو سؤال لمجرد التقريع والتأنيب ، فكبكبوا ، واننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام. وصوت الكركبة الناشىء من الكبكبة ، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف . وإنهم لغاوون ضالون ، وقد كبكب معهم جميع الغاوين . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات

وأنه لا جدوى من توزيع التبعات . فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع . وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح مافاتنا فيها . وما هو إلا التمني . فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين ، فلا نسمع إلا الويل (ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) .

يقولون ياويلنا ، وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ،ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان . ويقذفون في جهنم قذفاً بلا رفق ولا أناة،وكأنما تحصب بهم حصباً كما تحصب بالنواة . هذه مشاهد مؤلمة ، كلها ملؤها الحسرة والأسى ، فبعد ان اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم ، واستيقن أصحاب النار من مصيرهم ، واذا الأولون ينادون الآخرين يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم ، (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ قالوا : نعم ! فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين)،وفي هذا السؤال من السخرية المرّة مافيه .

هؤلاء الذين يريدون الطريق عوجاً لا استقامة فيه ، وهم بالآخرة كافرون،انهم يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة: صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه . وكل ماعداه فهو أعوج .وهو ارادة للعوج . وهذه الارادة تلتقي مع الكفر بالآخرة فما يؤمن بالآخرة أحد ، ويستقين أنه راجع إلى ربه ، ثم يصد عن سبيل الله ، ويحيد عن منهجه وشرعه .

إن الله سبحانه قد أحصى كل شيء احصاء دقيقاً لا يفلت منه حرف (وكل شيء أحصيناه كتابا) ، فلا رجاء في تغيير أو تخفيف انما هي زيادة العذاب (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) .

إن هذه الذكرى سينتفع بها من يخشى ويخاف الله (سيذكر من يخشى) ذلك الذي يستشعر قلبه التقوى ، فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحي يتوجس ويخشى ،

منذ يعلم أن للوجود إلهاً خلقَ فَسوَّى وقدَّر فهدى ، فلن يترك الناس سدى ، ولن يدعهم هملا ، وهـو لا بد محاسبهم على الخير والشر ، ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى فاذا ذُكر ذكر ، واذا بُصِّر أبصر ، وإذا وعِظَ اعتبر . وكل من يتجنب هذه الذكرى هو الأشقى (ويتجنبها الأشقى) يتجنب الذكرى ، فلا يسمع لها ولا يفيد منها . وهو اذن (الأشقى) .. الأشقى اطلاقاً واجمالاً . الأشقى الذي تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهاها . الأشقى في الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الضعيفة ، التي لا تحس حقائق الوجود ، ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بموحياتها العميقة . والذي يعيش قلقاً متكالباً على مافي الأرض كادحاً لهذا الشأن الصغير ! والأشقى في الآخرة بعذابها الذي لا يعرف له مدى (الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيا) .

والنار الكبرى هي نار جهنم . الكبرى بشدتها ، والكبرى بمدتها ، والكبرى بضخامتها . حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ، ولا هو يحيا في أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد ، الذي يتطلع صاحبه الى الموت كما يتطلع الى الأمنية الكبرى .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا صار أهل الجنة الى الجنة ، وأهل النار الى النار . جيء بالموت ، حتى يُجعل بين الجنة والنار ، فيُذبح ، ثم ينادي منادٍ : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً الى فرحهم وأهل النار حزناً الى حزنهم) .

وفي رواية أن النبي ﷺ قال : (يُدخِلُ الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذنٌ بينهم ، فيقول : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، كلٌّ خالد فيما هو فيه [1]) .

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[1] ، فينادي مناد ، يا أهل الجنة ، فيشرئبون[2] وينظرون، فيقول لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي مناد ، يا أهل النار : فيشرئبون وينظرون ، فيقول لهم : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة : خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » وأشار بيده الى الدنيا [3]) .

وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون ، تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم ، فاذا هي عندهم عشية أو ضحاها (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) .

هذه هي : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة تافهة ، أفمن أجل عشية أو ضحاها يُضحون بالآخرة ؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى !

ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التي لا يرتكبها انسان . يسمع ويرى !

* * *

---

(١) (كبش أملح) الاملح : المختلط البياض والسواد .

(٢) (فيشرئبون) اشراب الى الشيء : اذا تطلع ينظر اليه .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم .

الباب السادس

نعيم الجنة

١ ـ صفة الجنة

يقول الله سبحانه : (ياأيتهـــا النفس المطمئنه ارجعي إلى وبك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) .

في روحانية وتكريم ، وفي ثناء وتطمين ، ارجعي الى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد . ارجعي الى ربك بمـــا بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة .. راضية مرضية ، بهذه النداوة التي تفيض بالتعاطف والرضى فادخلي في عبادي المقربين المختارين لينالوا هذه القربى وادخلي جنتي في كنفي ورحمتي،إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة .. إلى هذه النفس المطمئنة . المطمئنة إلى ربها ، المطمئنة الى طريقها ، المطمئنة إلى قدر الله بهـــا ، المطمئنة فلا ترتاب ، والمطمئنة فلا تنحرف ، والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق ، والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية تتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية .

وقد فصّل الله متاع الجنة التي أعدت للمؤمنين ، ووراءهـا متاع يعرفونها هناك يوم يتهيأون لإدراكها بما لاعَيْن رأت ولا أُذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : « أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت، ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين[1]) .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: شهدتُ من رسول الله ﷺ مجلساً وَصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال في آخر حديثه : « فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ثم قرأ هاتين الآيتين : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون[2]) .

وعن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال : « لو أن مايُقِلُّ ظُفُرٌ مما في الجنة بَدا لتزخرف له مابين خوافق السموات والأرض ، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطّلع فبدا سواره لطمس ضوء الشمس ، كما تطمس الشمس ضوء النجوم[3] » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لقابُ قوسٍ في الجنة خيرٌ مما طلعت عليه الشمس أو تغرب[4] » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « قيد سوط أحدكم في في الجنة خيرٌ من الدنيا ومثلها معها ، ولقابُ قوسِ أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا ومثلها معها ، ولنصيف امرأة من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها » قلت : ياأبا هريرة

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه بن حبان في صحيحه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا ، والترمذي وقال : حديث حسن غريب .

ما النصيف ؟ قال : الخمار[1] » . .

وفي رواية الطبراني في الأوسط مختصراً باسناد رواته رواة الصحيح ، ولفظه : قال رسول الله ﷺ « لموضع سوط في الجنة خير مما بين السماء والأرض » .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ « أن موسى عليه السلام سأل ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجلٌ يجيء بعد مادخل أهل الجنة الجنة، فيقال له : ادخل الجنة فيقول : ربِّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مَلِك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ربِّ ، فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فقال في الخامسة : رضيت ربِّ ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك ، فيقول : رضيتُ رب. قال : ربِّ فأعلاهم منزلة ، قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمتُ عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر[2]» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « وهل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب » ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : « هل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب » قالوا : لا ، قال : « فانكم ترونه كذلك ، يحشر الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم من يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فاذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيدعوهم ، ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذ : اللهم سَلّم سلم

(1) رواه أحمد باسناد جيد ، ورواه البخاري بلفظ آخر .

(2) اخرجه مسلم .

وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ، قال: فانها مثل شوك السعدان ، غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق (يهلك) بعمله ، ومنهم من يخردل ، ثم ينجو ، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يُخرجوا من كان يعبد الله ، فيخرجونهم بآثار السجود ، وحَرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار وقد امتحشوا[1]، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة مقبلٌ بوجهه قبل النار ، فيقول : يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبني[2] ريحها ، وأحرقني ذكاها[3] فيقول : هل عسيتَ إن أفعل أن تسأل غير ذلك ؟ فيقول : لا وعزتك ، فيعطي اللهَ ماشاء من عهد وميثاق ، فيصرف الله وجهه عن النار ، فاذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ماشاء الله أن يسكت ، ثم قال : يارب قدّمني عند باب الجنة ، فيقول الله : أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لاتسأل غير الذي كنت سألت ؟ فيقول : ياربّ لا أكون أشقى خلقك . فيقول : فما عسيتَ إن اعطيتك ذلك أن تسأل غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسألك غير هذا ، فيعطي ربه ماشاء من عهد وميثاق ، فيقدمه الى باب الجنة ، فإذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور ، فسكت ماشاء الله أن يسكت ،فيقول : ياربّ أدخلني الجنة ، فيقول الله : ويحك يابن آدم ما أغدرك ! أليس قد أعطيتني العهود أن لا تسأل غير الذي أعطيت ؟ فيقول : ياربّ لاتجعلني أشقى خلقك ، فيضحك الله منه ، ثم يأذن له في دخول الجنة ، فيقول : تمنّ ، فيتمنى حتى اذا انقطعت أمنيته ، قال الله : تمنّ من كذا وكذا ، يُذكره ربه ،حتى اذا انتهت به الأماني قال الله لك ذلك ومثله معه[4].

(١) امتحش : احترق .

(٢) قشبني ريحها : اي آذاني .

(٣) ذكاها : اشعالها ولهبها .

(٤) رواه البخاري .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة رجلٌ صرف الله وجهه عن النار قِبلَ الجنة ، ومَثَّل له شجرة ذات ظل ، فقال : أي ربِّ قربني من هذه الشجرة أكون في ظلها » فذكر الحديث في دخوله الجنة وتمنيه . إلى أن قال في آخره « إذا انقطعت به الأماني قال الله :هو لك وعشرة أمثاله. قال : ثم يدخل بيته فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين . فيقولان : الحمد لله الذي أحياك لنا ، وأحيانا لك . قال : فيقول : ما أعطي أحد مثل ما أعطيت [1]».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى مَقْعد أحدكم من الجنة ، من يقول له : تمَنَّ فَيتمنَّى ، ويَتمنَّى ، فيقول له : هل تمنيت ؟ فيقول : نعم فيقول له : فان لك ما تمنيت ومثله معه[2]» .

إنها الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين ، جنة وحريرا ، جنة يسكنونها وحريراً يلبسونه . (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها ، وذُلّلت قطوفها تذليلا) .

فهم في جلسة مريحة مطمئنة . والجو حولهم رخاء ناعم دافىء في غير حَرّ ندي في غير برد . فلا شمس تلهب النسائم ، ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شموس أخرى من نظائرها . وكفى !

وهناك الظلال الدانية . واذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع مايمتد إليه الخيال . (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) . فهم مستقرون مستروحون ناعمون في الظلال .

إنها صورة الجزاء الرفيع الخالص الفريد . الجزاء الذي تتجلى فيه ظلال الرعاية

---

(١) رواه البخاري .

(٢) اخرجه مسلم .

الخاصة ، والاعزاز الذاتي ، والاكرام الالهي والحفاوة الربانية بهذه النفوس (فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) . تعبير عجيب يشي بحفاوة الله سبحانه وتوليه بذاته العلية إعداد المذخور لهم عنده من الحفاوة والكرامة مما تُقر به العيون . هذا المذخور الذي لا يطلع عليه أحد سواه . والذي يظل عنده خاصة مستوراً حتى يكشف لأصحابه عنه يوم لقائه ! عند لقياه ! إنها لصورة وضيئة لهذا اللقاء الحبيب الكريم في حضرة الله .

يا الله ! كم ذا يفيض الله على عباده من كرمه ! وكم ذا يغمرهم سبحانه بفضله ! ومن هم حتى يتولى الله جلّ جلاله إعداد ما يدخره لهم من جزاء ، في عناية ورعاية وودّ واحتفال ؟ لولا أنه فضل الله الكريم المنان ؟ فضل الله الكريم حتى يفتح أبواب رحمته الواسعة ، أبواب الجنان :

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ليدخلنّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً – أو سبعمائة ألف – متماسكون آخذٌ بعضهم ببعض ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر [1]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (والذي نفس محمد بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجَر ، أو هجَر ومكة [2]) .

عن خالد بن عُمير قال : خطبنا عتبة بن غزوان رضي الله عنه فحمدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : فان الدنيا قد آذنت بصرُم [3] ، وولت حذّاء [4] ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء يصطبها صاحبها ، وانكم منتقلون منها الى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، ولقد ذُكر لنا أن مصراعين من مصاريع الجنة بينهما

(1، 2) رواه البخاري ومسلم .

(3) قطيعة .

(4) حذاء : مسرعة .

مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم كظيظ من الزحام[(١)]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ، ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوّة[(٢)] ، أزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء[(٣)]) .

وفي رواية قال رسول الله ﷺ (أول زمرة تلجُ الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر . لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الالوّة ، ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقها من وراء اللحم من الحُسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض ، قلوبهم قلب رجل واحد ، يُسبحون الله بكرة وعشيا) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يدخل أهل الجنة الجنة جُرداً[(٤)] مُرداً[(٥)] مكحلين[(٦)] بني ثلاث وثلاثين[(٧)]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ (أهل الجنة جُرد ، مُرد ، كحلى ، لا يفنى شبابهم ، ولا تبلى ثيابهم[(٨)]) .

---

(١) رواه مسلم هكذا موقوفا .

(٢) الالوة : من أسماء العود الذي يتبخر به .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) الجرد : جمع أجرد وهو من لا شعر على جسده .

(٥) المرد : جمع أمرد : وهو من لا شعر في وجهه .

(٦) الكحل : جمع اكحل : وهو الذي اسودت عينه كأنما فيها الكحل .

(٧) رواه الترمذي وقال حسن غريب ، وهو حديث حسن بشواهده .

(٨) اخرجه الترمذي وهو حديث حسن بشواهده .

وعن المقدام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مامن أحد يموت سقطاً ولا هرماً وإنما الناس فيما بين ذلك ، إلا بُعث ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فان كان من أهل الجنة كان على مسحة آدم ، وصورة يوسف ، وقلب أيوب ، ومن كان من أهل النار عَظموا وفخموا كالجبال[1]) .

درجات الجنة :

قال الله تعالى (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة . وكلا وعد الله الحسنى . وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما درجات منه ومغفرة وكان الله غفوراً رحيما) .

وقال تبارك وتعالى : (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) .

وقال سبحانه : (إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما يتراءون الكوكب الدرّي الغابر[2] في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم) قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : (بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين[3]) .

---

(١) رواه البيهقي باسناد حسن .

(٢) الغابر : هو الذاهب الماضي الذي قد تدلى للغروب ، وفي التمثيل به دون الكوكب المسامت للرأس وهو اعلا فائدتان : احداهما بعده من العيون ، والثانية : ان الجنة درجات بعضها اعلا من بعض .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ (إن في الجنة مائة درجة ولو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن وسعتهم)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله بين الدرجتين كما بين السماء والأرض[1]) .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (في الجنة مائة درجة مابين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، منها تُفجَّر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش ، فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس)[2]

وأما أعلا درجة في الجنة فهي الوسيلة وهي درجة النبي ﷺ ، وسُميت الوسيلة لأنها أقرب الدرجات الى عرش الرحمن . وهي أقرب الدرجات الى الله . وأصل اشتقاق لفظ الوسيلة من القرب وهي فصيلة من وَسَّل اليه إذا تقرب إليه .

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليّ فانه من صَلَّى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشراً ثم سَلوا لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه شفاعتي[3]) .

وقال أحمد أنبأنا عبد الرزاق أنبأنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إذا صليتم فسلوا الله لي الوسيلة ، قيل : يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال : أعلا درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من قال حين يسمع النداء : « اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة

---

(١) رواه البخاري .

(٢) اخرجه الترمذي وهو حديث صحيح .

(٣) رواه مسلم .

الرفيعة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة [1]) .

« ومعنى الوسيلة من الوصلة ، ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها وأعظمها نوراً . وقد كشف الله سبحانه عن هـذا المعنى كل الكشف بقوله (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) فقوله (أيهم أقرب) هو تفسير للوسيلة . ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به ، وأشدهم له خشية وأعظمهم له محبة ، كانت منزلته أقرب المنازل الى الله وهي أعلا درجة في الجنة ، وأمر النبي ﷺ أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الايمان [2] » .

٢ ـــ طعام أهل الجنة

يقول الله سبحانه : (إن المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون)وقال سبحانه : (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه اني ظننت أني ملاق حسابيه ،فهو في عيشة راضية،في جنة عالية ، قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) وقال عز وجل : (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) وقال تباركت أسماؤه : (مثل الجنة التي وعدَ المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها) وقال تعالى : (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) وقال تعالى:(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) كل شيء هنا معد للتناول بلا كدّ ولا مشقة، نعيم فيه ما تشتهيه النفس وتلذ العين ، فهنا لاشيء ممنوع . ولاشيء على غير ما يشتهي السعداء الخالدون (ولحم طير مما يشتهون) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) حادي الأرواح ص ٧٢ .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن طير الجنة كأمثال البُخت ، ترعى في شجر الجنة) فقال أبو بكر : يارسول الله إن هذه لطيرٌ ناعمة ، فقال (أكلتُها أنعم منها ، قالها ثلاثاً ، وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها) .

وفي رواية الترمذي ، ولفظه : قال: سُئل النبي ﷺ: ما الكوثر ؟ قال : (ذاك نهر أعطانيه الله — يعني في الجنة — أشدُّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طير أعناقها كأعناق الجُزُر) .-(الجزر: جمع جزور، وهو البعير، والبُخت هي الابل الخراسانية)-

قال عمر : ان هذه لناعمة ، فقال رسول الله ﷺ (أكلتها أنعم منها[1])

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون ، ولا يبولون ، طعامهم جُشاء كريح المسك، يُلهمون[2] التسبيح والتكبير كما يلهمون النَفَس[3]) .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : (نعم ، والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع) . قال : فان الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة ، وليس في الجنة أذى ، قال : (تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك ، فيضمر بطنه[4])

٣ — شراب اهل الجنة

وبينما أهل النار في النار يُشرون ويشربون زيت الدردري أو القيح . إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات عدن للاقامة تجري من تحتهم الأنهار بالري وبهجة المنظر واعتدال النسيم . .

---

(١) رواه احمد باسناد جيد والترمذي وقال حديث حسن .

(٢) يعني ان التسبيح والتكبير والتحميد من الاعمال غير الارادية ، فهم لا يتكلفونها ، لان الجنة ليست دار تكليف وانما هي دار ثواب .

(٣) رواه مسلم وابو داود .

(٤) رواه احمد والنسائي ورواته محتج بهم في الصحيح .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (الكوثر نهر في الجنة : حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج [١]) .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (بينا أنا أسير في الجنة ، إذ أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هـذا يا جبريل ؟ قال هـذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، قال : فضرب المَلَكُ بيده ، فاذا طينه مسكٌ أذفر[٢]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أنهـار الجنة تخرج من تحت تلال — أو من تحت جبال المسك[٣]) .

وعن معاوية وهو جدّ بهز بن حكيم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن في الجنة بحر العسل وبحر الخمر وبحر الماء ، ثم تنشق الأنهار بعد [٤]) .

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (رُفِعت لي السدرة ، فاذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فأما الظاهران : فالنيل والفرات ، وأما الباطنان : فنهران في الجنة ، وأُتيتُ بثلاثة أقداح : قدح فيه لبن ، وقدح فيه عسل ، وقدح فيـــه خمر ، فأخذتُ الذي فيه اللبن ، فقيل لي : أصبتَ الفطرة [٥]) .

إن أهل الجنة ينعمون بكل معاني النعيم واللذة وإذا شربوا فماذا يشربون : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عيناً يشرب بها عباد الله يُفجّرونها تفجيرا) (ويُسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا . عينـاً فيها تُسمى سلسبيلا) .

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث .

(٢) مسك أذفر : اذا كان طيب الريح ، والحديث رواه البخاري .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه .

(٤) اخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) اخرجه البخاري

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار في الجنة ممزوج بالكافور ، ويشربون في كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيرا ، في كثرة ووفرة .

وهم في ذلك النعيم يُطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة ، وفي أكواب من فضة ، ولكنها شفة القوارير (ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدّروها تقديرا) .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (جنتان من فضة ، آنيتها وما فيها ، وجنتان من ذهب ، آنيتها وما فيها ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن[1]) .

كله مما لم تعهده الأرض ، وهذه الآنية بأحجام مقدرة تقديراً يحقق المتاع والجمال ، ثم هي تُمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور (ومزاجها زنجبيلا) . وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا (عيناً فيها تسمى سلسبيلا) ، لشدة عذوبتها واستساغتها لدى الشاربين . هؤلاء المتقون في ظلال ، وفي عيون من ماء .. (إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون) وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسي التكريم العلوي على مرأى ومسمع من الجموع (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) .

وهذا الماء الذي يشربونه هو كالينبوع المتدفق (فيها عين جارية) وهو يجمع الى الري الجمال . جمال الحركة والتدفق والجريان . والماء الجاري يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التي تنتفض وتنبض ! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفي ، الذي يتسرب إلى أعماق الحس . إنهم في موضع التكريم ، ينظرون حيث يشاءون ، لا يغضون من مهانة ، ولا يشغلون عن النظر من مشقة ، وهم على الأرائك . وهم في هذا النعيم ناعمو النفوس والأجسام ، تفيض النضرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم .

راء : (تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختـــامه مسك) والرحيق الشراب الخالص المصفى ، الذي لا غش فيه ولا كدرة (ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون) ، فهم في نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم ، نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس . وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه من ألوان النعيم : (أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) .

إنهم في أعلى مراتب التكريم . فهم يُخدَمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان والنعيم ، وزيادة في المتـــاع فان الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه ، لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تدركهم السن ؛ فهم مُخلَّدون في سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنـــا كاللؤلؤ المنثور (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً) . يطوفون عليهم بأكواب وأباريق وكأس من معين من خمر صافية سائغة . فلا هم يفرقون عنها ولا هي تنفذ من بين أيديهم . فكل شيء هنا للدوام .

تلك أجمل أوصاف الشراب التي تحقق لذة الشراب ، وتنفي عقابيله ، فلا خمار يصرع الرؤوس ، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع ، فهم في متاعهم متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق (ودانيـة عليهم ظلالهـا وذُلِّلت قطوفها تذليلا) فهم في ظل ظليل ناعم هادىء .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن في الجنـة شجرة يسير الراكب في ظلهـا مائة عام لا يقطعها ، إن شئتم فاقرؤا (وظل ممدود وماء مسكوب[1]) .

---

(١) رواه البخاري والترمذي .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمّر السريع مائة عام لا يقطعها) وزاد الترمذي : (وذلك الظل الممدود[1]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ: يقول الله :(أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر) اقرءوا إن شئتم (وظل ممدود) وموضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، واقرؤا إن شئتم (فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز) .

فهم في نعيم والى نعيم فهم في جنات خضراء ، والعيون تنضّ بالماء : (ومن دونهما جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان نضاختان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما فاكهة ونخل ورمان) . وننظر إلى أهل الجنتين متكئين على الأبسط وكأنها من صنع عبقر ، وقد كانوا ينسبون كل عجيب الى وادي الجن عبقر (متكئين على رَفرف خُضر وعبقري حسان) .

والسابقون المقربون : (والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سُرر موضونة متكئين عليها متقابلين) ، سرر مشبكة بالمعادن الثمينة متكئين عليها في راحة وخلو بال من الهموم والمشاغل ، وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاذه وفي اقبال بعضهم على بعض يتسامرون .

إنها الجنة في نعيمها ، فيها السرر المرتفعة التي توحي بالنظافة كما توحي بالطهارة ، والأكواب مصفوفة مهيأة للشراب لا تحتاج الى طلب ولا إعداد . والوسائد والحشايا للاتكاء في ارتياح ، والبسط والسجاجيد مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء (فيها

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي وزاد : (وذلك الظل الممدود) .

سررٌ مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة) .

وكلها مناعم مما يشهد الناس له أشباهاً في الأرض . وتذكر هذه الأشياء لتقريبها الى مدارك أهل الأرض . أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها فهي موكولة الى المذاق هناك . للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق .

وهناك لا فضول في الحديث في الجنة ولا ضجة ولا جدال ، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الراضي صوت السلام (جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب . إنه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) الجو سكون وهدوء يغدره السلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء والأدواء ، والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية ، لا خير فيها ولا عافية ، هناك في الجنة العالية (في جنة عالية) ، عالية في ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هي عالية الدرجات . وعالية المقامات . إنه جو السعادة والتنزه عن كل كلمة لاغية . وهذه وحدها نعيم . وهذه وحدها سعادة . سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقعة وفرقعة . وضجة وصخب ، وهرج ومرج . ثم يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضي والظل الندي في العبارة الموحية (لا تسمع فيها لاغية) وألفاظها تنسم الروح والندى وتنزلق في نعومة ويسر ، وتوحي هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين في الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو هي طرف من حياة الجنة . يتهيأون بها لذلك النعيم الكريم . يوم يحيون في هدوء وسكون ، وفي ترفع وتنزيه عن كل لغو في الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذة (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاما) .

حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة

في ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويُسلم بعضهم على بعض . ويبلغهم السلام من الرحمان . فالجو كله سلام سلام .

فهي حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذي يصاحبه الجدل ، فهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود (لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً) والرزق في هذه الجنة مكفول لا يحتاج الى طلب ولا كد . ولا يشغل النفس بالقلق والخوف من التخلف أو النفاد . فما يليق الطلب ولا القلق في هذا الجو الراضي الناعم الأمين . فمن شاء وراثة الجنة فالطريق معروف : التوبة والايمان والعمل الصالح .

إن هذه الصور الحسية والمعنوية من النعيم والعذاب ترد في مواضع شتى من القرآن . والله الذي خلق البشر ، أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يؤثر في قلوبهم ، ومايصلح لنعيمهم ولعذابهم .

والنفوس ألوان ، والطبائع شتى . تلتقي كلها في فطرة الانسان ، ومن ثم فصّل الله ألوان النعيم والعذاب ، وصنوف المتاع والآلام ، وفق علمه المطلق بالعباد . وأي فوز عظيم من يفوز بالنجاة يوم الهلاك ويستمتع بالمقام الأمين (إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون . يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلاً من ربك . ذلك هو الفوز العظيم) .

فاذا المتقين الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون . إذا هم في مقام أمين ، لا خوف فيه ولا فزع ، ولا شد فيه ولا جذب ، ولا عتل ولا وصب ! بل هم منعمون رافلون في جنات وعيون يلبسون من سندس — وهو الحرير الرقيق — ومن استبرق — وهو الحرير السميك — ويجلسون متقابلين في مجالسهم يسمرون ، فهم في سمر والى سمو . من نعيم الى نعيم .

عن عبد الرحمن بن ساعدة رضي الله عنه قال : كنت أحبُ الخيل ، فقلت :

يا رسول الله ، هل في الجنة خيل ؟ فقال : (إن أدخلك الله الجنة يا عبد الرحمن كان لك فيها فرس من ياقوت وله جناحان يطير بك حيث شئت[1]) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جُمعة ، فتهبُّ ريح الشمال ، فتحثو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فتقول لهم أهلوهم ، والله لقد ازددتم بعدنا حسناًوجمالاً ، فيقولون:وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً[2]) .

إنه النعيم من عطاء الله الكريم . وهم في الجنـة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاءون ويدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يتوقعون نهاية لهذا النعيم ، فلا موت هنالك وقد ذاقوا الموتة الأولى ، وغيرها لا يذوقون . وفضلُ الله عليهم أن وقاهم من عذاب الجحيم. فالنجاة من العذاب لا تكون إلا بفضله ورحمته،وأي فوز عظيم ... فلا موت.. بل نعيم مقيم .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (إذا صار أهل الجنة الى الجنة ، وأهل النار الى النار ، جيء بالموت ، حتى يجعل بين الجنة والنـار ، فيذبح ، ثم ينادي منادٍ : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النـار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً الى فرحهم وأهل النار حزناً الى حزنهم[3]) .

٤ — نساء اهل الجنة

يقول الله سبحانه : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحـات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هـذا الذي رزقنـا من قبل وأتوا به

(١) رواه الطبراني ورواته ثقات .

(٢) رواه مسلم .

(٣) اخرجه البخاري ومسلم .

متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة [1] وهم فيها خالدون) .

يقول ابن قيم الجوزية : (وجمع سبحانه في هذه البشارة نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه) .

والمؤمنون هناك في الجنة رافلون في ألوان من المتاع والحرير ، (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، يُحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب وحسنت مرتفقا) ، والمؤمنون هناك للارتفاق حقاً رافلون في ألوان الحرير (هم وأزواجهم) من سندس ناعم خفيف ومن استبرق مخمل كثيف تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع ، متاع لا يخطر على قلب بشر .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (من يدخل الجنة ينعّم ، ولا يبأس ، ولا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، في الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر[2]) .

وعن عبد الله — يعني ابن مسعود — رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (أول زمرة يدخلون الجنة كأن وجوههم ضوء القمر ليلة البدر ، والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب دري في السماء ، لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين ، على كل زوجة سبعون حلّة ، يُرى مُخ سوقها من وراء لحومها وحليها كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء[3]) .

---

(١) المطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل اذى يكون من نساء الدنيا .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الطبراني باسناد صحيح والبيهقي باسناد حسن .

ومن شاء فليختر . ومن شاء فليؤمن ومن شـــاء فليكفر ، هـذا هو فضل الله الكريم المنان (ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان تجريان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنهـا من استبرق وجنى الجنتين دان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . هل جزاء الاحسان إلا الاحسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . ومن دونهما جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

فلنشهد الجنتين الأولين ولنعش فيهما لحظات : انهما ذواتا أفنان ، والأفنان الأغصان الصغيرة الندية فهما ريانتان. وماؤهما غزير ، وسهل يسير ، وفاكهتهما كثيرة وفيرة . وأهل الجنتين ما حالهم : متكئين على المخمل الحرير السميك . فكيف وهـذه بطائن الفرش ، كيف بظاهرها إذا كانت تلك بطائنها ، وكل شيء قريب التنـــاول لا يتعب فيها قطاف ، كلها السعادة والراحة والاطمئنان والجمال .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله حدّثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : (لَبِنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ،وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعّم ، ولا يبأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه [1]) .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة طولها في السماء ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً [2]) .

(١) رواه احمد والترمذي والبزار والطبراني في الاوسط ، وابن حبان في صحيحه .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

ولكن هذا لا يستقصي ما في الجنة من رفاهة ومتاع فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) ، فهنّ عفيفات الشعور والنظر لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسسهن إنس ولا جان ، وهنّ بعد هذا ناضرات لامعات (كأنهنّ الياقوت والمرجان) وقد وصفهم الله سبحانه كذلك (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون الذي لم يتعرض للمّس والنظر ، فلم تثقبه يد ولم تخدشه عين ! وفي هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الواسعات العيون . فمن متاع الى متاع لا ينتهي .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقابُ (١) قوس أحدكم أو موضع قيده — يعني سوطه — من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطّلعت امرأة من نساء أهل الجنة الى الأرض لملأت ما بينها ريحاً ، ولأضاءت ما بينها ، ولنصيفها (٢) على رأسها خير من الدنيا وما فيها (٣)) .

وقال رسول الله ﷺ (غدوة في سبيل الله أو موضع قدم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة اطلعت على الأرض من نساء أهل الجنة لأضاءت ما بينها ولملأت ما بينها ريحاً ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها (٤)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء ، ولكل منها زوجتان اثنتان يُرى مخّ سوقها من وراء اللحم ، ومافي الجنة أعزب (٥)) .

---

(١) القاب : المقدار .

(٢) النصيف : الخمار .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في الجماع) ، قيل يا رسول الله أو يطيق ذلك؟ قال : (يعطى قوة مائة[1]).

ألا إنها الجنة (إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا) ، إن المتقين ينتهون الى مفازة ومنجاة تتمثل حدائق وأعناب ، وكواعب وهن الفتيات الناهدات ، اللواتي استدارت ثديهن . أترابا متوافيات السن والجمال . وكأسا دهاقا مترعة بالشراب (وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون) ، وعندهم حور لا تمتد أبصارهن الى غير أصحابهن حياء وعفة ، مع أنهن واسعات جميلات العيون! وهن كذلك مصونات معرقة ولطف ونعومة لا تبتذله الأيدي ولا العيون .

وذلك كله جزاء من خاف مقام ربه ، وعبده كأنه يراه ، شاعراً أن ربه يراه ، فبلغ بذلك مرتبة الاحسان كما وصفها رسول الله ﷺ فنالوا جزاء الاحسان من عطاء الرحمان .

٥ ـ أصحاب الجنة

يقول الله سبحانه : (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون) .

ويقول سبحانه : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ــ لا نكلف نفساً إلا وسعها ــ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غلّ تجري من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق . ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم ، لا يكلفون إلا طاقتهم .

---

(١) اخرجه الترمذي واسناده حسن ، ورواه الدارمي باسناد صحيح من حديث زيدبن ارقم.

هؤلاء هم يعودون الى جنتهم ! إنهم أصحابها — بإذن الله وفضله — ورثها لهم — برحمته ، بعملهم الصالح مع الايمان ، جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان . وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم ! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم — في حدود طاقتهم — وقد قال رسول الله ﷺ (لن يُدخل أحداً منكم الجنة عملهُ) قالوا : ولا أنت يا رسول الله . قال : (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل[1]) .

إن أصحاب الجنة هم الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) . وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل في أمر الخلق ، فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . والتعبير يوحي بأن في الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه ، فالنجاة من هذا كله غنيمة وفضل من الله يضاف الى الجزاء المزيد فيه .

إن أصحاب الجنة هم أصحاب القلوب المفتوحة ، ما إن تتلقى حتى تستجيب ، وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة ، فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها ، فتتجه الى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات (سبحانك فقنا عذاب النار) .

هؤلاء هم الذين يخشون ربهم ويتقونه ، ويعيشون في حذر وخشية ، في تطلع ورجاء ، هم أصحاب النفوس الطاهرة الذين يتورعون عن مقارفة الذنوب والفواحش

---

(١) اخرجه مسلم .

(الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش) . ونظافة السلوك من كبائر الاثم ومن الفواحش أثر من آثار الايمان الصحيح . وما يبقى قلب على صفاء الايمان ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للجنة وقد فارقه صفاء الايمان وطَمَسته المعصية وذهبت بنوره .

هذه القلوب المفتوحة قد أزالت العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها . عوائق من وجودها وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فانها تجد الطريق الى ربها مفتوحاً وموصولاً . وحينئذ تستجيب بلا عائق .. (والذين استجابوا لربهم) تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكاليف بعائق من هوى يمنعها .

إن أصحاب الجنة هم الذين تهتز مشاعرهم ، وتلين قلوبهم لذكر الله (وَبَشِّر المخبتين الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم) ، وهؤلاء بعد تحرك الوجل في ضمائرهم ومشاعرهم تفيض أعينهم من الدمع (ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) ، وفاضت أعينهم من الدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه . والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاءة من التعبير إلا الدمع الغزير . وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدي مالا يؤديه القول ، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العنيف .

يقول رسول الله ﷺ : (عينان لا تمسها النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله [1]) .

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي

---

(١) اخرجه الترمذي وهو حديث حسن .

تأثروا به ، إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق . إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً ايجابياً صريحاً ، موقف الاستماع والمعرفة ، ثم التأثر الغامر والايمان الجاهر ، ثم الاسلام ، والشهادة لهذا الدين سلوكاً وعملاً وجهاداً لاقراره في الأرض والتمكين له في حياة الناس .

هؤلاء هم القائمون بالعزائم والتكاليف ، الخائفون من اليوم العبوس ، يبتغون وجه الله وحده (إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) .

ومن هنا يبدو أثر الايمان في القلب ، من الحساسية والارهاف والتحرج ، والتطلع الى الكمال . وحساب العواقب . مهما ينهض بالواجبات والتكاليف . فهؤلاء المؤمنين يشفقون من ربهم خشية وتقوى ؛ وهم يؤمنون بآياته ولا يشركون به . وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا ، ولكنهم بعد هذا كله : (يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) ، لإحساسهم بالتقصير في جانب الله ، بعد أن بذلوا ما في طوقهم ، وهو في نظرهم قليل .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت يا رسول الله (الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة) هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : (لا يا بنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل [1]) .

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه ، ويحس آلاءه في كل نَفَس وكل نبضة ، ومن ثم يستصغر كل عباداته ، ويستقل كل طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه . كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته ، ويرقب بكل مشاعره يد الله

(١) اخرجه الترمذي .

في كل شيء من حوله ، ومن ثم يستشعر بالهيبة ، ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه ، لم يوفّه حقه عبـــادة وطاعة . ولم يقارب أياديه عليه معرفـة وشكرا ، وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لهـا فينالونها في الطليعة ، بهذه اليقظة وبهذا التطلع ، وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة . لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة ، مرادون بالخير ، كالصيد الغافل يُستدرج الى مصرعه بالطعم المغري . ومثل هذا الطير في الناس كثير ، يغمرهم الرخاء ، وتشغلهم النعمة ، ويطغيهم الغنى ، ويلهيهم الغرور ، حتى يلاقوا المصير !

تلك اليقظة التي يفرضها الاسلام على قلب المسلم . والتي يستجيشها الايمـان بمجرد استقراره في القلوب ، ليست أمراً فوق الطـاقة ، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة . إنمـا هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به . ومراقبته في السر والعلن ؛ وهي في حدود الطاقة الانسانية ، حين يشرق فيها ذلك النور الوضيء (ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يُظلمون) .

ولقد شرع الله التكاليف وفق ما يعلم من استعداد النفوس ، وهو محاسبهم وفق ما يعملونه في حدود الطاقة ، لا يظلمون بتحميلهم مالا يطيقون ، ولا يبخسهم شيئاً ممـا يعملون ، وكل ما يعملونه محسوب في سجل (ينطق بالحق) ويبرزه ظاهراً غير منقوص والله خير الحاسبين .

إن أصحاب الجنة هم أصحاب الشعور بخشية الله ، خشية تدفع الى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف . الشعور الذي يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عارياً أمام الواحد القهار . والذي يخلص العبـــادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره . فالذي يخشى ربه حقاً لا يملك أن يخطر في قلبه ظلّا لغيره مع خلقه . وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد الى غيره معه . فهو أغنى الشركاء عن الشرك فإما عمل خالص له ، وإلا لم يقبله . قال رسول الله ﷺ : قال الله

تعالى : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه[1]) .

إن أصحاب الجنة هم المتقون الخائفون . المترقبون . والله لا يجمع على نفس خوفين : خوفها منه في الدنيا ، وخوفها يوم القيامة . فمن اتقاه في العاجلة أمنه في الآجلة ، ومع الأمان في أفزع موطن يغمره بالانس والتكريم .

وقال ﷺ (قال الله عز وجل : لا أجمع على عبدي خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، فان أمِنَني في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة[2]) .

وقد وصف رسول الله ﷺ أهل الجنة وأصحابها فقال : (عُرِض عليّ أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد ، وعفيف متعفف ، وعَبْدٌ أحسن عبادة الله ونصح لمواليه[3])

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ قالوا : بلى ، قال : كل ضعيف مُتضَعّف لو أقسم على الله لأبرّه[4])

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير[5])

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ؛ والنبي وليس معه احد ، ورفع إلي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي هذا موسى وقومه ،ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فاذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير

---

(١) رواه مسلم .

(٢) اخرجه ابن حبان في صحيحه .

(٣) اخرجه الترمذي عن ابي هريرة ، ورواه ايضا احمد في المسند والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) اخرجه مسلم .

حساب ولا عذاب) ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . قال بعضهم لعلّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم فلعلهم الذين وُلِدُوا في الاسلام فلم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء . فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : (ماالذي تخوضون فيه)؟فأخبره فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : (أنت منهم). ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : (سبقك بها عكاشة[١]) .

وقد جعل النبي ﷺ الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده فلايسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون والطيرة نوع من الشرك، ويتوكلون على الله وحده لا على غيره، وتركهم الاسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله كما في الحديث : (الطيرة شرك) .

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ (إن المتحابين لترى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي ، فيقال : مَنْ هؤلاء ؟ فيقال : هؤلاء المتحابون في الله عز وجل) .

وفي المسند عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال : (يقال لصاحب القرآن اذا دخل الجنة اقرأ واصعد ، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه) .

عن حارثة بن وهب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يدخل الجنة الجوّاظ[٢] ولا الجعظري[٣] ، قال : ولا الجواظ الغليظ الفظ[٤]) .

وعنه رضي الله عنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) الجواظ : المنوع ، وقيل السمين المختال في مشيته ، وقيل القصير البطين .

(٣) الجعظري : الفظ الغليظ .

(٤) أخرجه أبو داود واسناده صحيح .

ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهـــل النار ؟ كل عتل[1] جواظ مستكبر[2])

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها) فقال أبو مالك الأشعري : لمن هي يارسول الله قال : (لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات قائماً والناس نيام [3]) .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أنا زعيم ببيت في ربض[4] الجنة لمن ترك المراء[5] وإن كان محقاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه[6]) .

وقال ﷺ : (وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال ..[7])

وأبواب الجنة كثيرة بحسب أصول الطاعات كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : (من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب . فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهـل الجهاد دعي من باب الجهاد ، فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحـد من ضرورة من أيها دعي . فهل يدعى أحد منها كلها قال : نعم وأرجو أن تكون منهم[8])

---

(١) العتل : الغليظ الجافي .

(٢) اخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) رواه الطبراني والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ، ورواه احمد وابن حبان في صحيحه .

(٤) ربض المدينة : ما حولها من العمارة .

(٥) المراء : الجدال .

(٦) اخرجه ابو داود واسناده صحيح .

(٧) اخرجه مسلم .

(٨) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تحاجّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم[1]؟ زاد في رواية وغرّتهم[2] — فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذّب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منها ملؤها، فأما النار: فلا تمتلىء حتى يضع رجله وفي رواية حتى يضع الله تبارك وتعالى رجلَه — فتقول: قطّ قطّ قطّ، فهنالك تمتلىء، ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فان الله ينشىء لها خلقاً[3]).

٦ — أحوال الناس في الجنة

يقول الله سبحانه (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبرون. يُطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون)

إن السرور يشيع في أعطافهم وقسماتهم، فيبدو عليهم الحبور، فاذا صحاف من ذهب وأكواب يُطاف بها عليهم، واذا لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس. وفوق شهوة النفس التذاذ العيون، وكمالاً وجمالاً في التكريم. كما أنّ لهم الخلود: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً).

إنهم خالدون في جنات الفردوس، فهم مستقرون مستروحون ناعمون في الظلال.

---

(١) السقط في الاصل: المزدرى به.

(٢) الغر: الذي لم يجرب الامور، فهو قليل الشر منقاد، والمعنى: أن من آثر الخمول واصلاح نفسه والتزود لمعاده ونبذ أمور الدنيا، فليس غراً فيما قصد له، ولا سقطا ولا ملموما بنوع من الذم.

(٣) متفق عليه.

(في ظلال وعيون) (أصحاب الجنة يومئذ خيرٌ مستقراً وأحسن مقيلا) .. آخذين من فضله وإنعامه جزاء ما أسلفوا في الحياة الدنيا من عبادة لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم : (إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين) ، فهنا وجوههم يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجد ، وتحمد ماعملت فوجدت عقباً وخيراً . (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية) ، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته ، ثم يراها ممثلة في رضى الله الكريم . وفي النعيم . ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على مافي الجنة من رخاء ومتاع ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء . (ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) ، إن المشهد يتكشف عن نعيم مادي ملموس ونعيم نفسي محسوس . فهم في بعض المتاع ذي المظهر المادي الذي يلبي بعض رغائب النفوس . وبجانبه ذلك الرضى وذلك الأمن وذلك الأطمئنان فالجو كله يسر وراحة ونعيم ، (إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) والذين آمنوا فهم هناك في الجنّات تجري من تحتها الأنهار . وفُصلت لباسهم من الحرير فوقها حلي من الذهب واللؤلؤ . وقد هداهم الله إلى الطيب من القول . وهداهم إلى صراط الحميد ، إنها نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق .

وهم في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم ولكنهم يُكرمون بتجمع شتاتهم ، وتلاقي أحبابهم ، (أولئك لهم عُقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم

وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم . فنعم عقبى الدار) ، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان .

روى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه) ثم قرأ (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) ، قال : (ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين[1]) .

وذكر ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك أظنه حكاه عن النبي ﷺ قال : (إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك فيقول يارب قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بالالحاق بهم ثم تلا ابن عباس : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) الى آخر الآية[2]) .

وفي جو التجمع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم ، في حركة رائحة غادية . فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والاكرام (تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً) ، سلام من كل خوف ، ومن كل تعب ، ومن كل كدّ سلام يتلقونه من الله تحمله إليهم الملائكة . وهم يدخلون عليهم من كل باب ، يبلغونهم التحية العلوية . إلى جانب ما أعد لهم من أجر كريم ، فياله من تكريم ، فهم مشغولون بما هم فيه من النعيم ، ملتذون متفكهون . وانهم لفي ظلال مستطابة ، يستروحون نسيمها ، وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم ، (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون . سلامٌ قولاً من ربّ رحيم) . لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاؤون ، وهم ملاك محقق لهم فيه كل ما يدعون . ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتكريم ، (سلام) ،

(٢،١) حادي الارواح لابن قيم الجوزية (٢٢٠) .

يتلقونه من ربهم الكريم ، (سلام قولاً من ربٌ رحيم) .

ها هم المتقون يدخلون الجنات بسلام آمنين،فهم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه . ونزع الله مافي صدورهم من غلّ ، في مقابل الحقد الذي يغلي به صدر ابليس لغوايتهم ولا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجا :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . ثم يُقال، يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ، ثم يقال : يا أهــل النار فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة .فيقال لأهل الجنة وأهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيقول هؤلاء قد عرفناه هوالموت الذي وُكّلَ بنا فيُضجع فيذبح ذبحاً على السور . ثم يقال ياأهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لاموت[1]).

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (النوم أخو الموت وأهــل الجنة لا ينامون[2])

وعن جابر رضي الله عنه قال سئِل نبي الله ﷺ فقيل أينام أهل الجنة ؟ فقالالنبي ﷺ : (النوم أخو الموت وأهل الجنة لاينامون[3])

وهذا كله جزاء ما خافوا في الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن في جوار الكريم ، بعد أن نزع الله من صدورهم الغلّ :

(إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا ما في صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين . لايمسهم فيها نصب ومـا هم منها بمخرجين) . (ونزعنا مافي صدورهم من غلّ) . فهم بشر وعاشوا بشراً . وقـد يثور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه ، وغل يغالبونه ويغلبونه ، ولكن تبقى في القلب منه آثار .

---

(١) رواه النسائي والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح .

(٢) رواه ابن مردويه (حادي الارواح ٣٢٠) لابن قيم الجوزية .

(٣) رواه الطبراني .

قال القرطبي في تفسيره أحكام القرآن : قال رسول الله ﷺ (الغل على أبواب الجنة كمبارك الابل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين) . وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجري من تحتهم الأنهار ، فترف على الجو كله أنسام ، وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام ، فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف . وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب ، فإن هؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم .

هؤلاء لاخوف عليهم . فالسرور يشيع في أعطافهم وقسماتهم فيبدو عليهم الحبور فاذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم ، وإذا لهم في الجنة ما تشتهيه الأنفس وفوق شهوة الأنفس التذاذ العيون، وكمالاً وجمالاً في التكريم : (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) .

إنه مشهد وديع أليف ، رضي جميل، إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين ،حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) . والتكريم في كل كلمة ، وفي كل حركة . فالجنة تقرب وتزلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء (غير بعيد) ونعيم الرضا يتلقاهم مع الجنة : (هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى ، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون ، حفيظون ، يخشون الرحمن ولم يشهدوه ، فيثبون الى ربهم طائعين . ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير خروج (ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) . ثم يؤذن في الملأ الأعلى ، تنويهاً بشأن القوم ،

واعلاناً بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) ، فمها اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعدّ لهم . فالمزيد من ربهم غير محدود .

وإن عرض صورة المتقين وما أعدّ لهم من تكريم . وما هيىء لهم من نعيم رخي رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته ، وتتعدد ألوانه ، بما يستجيش الحس الى روح النعيم وبرده (إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم) ثم بعد ذلك الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم : (رضي الله عنهم ورضوا عنه) ، وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم . الرضا عن قدّره فيهم . والرضا عن انعامه عليهم . والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم . الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عزوجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يا ربنا ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك ؟ فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً [(1)]) .

ويقول سبحانه : (وعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم) .

إن الجنة للاقامة المطمئنة ولهم فوقها ما هو أكبر وأعظم ، وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم ، إن لحظة اتصال بالله . لحظة شهود لجلاله . لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة . لحظة تنبثق فيها في أعماق القلب البشري شعاعة من ذلك النور الذي

---

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

لا تدركه الأبصار . لحظة اشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله ، إن لحظة واحدة من هـــذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء ، ليتضاءل الى جوارها كل متاع ، وكل رجاء ، فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح ، وتستشعره بدون انقطاع ؟.

يقول الامام المحاسبي[1] (.. فإن كنتَ من أهل العفو والتجاوز فتوهَّم إن تفضل الله عز وجل عليك بالعفو والتجاوز مرّك على الصراط ونورك معك يسعى بين يديك وعن يمينك مبيّض وجهك وقد فصلت من بين يدي الله عز وجل ، وأيقنتَ برضاه عنك وأنت على الصراط مع زمر العابدين ووفود المتقين ، والملائكة تنــادي سلّم سلّم ، والوجل مع ذلك لا يفارق قلبك ولا قلوب المؤمنين ، تنادي وينادون : (ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) ، فتدبّر حين رأوا المنافقين طُفىء نورهم وهــاج الوجل في قلوبهم فدعوا بتمام النور والمغفرة . فتوهم نفسك وقد انتهيت الى آخره فغلب على قلبك النجاة وعلا عليك الشفّق ، وقد عاينتَ نعيم الجنان وأنت على الصراط ، فحنّ قلبك على جوار الله عز وجل واشتاق الى رضا الله حتى إذا صرت الى آخره خطوت بأحد رجليك إلى العرصة التي بين آخر الجسر وبين باب الجنة فوضعتها على العرصة التي بعد الصراط ، وبقيت القدم الأخرى على الصراط، والخوف والرجاء قد اعتليا في قلبك وغلبــا عليك ، ثم ثنيت بالأخرى فجزت الصراط كله واستقرت قدماك على تلك العرصة ، وزلت عن الجسر ببدنك ، وخَلَّفته وراء ظهرك، وجهنم تضطرب من تحت من يمر عليهــا ، وتثب على من زلّ عنه مغتاظة تزفر عليه وتشهق اليه ، ثم التفتّ الى الجسر فنظرت اليـه باضطرابه ونظرت الى الخلائق من فوقه والى جهنم من تحته تثب وتزفر على الذين زلزلوا عن الصراط لها في رؤوسهم ،

---

(١) التوهم ص ٣٢ .

فطار قلبك فرحاً إذ رأيتَ عظيم ما نجاك الله منه ، فحمدتَ الله وازددت له شكراً إذ نجوت بضعفك من النار وخلّفت النار وجسرها من وراء ظهرك متوجهاً الى جوار ربك ، ثم خطوت آمناً الى باب الجنة قد امتلأ قلبك سروراً وفرحاً ، فلا تزال في ممرك بالفرح والسرور حتى توافي أبوابها ، فاذا وافيتَ بابها استقبلك بحسنه ، فنظرتَ الى حسنه ونوره وحسن صورة الجنة وجدرانها ، وقلبك مستطير فرح مسرور متعلق بدخول الجنة حين وافيتَ بابها أنت وأولياء الرحمان . فتوهم نفسك في ذلك الموكب وهم أهل كرامة الله ورضوانه مبيّضة وجوههم مشرقة برضا الله مسرورون مستبشرون ، وقد وافيتَ باب الجنة بغبار قبرك ، وحرّ المقام ووهج تعب ممرّ بك ، فنظرت الى العين التي أعدها الله لأوليائه والى حسن مائها ، فانغمستَ فيها مسروراً لما وجدتَ من برد مائها وطيبها ، فذهب عنك بحزن المقام وطهرك من كل دنس وغبار ، فتوهم فرحة فؤادك لما باشر برد مائها بدنك بعد حرّ الصراط ووهج القيامة وأنت فرح لمعرفتك أنك إنما تغتسل لتتطهر لدخول الجنة والخلود فيها ، ثم تخرج منها في أحسن الصور وأتمّ النور . ثم تقصد الى العين الأخرى فتتناول من بعض آنيتها ، فتوهم نظرك الى حسن الاناء والى حسن الشراب وأنت مسرور بمعرفتك أنك إنما تشرب هذا الشراب لتطهر جوفك من كل غلّ وجسدك ناعم أبداً ، حتى إذا وضعت الاناء على فيك ثم شربته وجدتَ طعم شراب لم تذق مثله ، حتى إذا استكملت طهارة القلب والبدن واستكمل أحباء الله ذلك معك ، والله مطّلع يراك ويراهم ، أمر مولاك الجواد المتحنّن خزّان الجنة من الملائكة الذين لم يزألوا مطيعين خائفين منه مشفقين وَجِلين من عقابه إعظاماً له وإجلالاً وهيبة له وحذراً من نقمته ، وأمرهم أن يفتحوا باب جنته لأوليائه فانحدروا من دارها وبادروا من ساحاتها وأتوا باب الجنة فمدوا أيديهم ليفتحوا أبوابها ، وأيقنتَ بذلك فطار قلبك سروراً وامتلأت فرحاً وسمعتَ حسن صرير أبوابها فعلاك السرور وغلب على فؤادك ، فياسرور قلوب المفتوح لهم باب

جنة رب العالمين ، فلما فتح لهم بابها هاج نسيم طيب الجنان وطيب جري مائهـــا فنفح وجهك وجميع بدنك وثارت أراييح الجنـة العبقة الطيبة وهاج ريح مسكها الأذفر وزعفرانها المونع وكافورها الأصفر وعنبرها الأشهب وأرياح طيب ثمارهـا وأشجارها وما فيهـــا من نسيمها ، فتداخلت تلك الأراييح في مشامّك حتى وصلت الى دماغك وصار طيبها في قلبك ،فاض من جميع جوارحك ، ونظرت بعينك الى حسن قصورها وتأسيس بنيانهـــا من طرائق الجندل الأخضر من الزمرد والياقوت الأحمر والدر الأبيض قد سطع منه نوره وبهاؤه وصفاؤه ، فقد أكمله الله في الصفاء والنور ومازجه نور ما في الجنان ، ونظرت الى حجب الله وفرح فؤادك لمعرفتك أنك إذا دخلتها فان لك فيها الزيادات والنظر الى وجه ربك ، فاجتمع طيب أراييح الجنـة وحسن بهجة منظرها وطيب نسيمها وبرد جوّها ..

فتوهم نفسك إن تفضّل الله عليك بهذه الهيئة فلو متّ فرحاً لكان ذلك يحق لك حتى إذا فتحوا بابها أقبلوا عليك ضاحكين في وجهك ووجوه أوليـــاء الله معك ، ونادوكم سلام عليكم ، ثم أتبعوا السلام بقولهم : طبتم فادخلوهـا خالدين ، فلما سمعتَ الإذن وأولياء الله معك بادرتم الباب بالدخول فكظت الأبواب من الزحام ، فما ظنك بباب مسيرة أربعين عاماً كظيظه من زحام أوليـاء الرحمان فأكرم بهم من مزدحمين مبادرين الى ما قد عاينوا من حسن القصور من الياقوت والدر . فتوهم نفسك ان عفـا الله عنك في تلك الزحمة مبادراً مع مبادرين مسروراً مع مسرورين بأبدان قد طهرت ووجوه قد أشرقت وأنارت فهي كالبدر ، فلما جاوزتَ بابها وضعت قدميك على تربتها وهي مسك أذفر ونبت الزعفران المونع والمسك مصبوب على أرض من فضة والزعفران نابت حولها فذلك أول خطوة خطوتهـــا في أرض البقاء بالأمن من العذاب والموت ، فأنت تتخطى في ترب المسك ورياض الزعفران ، وعيناك ترمقان حسن بهجة الدر من حسن أشجارها وزينة تصويرهـا ، فبينا أنت تتخطى في عرصات الجنان في رياض

الزعفران وكثبان المسك إذ نودي في أزواجك وولدانك وخدامك وغلمانك ، إن فلاناً قد أقبل فأجابوا واستبشروا لقدومك كما يبشر أهل الغائب في الدنيا بقدومه ..) .

٧ ــ رؤية الله عز وجل :

إنه الغاية القصوى في نعيم الآخرة[1]، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة، يقول الله سبحانه : (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) .

إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها، كما يعجز الادراك عن تصورها بكل حقيقتها . ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة . حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل مافيها من ألوان النعيم .

هذه الوجوه الناضرة ، نضرها انها إلى ربها ناظرة ، إلى ربها ، فأي مستوى من الرفعة هذا ؟ أي مستوى من السعادة ؟ . إن روح الانسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الابداع الالهي في الكون أو النفس ، تراها في الليلة القمراء . أو الليل الساجي .

---

(١) ان رؤية الله سبحانه هي الغاية القصوى في الدار الآخرة . عن ابي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنّى أراه اخرجه مسلم .

وعن مسروق بن الاجدع رحمه الله قال : قلت لعائشة : « يا أمتاه ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قَفَّ شعري مما قلت أين انت من ثلاث من حدثكن فقد كذب ، من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت « لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير » « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » ومن حدثك أنه يعلم مافي غد فقد كذب ، ثم قرأت « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك » ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين » . وفي رواية قال : قلت لعائشة : فأين قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو ادنى » قالت : ذاك جبريل عليه السلام ، كان يأتيه في صورة الرجل وانه هذه المرة في صورته ، فَسدّ الافق » . وفي أخرى « ومن حدثك انه يعلم الغيب فقد كذب ، وهو يقول « لا يعلم الغيب الا الله » رواه البخاري ومسلم . (قفّ شعري) : قف الشعر : اذا قام في منابته . الفرية : اختلاق الكذب .

أو الفجر الوليد . أو الظل المديد أو البحر العباب . أو الصحراء المنسابة. أو الروض البهيج أو الطلعة البهية . أو القلب النبيل . أو الايمان الواثق . أو الصبر الجميل . الى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود ، فتغمرها النشوة وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور في عوالم مُجنَّحة طليقة . وتتوارى عنها أشواك الحياة ، ومافيها من ألم وقبح ، وثقلة طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء .

فكيف ؟ كيف وهي تنظر — لا إلى جمال صنع الله — ولكن إلى جمال ذات الله ؟ ألا إنه مقام يحتاج أولاً إلى مَدَد من الله . ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله ليملك الانسان نفسه ، ويستمتع بالسعادة التي لايحيط بها وصف ،ولا تتصور حقيقتها إدراك .

(وجوه يومئذ ناضرة) ، ومالها لا تتنضّر ، وهي إلى جمال ربها تنظر ؟ إن الانسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض ، من طلعة بهية ، أو زهرة ندية ، أو جناح رفاف ، أو روح نبيل ، أو فعل جميل . فاذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكون . مطلقاً من كل مافي الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الانسانية ذلك المقام، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز عليه الخيال ! وكل شائبة لا فيما حولها فقط ، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ماسوى النظر إلى الله .

فأما كيف تنظر ؟ وبأي جارحة تنظر ؟ وبأي وسيلة تنظر ؟ فذلك حديث لايخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذي يطلقه النص القرآني ، في القلب المؤمن ، والسعادة التي يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والانطلاق !

فما بال أُناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة؟ويشغلونها بالجدل !! إن إرتقاء الكينونة الانسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة ، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك . وقبل هذا الانطلاق

سيعز عليها أن تتصور ـ مجرد تصور ـ كيف يكون ذلك اللقاء .

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر ، وفيض الفرح المقدس الطهور ، ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض ، فهذا التطلع ذاته نعمة لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم .

فما بال أناس قد حجبت قلوبهم المعاصي والآثام حجبتها عن الاحساس بربها في الدنيا. وطمستها حتى اظلمت وعميت في الحياة ، (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجهه الكريم، وأن يُحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى، التي لا تُتاح إلا لمن شفّت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها . ممن قال فيهم : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وهذا الحجاب عن ربهم ، عذاب فوق كل عذاب ، وحرمان فوق كل حرمان ونهاية بائسة لانسان يستمد انسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم . فاذا حُجب عن هذا المصدر فَقَد خصائصه كانسان كريم ، وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم (ثم إنهم لصالوا الجحيم) ومع الجحيم التأنيب وهو أمرُّ من الجحيم ، (ثم يُقال هذا الذي كنتم به تكذبون) .

ثم هي الوجوه الكالحة المتقبضة التعيسة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها وارتكاسها وكثافتها وانطماسها (ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يُفعل بها فاقرة) ، وهي التي يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلاحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظن ، المحطمة للفقار . الفاقرة . وهي من التوقع والتوجس في كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص . .

فهذه هي الآخرة التي يذرونها ويهملونها، ويتجهون إلى العاجلة يحبونها ويحفلونها. ووراء هذا اليوم الذي تختلف فيه المصائر والجدود ، هذا الاختلاف الشاسع البعيد من وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة إلى وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة !

إن رؤية الله سبحانه هي أعلى مرتبـــة في نعيم الآخرة وقد بشّر بذلك الرسول ﷺ :

عن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا دخل أهلُ الجنة الجنة ، يقول تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدُكم ؟ فيقولون : ألم تُبيّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى) زاد في رواية (ثم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة[1])

قال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي أنبأنا أبو تميمة قال: سمعتُ أبا موسى الأشعري يخطب الناس في جامع البصرة ويقول : إن الله يبعث يوم القيامة ملكاً إلى أهل الجنة فيقول : ياأهل الجنة هل أنجزكم الله ماوعدكم فينظرون فيرون الحلي والحلل والأنهار والأزواج المطهرة فيقولون : نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا . ثم يقول الملك هل أنجزكم الله ماوعدكم ثلاث مرات فلا يفقدون شيئا مما وُعدوا . فيقولون: نعم. فيقول: قد بقي لكم شيء إن الله عز وجل يقول (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى[2] .

وعن عكرمة قال : قيل لابن عباس كل من دخل الجنة يرى الله عز وجل ؟ قال نعم[3] .

وعن عمارة بن عبيد قال سمعتُ علياً يقول : (من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى في جنته [4]) .

إن رؤية الله تبارك وتعالى هي الغاية التي شمّر اليها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون ، وتسابق اليها المتسابقون ، ولمثلها فليعمل العاملون . إذا ناله أهل الجنـة

---

(١) اخرجه مسلم والترمذي .

(٢) حادي الارواح الى بلاد الافراح لابن قيم الجوزيه ص ٢٣٣ .

(٣ — ٤) حادي الارواح الى بلاد الافراح لابن قيم الجوزية ص ٢٦٨ .

نسوا ما هم فيه من النعيم ، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً سألوا النبي ﷺ قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : (هل تضارُّون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا ، قال رسول الله ﷺ : فإنكم ترونه كذلك[1]) .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فنظر إلى القمر ليلة البدر ،وقال: (إنكم سترون ربكم عياناً ، كما ترون هذا القمر لا تضامُّون[2] في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا ، ثم قرأ : (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب[3]) .

إن هذه الرؤية العظيمة كانت دعاءً للرسول ﷺ وصحابته فكان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء : (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمتَ الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمتَ الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين[4]) .

وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ علَّمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال : (قل حين تصبح لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك والخير في يديك ومنك

---

(١) اخرجه ابو داود وهو حديث صحيح .

(٢) لا تضامونه : المعنى : انكم ترونه جميعكم لا يظلم بعضكم في رؤيته او لا يزدحم بكم في رؤيته .

(٣) اخرجه البخاري مسلم والترمذي .

(٤) اخرجه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما .

واليك ، اللهم وما قلتُ من قول أو نذرت من نذر أو حلفت من حلف فمشيتك بين يديه ، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شيء قدير ، اللهـــم وما صليتُ من صلاة فعلى من صليت ، وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ، أسألك اللهـــم الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أُظلم أو أعتدي أو يعتدى علي أو أكسب خطيئة محيطة أو ذنبـــاً لا تغفره ، اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام فإني أعهد اليك في هذه الحياة الدنيا وأشهد وكفى بك شهيدا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك . لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك وأشهد أن وعدك حق وأن لقـــاءك حق ، والجنة حق والساعة آتية لا ريب فيها وأنت تبعث من في القبور ، أشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعَورة وذنب وخطيئة ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم[1]) .

إن أهل الجنة حين يرون ربهم عز وجل ينسون ما هم فيه من النعيم ، فهو فيض ونعمة تغمر كل شيء : فعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أتاني جبريل وفي كفه كالمرآة البيضاء يحمل فيها كالنكتة السوداء فقلت ما هذه التي في يدك يا جبريل ؟ فقال : هذه الجمعة ، قلت وما الجمعة ، قال لكم فيها خير كثير ، قلت وما يكون لنا فيها ؟ قال : يكون عيداً لك ولقومك من بعدك ويكون اليهود والنصارى تبعاً لك ، قلت : ومالنا فيها ؟ قال : لكم فيها ساعة لا يسأل اللهَ عبدٌ فيها

(١) رواه ابو داود في سننه .

شيئاً هو له قسم إلا أعطاه إياه أو ليس له بقسم إلا ذخر له في آخرته ما هو أعظم منه، قلت ما هذه النكتة التي هي فيها ؟ قال : هي الساعة ونحن ندعوه يوم المزيد . قلتُ وما ذاك يا جبريل ؛ قال : إن ربك اتخذ في الجنة وادياً فيه كثبان من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه فيحف الكرسي بكراسي من نور فيجيء النبيون حتى يجلسوا على تلك الكراسي ويحف الكراسي بمنابر من نور ومن ذهب مكللة بالجوهر ثم يجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا على تلك المنابر ثم ينزل أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكثبان ثم يتجلى لهم عز وجل فيقول أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممتُ عليكم نعمتي وهذا محل كرامتي ، فسلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم فيفتح لهم في ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك بمقدار منصرفكم من الجمعة ثم يرتفع على كرسيه عز وجل ويرتفع معه النبيون والصديقون ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم وهي لؤلؤة بيضاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء وغرفها وأبوابها وأنهارها مطردة فيها وأزواجها وخدامها وثمارها متدليات فيها فليسوا بشيء بأحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا منه نظراً الى ربهم ويزدادوا منه كرامة[1]) .

يقول الامام المحاسبي (.. فلما أكلوا وشربوا ، شخصت أبصارهم وتعلقت قلوبهم ، ثم رفع الحجب ؛ فبينما هم في ذلك إذ رفعت الحجب فبدا لهم ربهم بكماله ، فلما نظروا إليه وإلى مالم يحسنوا أن يتوهموه ولا يحسنون ذلك أبداً لأنه القديم الذي لايشبهه شيء من خلقه ،فلما نظروا إليه ناداهم حبيبهم بالترحيب فيهم وقال لهم : مرحباً

---

(١) حادي الارواح الى بلاد الافراح لابن قيم الجوزية ص ٢٥٢ ، يقول ابن قيم الجوزية « هذا حديث كبير عظيم الشان رواه ائمة السنة وتلقوه بالقبول » (وجمّل به الشافعي مسنده) فرواه عن ابراهيم بن محمد وذكر نحو الحديث ثم قال الشافعي انبانا ابراهيم قال حدثني ابو عمران ابراهيم بن الجعد عن انس شبيها به وزاد فيه اشياء ورواه محمد ابن اسحاق) عن انس وقال فيه « ثم يتجلى لهم ربهم عز وجل حتى ينظروا الى وجهه الكريم » . وقد رواه عديد من الائمة . وقد جمع ابن أبي دؤاد طرقه .

بعبادي ، فلما سمعوا كلام الله بجلاله وحسنه غلب على قلوبهم من الفرح والسرور مالم يجدوا مثله في الدنيا ولا في الجنة ، لأنهم يسمعون كلام من لا يشبه شيئاً من الأشياء .
فتوهمهم ، وقد أطرقوا وأصغوا بمسامعهم لاستماع كلامه ، وقد علا وجوههم نور السرور لكلام حبيبهم وقرير أعينهم ،فلو توهمت نفسك وقد سمعت قول الله لأوليائه مرحباًبهم ثم طار روحك فرحاً به وحباً له لكان ذلك منه حقيراً وصغيرا عندما توهمته من نفسك عند استماع كلامه ، فحيّاهم بالسلام فردّوا عليه أنت السلام ومنك السلام ولك حق الجلال والاكرام .
فمرحباً بعبادي وزواري وخيرتي من خلقي الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتي وخافوني في الغيب وقاموا مني على كل حال مشفقين ، وقد رأيت الجهد منهم في أبدانهم أثرة لرضاي عنهم ،وقد رأيت ما صنع بكم أهل زمانكم فلم يمنعكم جفاء الناس عن حقي تمنّوا عليّ ماشئتم فلو رأيتهم وقد سمعوا ذلك من حبيبهم يذكرهم ما كانوا عليه في دنياهم من رعاية عهده وحفظه ودوام خوفهم منه وقد استطاروا فرحاً لما شكر لهم رعايتهم حقه ، وحفظ منهم خوفهم ، ورحب بهم محبة لهم ، إذ كانوا بذلك إياه في الدنيا يعبدونه ؛ استطارت قلوبهم فرحاً وسرورا إذ لم يفرطوا في طاعته ولم يقصروا في مخافته ، فاغتبطوا لما كانوا به لله في الدنيا يدينون من شدة خوفهم ورعاية حقه وحفظه ،فردّوا إليه الجواب مع سرور قلوبهم بالقسم لعظمته وجلاله ، أنهم قد قصدوا عما كان يحق له عليهم اعظاماً له واستكثارا، إذ أثابهم جنته وأكرمهم بزيارته وقربه واستماع كلامه ،فقالوا عند ذلك : وعزتك وجلالك وعظمتك وارتفاع مكانك ماقدرناك حق قدرك ، ولا أدّينا إليك كل حقك فأذن لنا بالسجود فقال لهم ربهم : إني قد وضعتُ عنكم مؤونة العبادة وأرحتُ لكم أبدانكم فطالما أتعبتمُ الأبدان وأكنتم لي الوجوه ، فالآن أفضتم إلى كرامتي ورحمتي فتمنوا عليّ ماشئتم –وفي بعض الحديث أنهم اذا نظروا إليه خرّوا فيناديهم بكلامه تبارك وتعالى: ارفعوا رؤوسكم ، ليس هذا حين عمل ، هذا حين سرور ونظر –
فتوهم بعقلك نور وجوههم ومايداخلهم من السرور والفرح حين عاينوا مليكهم، وسمعوا

كلام حبيبهم ، وأنيس قلوبهم ، وقرة أعينهم ، ورضا أفئدتهـــم ، وتسكن أنفسهم ، فرفعوا رؤوسهم من سجودهم ، فنظروا إلى من لايشبهه شيء بأبصارهم ، فبلغوا بذلك غاية الكرامة ومنتهى الرضا والرفعة . فما ظنك بنظرهم إلى العزيز الجليل الذي لايقع عليه الأوهام ، ولايحيط به الأذهان ، ولا تكيفه الفكر ، ولا تحده الفطن ، الأزلي القديم الذي حارت العقول عن إدراكه . فكلّت الألسنة عن تمثيله بصفاته ، فهو المنفرد بذاته عن شبه الذوات ، المتعالي بجلاله على مساواة المخلوقين ، فسبحانه لاشيء يعادله ، ولاشريك يشاركه ، ولاشيء يريـــده فيستصعب عليه أو يعجزه إنشاؤه ، استسلم لعظمته الجبارون ، وذلّ لقضائه الأولون والآخرون ، نفذ في الأشياء علمه بما كان وبما لا يكون ، وبما لو كان كيف كان يكون ، فأحاط بالأشياء علماً ، وسمع أصواتها سمعاً ...

فلما سرّ أولياء الله برؤيته وأكرمهم بقربه ونعّم قلوبهم بمناجاته ، واستماع كلامه ، أذنَ لهم بالانصراف إلى ما أعدّ لهم من كرامته ونعيمهم ولذاتهم ، فانصرفوا على خيل الدرّ والياقوت على الأسرّة فوقها الحجال ترف وتطير في رياض الجنان .

فما ظنك بوجوه نظرت إلى الله عز وجل وسمعت كلامه كيف ضاعف حسنها وجمالها ، وزاد ذلك في إشراقها ونورها .. فلو رأيت وجوههم وقـــد أشرقت بسرور كلام مولاهم .. فأعظم به من مجلس وأعظم به من جمع .. فكن إلى ربك مشتاقاً وإليه متحبباً .. وبالله التوفيق وإليـــه المصير ، والجنة مثوى المؤمنين وثواب المتقين وسرور المحزونين ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم (١)) .

* * *

(١) التوهم ص ٦٣ .

الباب السابع

المؤمنين واليوم الآخر

١ ـ الأسوة الحسنة

لقد عني القرآن بمشاهد القيامة ، البعث والحساب ، والنعيم والعذاب ، عناية واضحة . فلم يَعُد ذلك العالم الذي وعده الله الناس ، بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحياً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً . وعاش المسلمون في ذلك العالم عيشة كاملة . رأوا مشاهده وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة وسَرَى في نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أُخرى ، ولاح لهم من بعيد لفح النار ، ورفّت إليهم من الجنة أنسام ، ومن ثم باتوا يعرفون ذلك العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود ، وكانوا ينتقلون بحسّهم كله إليه ، كما ينتقل الإنسان من دار إلى دار ومن أرض إلى أرض ، في هذه الحياة المشهودة المحسوسة ، ولم يكن ذلك العالم مُستقبلاً موعوداً في حسّهم ، وإنما كان واقعاً مشهودا .

عن حنظلة بن الربيع الأسيدي رضي الله عنه وكان من كُتّاب رسول الله ﷺ قال : لقيني أبو بكر ، فقال : كيف أنت ياحنظلة ؟ قال : قلتُ : نافق حنظلة ، قال سبحان الله ما تقول ؟ قال نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا

رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ ، عافسنا[1] الأزواج والأولاد والضيعات[2] ، ونسينا كثيراً . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ « وما ذاك » ، قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي ، وفي التذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة — ثلاث مرات[3]) .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لشابٍّ من الأنصار : (كيف أصبحتَ يا حارثة) قال : أصبحت مؤمناً بالله حقاً قال : (انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة) قال : يا رسول الله : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرتُ ليلي وأظمأت نهاري وكأني بعرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتعاوون فيها . قال عليه الصلاة والسلام : (أبصرتَ فالزم،عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه) .

لقد عاش المسلمون في خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض في القرآن ، لقد كانوا يوقنون أنه في يوم القيامة لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

إن استعراض مشاهد القيامة في القرآن أمر عجيب مخيف ؛ إنها رحلة الحشر والحساب والجزاء ، وهكذا يرتاد القرآن الكريم بقلوب البشر يريها ما كان وما هو كائن وما سيكون ، لعلها تتذكر ، ولعلها تسمع للنذير .

---

(١) عافسنا : عالجنا ولاعبنا .

(٢) الضيعات : جمع ضيعة وهي الصناعة والحرفة .

(٣) اخرجه مسلم والترمذي .

إن وزن الدار الآخرة في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا .. (والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) (وللآخرة خيرٌ لك من الأولى) .. نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحّة في حيازة كل عَرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفّها عن البغي ؟ وما الذي يُهدِّئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفرّ من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى ؟ .

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضمّ الهائج وفي هذه المعركة الكبرى إلا اليقين في الآخرة ، وإنها خير للذين يتقون ، ويعفون ، ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون في الطريق لا يتلفتون مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين .

لقد عاش المسلمون الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة . عاشوا مشاهد الآخرة فعلاً وواقعاً . فلم تكن في نفوسهم وعداً أو وعيداً يتلقونها من مستقبل بعيد . إنما كان هذا وذلك واقعاً تشهده قلوبهم وتحسه وتراه ، وتتأثر وترتعش وتستجيب لمرآه . ومن ثم تحولت نفوسهم ذلك التحول ؛ وتكيفت حياتهم على هذه الأرض بذلك الواقع الأخروي ، الذي كانوا يعيشونه ويحيون به وهم بعدُ في الحياة ! وهكذا ينبغي أن يتلقى المسلم وعدَ الله .

إن أمر يوم القيامة أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجاً ، ويرعب الحس رعباً ، مشاهده ترجف له القلوب والله — سبحانه — يقسم على وقوع هذا الحادث لا محالة :

(والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) . فهو واقع حتماً ، لا يملك دفعه أحد أبداً. والأمر داهم قاصم ، ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشري بلا عائق فإنه يهزه ويضعضعه ويفعل به الأفاعيل ، قال الحافظ أبو بكر ابن أبي الدنيا : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن داود ، عن صالح المري ، عن جعفر بن زيد العبدي . قال : خرج عمر يعس بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : (والطور .. حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع) .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فنزل عن حماره . واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه . رضي الله عنه .. وعمر سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله ﷺ — يصلي بها المغرب . وعمر يعلم ويتأسى . ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلباً مكشوفاً وحساً مفتوحاً ، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت ، حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة ، التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة ، فتتخللها وتتعمقها ، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة ، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله ﷺ — فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها . فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر رضي الله عنه حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى ، فتهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ، وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ..

إن نفس المؤمن هي النفس اللوّامة المتيقظة الخائفة المتوجسة التي تحاسب نفسها ، وتتلفت حولها ، وتتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله ، حتى ليذكرها الله مع القيامة : (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة أيحسب الانسان ألّن نجمع عظامه) .

إن نفس المؤمن هي الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قدماً في الفجور ، والذي يكذب ويتولى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولا تحرّج ولا مبالاة ! يقول الحسن البصري: (إن المؤمن والله ماتراه إلا يلوم نفسه: ماأردت بكلمتي ؟ ماأردتُ بأكلتي ؟ ماأردتُ بحديثي ؟ وإن الفاجر يمضي قدماً مايعاتب نفسه) .

إن أمر الآخرة لعجيب عظيم يقول سبحانه — : (ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين) .. إنه مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم يقوم الناس متجردين لرب العالمين ، ليس لهم مولى يومئذ سواه، وليس بهم إلا التطلّع لما يجريه عليهم من قضاء ، وقد علموا أن ليس لهم من دونه وليّ ولا نصير .

إنه مجرد الظنّ بأنّهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفي أن يكفّهم عن أي عمل لايرضي الله .

وإن علة التطاول والتكذيب ، والغفلة عن الحق الواضح ، والانطماس ، أن غطّى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) والقلب الذي يرد على المعصية ينطمس ويظلم ، ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور ، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتبلّد ويموت .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت[1]) .

ولفظ النسائي : (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء . فإن

---

(١) رواه ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي حسن صحيح .

هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت .

قال حذيفة رضي الله عنه سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : (تُعرَض الفِتَن على القلوب كالحصير عوداً عوداً [١] ، فأي قلب أُشربها [٢] نكت فيه نكتةٌ سوداء [٣]. وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء ، حتى تصير على قلبين : أبيض مثل الصَّفا ، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر : أسود مُرباداً [٤] ، كالكوز مجخياً [٥] ، لايعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً ، إلا ماأُشرب من هواه [٦] ..)

ويقول ميمون بن مهران : (إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء ، فإن تاب محيت من قلبه ، فترى قلب المؤمن مجلى مثل المرآة ، مايأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره. وأما الذي يتتابع في الذنوب فإنه كلما أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فلا يزال ينكت في قلبه حتى يسود قلبه ولا يبصر الشيطان من حيث يأتيه) .

---

(١) (كالحصير عودا عودا) قال الحميدي : في بعض الروايات (عرض الحصير) والمعنى فيها : انها تحيط بالقلوب كالمحصور المحبوس ، وقوله عودا عودا : اي مرة بعد مرة ، تقول : عاد يعود عودة وعودا .

(٢) اشربها : اشرب القلب هذا الامر : اذا دخل فيه وقبله وسكن اليه ، وكأنه قد شربه .

(٣) اي اثر فيه اثر اسود وهو دليل السخط ولذلك قال في حالة الرضى : نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير القلوب على قلبين ، اي على قسمين .

(٤) الذي في لونه ربدة ، وهو بين السواد والغبرة .

(٥) المجخي : المائل عن الاستقامة والاعتدال هاهنا .

(٦) أخرجه مسلم .

٢ – بين الخوف والرجاء

لقد كان المسلمون يعيشون مع القرآن فعلاً وواقعاً . عاشوا مع الآخرة واقعاً محسوساً .. لقد كانوا يشعرون بالقرآن ينقل إليهم صوت النار وهي تسري وتحرق . وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . كما أحسّ عليه الصلاة والسلام برهبة هذا الأمر وقوته حتى أنه روي عنه أنه قال بعد أمْر الله له في سورة هود .. (فاستقم كما أمرت) روي عنه مشيراً إلى هذا الأمر (شيبتني هود) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله : أراك شبت ، فقال : شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وإذا الشمسُ كوّرت[1]) .. وفي رواية : عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله : أسرَع إليك الشيب ، فقال : (شيبتني هود وأخواتها : (الواقعة وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كوّرت) .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر ؟ قال المسلمون : يا رسول الله ! فما نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا[2]) .

إن الاستقامة هي الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف . وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحرّي الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً . ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة والنظر في كل أمر إلى الآخرة . والقرآن الكريم يضرب

---

(١) أخرجه البيهقي (حياة الصحابة ج٢ ص : ٦٨٦) كذا في البداية ج٦ ص : ٥٩ .

(٢) رواه الترمذي وقال حسن . كذا في البداية ج٦ ص : ٥٦ .

مثلًا للاستعلاء على عرَض الحياة الدنيا في أزهى صوره ، يضرب مثلًا للآخرة حين يراها المؤمن أو المؤمنة مثلًا خالداً للنعيم الذي لا نعيم غيره يقول سبحانه : (وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) .

فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي .. ولكنها استعلت على هـــذا بالإيمان . ولم تُعرض عن هذا العرَض فحسب بل اعتبرته شراً ودنساً وبلاء تستعيذ بالله منه ، وتتفلت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه !

إن آيات القرآن الكريم تنذر وتبشر لهذا اليوم الرهيب .. (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغَدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) .. وهو تعبير مجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا ، ونصيبه من البر ضئيلا ؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً ، ولا يكف عن النظر والتقليب .

لقد عمل القرآن عمله في تربية الجماعة المسلمة حتى أتت بالعجب العجاب ، لقد كان المسلم يعيش في حقيقة الآخرة فعلًا ، وكانت الآخرة في حِسّه واقعاً ، وكان يرى صورته تلك أمام نبيّه وأمام ربه ، فالآخرة كانت حقيقة يعيشها لا وعداً بعيداً . وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفّى ما كسبت وهم لا يظلمون . وكان هذا هو سرّ تقواه وخشيته (ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون) .

لقد كانوا يحسون الآخرة ويعيشون فيها فعلًا بمشاعرهم كأنهم فيها ، لا كأنها آتية لاريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد . وخوفهم من هول هذا اليوم المزلزل الرعيب .

أخرج الحاكم وقال : صحيح الإسناد والبيهقي من طريقه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن فتى من الأنصار دخلتْهُ خشية الله فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت فذكر لرسول الله ﷺ فجاءه في البيت ، فلما دخل عليه اعتنقه النبي ﷺ وخرّ ميتاً . فقال النبي ﷺ : جهِّزوا صاحبكم ! فإن الفرق [1] فلذ [2] كبده [3]) .

وأخرجه ابن أبي الدنيا وابن قدامة عن حذيفة رضي الله عنه فذكر نحوه ، وفي حديثه فأتاه النبي ﷺ فلما نظر اليه الشاب قام فاعتنقه وخرّ ميتاً ، فقال النبي ﷺ : جهِّزوا صاحبكم ! فإن الفرق من النار فلذ كبده ، والذي نفسي بيده لقد أعاذه الله منها ، من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه [4]) .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) .. تلاها رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فخرّ فتىً مغشياً عليه فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو يتحرك فقال رسول الله ﷺ : يا فتى ! قل : لا إله إلا الله ، فقالها فبشّره بالجنة . فقال أصحابه يا رسول الله ! أمِنْ بيننا ؟ فقال : أوَما سمعتم قوله تعالى (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد [5]) .

وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشتكى فدخل النبي ﷺ يعوده ، فقال : كيف تجدك يا عمر ؟ قال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمع الرجاء والخوف في قلب مؤمن إلا

---

(١) الفرق : الخوف .

(٢) فلذ : قطع .

(٣) كذا في الترغيب والترهيب ج ٥ ص : ٢٢٣ .

(٤) كذا في الكنز ج ٢ ص : ١٤٤ .

(٥) كذا في الترغيب ج ٥ ص : ١٩٤ .

أعطاه الله الرجاء وآمنه الخوف (١)) .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن الرومي قال : بلغني أن عثمان رضي الله عنه قال : (لو أني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير(٢)) .

وأخرج ابن عساكر عن قتادة قال : قال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : (لوددتُ أني كبش يذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسّون مرقي ! . قال : قال عمران ابن حصين رضي الله عنه : لوددتُ أني كنت رماداً على أكمة فتنسفني الريح في يوم عاصف (٣)) .

وأخرج أبو نعيم عن عامر بن مسروق قال : قال رجل عند عبد الله رضي الله عنه : (ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين : أكون من المقربين أحب إليّ ، قال : فقال عبد الله : لكن ههنا رجل ودّ لو أنه إذا مات لم يبعث – يعني نفسه) .

وعنده أيضاً عن الحسن قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لو وقفت بين الجنة والنار فقيل لي : اختر نخيرك من أيها تكون،أحب إليك أو أن تكون رماداً ! لأحببتُ أن أكون رماداً(٤)) .

وأخرج أبو نعيم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم ولا تقاررتم على فرشكم ! لوددتُ أن الله عز وجل خلقني يوم خلقني شجرة تعضد ويؤكل ثمرها (٥)) .

---

(١) كذا في الكنز ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) الحلية ج ١ ص ٦٠ واخرجه أيضا احمد في الزهد عن عثمان مثله ، كما في المنتخب (ج ٥ ص ١٠) .

(٣) كذا في المنتخب ج ٥ ص ٧٤ واخرجه ابن سعد ج ٣ ص ٤١٣ عن قتادة عن ابي عبيدة نحوه . وعند ابن سعد ج ٤ ص ٢٦ أيضا عن قتادة .

(٤) « الحليـة ص ١٣٢ ج ١ » .

(٥) الحلية ج ١ ص ١٦٤ .

وأخرج أبو نعيم عن حزام بن حكيم قال : قال أبو الدرداء رضي الله عنه : (لو تعلمون ما راؤون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ولخرجتم إلى الصعدات [1] تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددتُ أني شجرة تعضد ثم توكل [2]) .

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقال : (لوددتُ أني هذه السارية [3]) .

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم فيقول : (اللهم ! إن النار أذهبت مني النوم ؛ فيقوم يصلي حتى يصبح [4]) .

وعند أبي نعيم عن عمر رضي الله عنه قال : (لو نادى مناد من السماء : يا أيها الناس ! إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلاً واحداً لخفت أن أكون أنا هو ، ولو نادى مناد : أيها الناس ! إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا هو ! [5])

إنهم يتوجهون إلى الله في خشية وفي طمع يتنازعها الخوف والرجاء . الخوف من عذاب الله والرجاء في رحمته . والخوف من غضبه والطمع في رضاه . والخوف من معصيته والطمع في توفيقه .. (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) .

والتعبير القرآني يصور هذه المشاعر المرتجفة في الضمير بلمسة واحدة ، حتى لكأنها مجسّمة ملموسة .. (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

---

(١) الطرق .

(٢) الحلية ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) السارية : الاسطوانة ، أخرجه ابن سعد ج ٤ ص ١٢

(٤) الحلية ج ١ ص ٢٦٤ .

(٥) الحلية ج ١ ص ٥٣ .

إنها الصور المشرقة الوضيئة الحساسة الشفيفة . تدعوه سبحانه خوفاً من غضبه وعقابه . وطمعاً في رضوانه وثوابه (وادعوه خوفاً وطمعاً) .

يقول الإمام الغزالي : (ولا يسلم الناس من أهوال يوم القيامة إلا من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينيك ويرقّ قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فما هذا من الخوف في شيء ، بل من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته ؛ وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنتُ بالله اللهم سلّم سلّم ، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه . فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه ، فأنّى يغني عنه ذلك من السبع . وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقاً ، ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ، ومن اتخذ إلهَهُ هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه [1]) .

ويقول الغزالي : (إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيّتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان إلا أزمة الرجاء . ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف [2]) .

---

(١) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٦٥٢ .

(٢) احياء علوم الدين ج ٤ ص ١٧٧ .

٣ ـ حقيقة الرجاء وفضيلته

يقول الإمام الغزالي : (الرجاء هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء . قال ﷺ : (الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة) . وقال تعالى : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) .

فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاؤه المغفرة حمق .

قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عند التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط .

والخوف ليس بضد الرجاء بل هو رفيق له ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة ، فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له .

واعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له ، والحب يغلب الرجاء ، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت ، قال تعالى : (لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) :

عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ، ولا أبالي . يا ابن آدم ، لو أتيتني بقُراب[1] الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة[2]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (قال الله عزوجل: أنا عندَ ظنّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني . الحديث[3]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (حُسن الظنّ من حُسن العبادة [4]) .

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : (لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسنُ الظنّ بالله عز وجل[5]) .

وعن حيان أبي النضر قال : خرجتُ عائداً ليزيد بن الأسود فلقيت واثلة بن الأسقع وهو يريد عيادته ، فدخلنا عليه ، فلما رأى واثلة بسط يده وجعل يشير إليه ، فأقبل واثلة حتى جلس ، فأخذ يزيد بكفّي واثلة فجعلها على وجهه ، فقال له واثلة : كيف ظنك بالله ؟ قال : ظني بالله والله حسنٌ ، قال : فأبشر ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله جلّ وعلا : أنا عندَ ظنّ عبدي بي ، إن ظنّ خيراً فله ، وإن ظنّ شراً فله [6]) .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت ، فقال :

---

(١) قراب الارض : ما يقارب ملأها .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه ابو داود وابن حبان في صحيحه .

(٥) رواه مسلم وابو داود وابن ماجه .

(٦) رواه احمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(كيف تجدُك ، قال : أرجو الله يا رسول الله ، وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان في قلب عبد إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمّنه مما يخاف [1]) .

متى يكون الرجاء ؟

يقول الامام الغزالي : (اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة . وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه ، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها ، فاذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط ، وهذا الزمان [2] زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً ، قال علي كرم الله وجهه : إنما العالم الذي لا يُقنط

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والنسائي في الكبرى . قال الحافظ اسناده حسن ، وقال النووي : اسناده جيد .

(٢) زمان الغزالي كان قبل الف عام تقريبا فكيف بزماننا نحن الذي لم يبق للاسلام في القلوب الا اسمه ؟ .

الناس من رحمة الله ولا يؤمّنهم من مكر الله . وما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى : (قل يا عبادِ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) وقال عزوجل (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) .

وقال النبي ﷺ : (إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداؤك من النار[1]) . وفي رواية (لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (لو علمَ الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد[2]) .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (لو لم تذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون ليغفر الله لهم[3]) وفي لفظ آخر (لذهبَ بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم) .

قال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبويَّ لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما .

وفي الحديث (أن رجلين من بني اسرائيل تواخيا في الله تعالى ، فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره ، فكان يقول : دعني وربي ، أبُعثتَ عليَّ رقيباً ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لايغفر الله لك ، قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيستطيع أحدٌ أن يحظرَ رحمتي على عبادي ، اذهب أنت فقد غفرتُ لك ، ثم يقول للعابد : وأنتَ فقد أوجبتُ لك النار . قال : فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته[4]) .

(١) أخرجه مسلم .
(٢) متفق عليه .
(٣) اخرجه مسلم .
(٤) رواه ابو داود من حديث ابي هريرة باسناد جيد .

٤ ـ حقيقة الخوف

يقول الامام الغزالي : « اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال . وأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال ﷺ : «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له[١] » وقال «والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية[٢]» وكذلك قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات :

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيبَ الأرض من دموعه لم يُعذَّب يوم القيامة[٣] »

وعن أبي ريحانة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله ، وحرمت النار على عين سَهِرتْ في سبيل الله ، وذكر عيناً ثالثة[٤] » .

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لاترى أعينهم النار : عين حرست في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفّت عن محارم الله[٥] » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضّت عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين تخرجَ منها مثل

---

(١) اخرجه البخاري من حديث انس .

(٢) رواه الشيخان من حديث عائشة .

(٣) رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه احمد واللفظ له ، والنسائي والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٥) رواه الطبراني ، ورواته ثقات .

رأس الذباب من خشية عز وجل [١] » .

وعن أبي أمامـة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تهراق في سبيل الله ، وأما الأثران ، فأثر في سبيل الله ، وأثر في فريضة من فرائض الله عز وجل [٢] » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلجُ النار رَجل بكى من خشية الله ، حتى يعـود اللبَن في الضرع ، ولا يجتمـع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم [٣] » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقـول : « عينان لا تمسّهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله [٤] » .

وآثار الخوف على الجوارح بكفّها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه .. « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » .

فبذلك تحترق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح ، ويحصـل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مُستوعب الهمّ بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شُغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنّة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه

---

(١) رواه الاصبهاني .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح والنسائي وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره . هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه . وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين .

وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال ،وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال :أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الصالح عن المحظورات ورعاً[1] » .

« والورع له أربع مراتب : الأولى وهو الاحتراز عن الحلال الظاهر « اتق المحارم تكن أعبد الناس » . الثانية : ورع الصالحين وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات قال ﷺ « دع ما يريبك إلى مالا يريبك[2] » .

الثالثة :ورع المتقين وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام . قال ﷺ « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مما به بأس[3] » . وذلك مثل التورع من التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدي إلى مقارفة المحظورات. الرابعة: ورع الصديقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى مالا يفيد زيادة قرب عندالله عزوجل[4]» ، فهو لايبني مالايسكنه ولايجمع مالايأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً .

إذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضي الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل

(١) احياء علوم الدين ج ٤ : ١٩٥ .

(٢) رواه الترمذي وحسنه .

(٣) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي .

(٤) احياء علوم الدين ج ١ ص : ٢٥ .

محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً ، ووراءه اسم الصدّيق والمقرّب[1] » .

درجات الخوف :

يقول الإمام الغزالي : « الخوف هو سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والخوف له قصور وله افراط وله اعتدال ، والمحمود هو الاعتدال والوسط . فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع . وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فانك إن قلت « لا » كفرت ، وإن قلت « نعم » كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح من المعاصي ويقيدها بالطاعات ، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل

واعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه ، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة وأغلب المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فان الأمر فيه مخطر وإليه أشار النبي ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن

(١) احياء علوم الدين ج ٤ : ١٩٥ .

أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم، ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة ، وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة ، السعيد من سعيد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله ، والأعمال بالخواتيم[1]) .

وقد أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال : (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) وقال عز وجل (وخافون إن كنتم مؤمنين) . فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان ؛ فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه .

وقال أبو سليمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

عن خارجة بن زيد رضي الله عنه أن أم العلاء — امرأة من الأنصار — بايعت النبي ﷺ ، أخبرته : أنه اقتسم المهاجرون قرعة ، فطار لنا عثمان بن مظعون ، فأنزلناه في أبياتنا ، فوجع وجعه الذي توفي منه ، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه ، دخل رسول الله ﷺ ، فقلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، فشهادتي عليك : لقد أكرمك الله ، فقال النبي ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فمن يكرمه الله ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير ، والله ما أدري — وأنا رسول الله ما يفعل بي ؟ قالت : فوالله لا أزكي أحداً بعده يا رسول الله[2]) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : لما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) قال : أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة

---

(١) اخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال : حسن صحيح غريب .
(٢) اخرجه البخاري .

والسلام : قمْ فابعث بعث النـــار من ذريتك ، فيقول : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنـــة) قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون [١]) .

فالبكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرا) وقال تعالى (يبكون ويزيدهم خشوعاً) وقال عز وجل (أفمن هـذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله : الامام العــادل ، وشابٌ نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه [٢]) .

وروي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله بمَ أتقي النار ؟ قال (بدموع عينيك ، فإن عيناً بكت من خشية الله لا تمسها النار أبداً [٣]) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : (أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابكِ على خطيئتك [٤]) .

٥ ــ الرحمة الالهية

إن الله سبحانه هو المالك ، لا ينـازعه منازع ، ولكن ــ فضلاً منه ومنّة ــ كتب على نفسه الرحمة . كتبها بارادته ومشيئته ، لا يوجبها عليه موجب ؛ ولا يقترحها

«١و٢» متفق عليه .

(٣) رواه ابن إبي الدنيا والاصبهاني .

(٤) رواه الترمذي وابن ابي الدنيا ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

عليه مقترح ، ولا يقتضيها منه مقتضى – إلا ارادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة – وهي الرحمة – قاعدة قضائه في خلقه ، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة .. والاعتقاد إذن بهذه القاعدة يدخل في مقومات التصور الاسلامي ، فرحمة الله بعباده هي الأصل ، حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضرّاء .

على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال . فما من لحظة إلا وتغمر العباد فيها الرحمة وسنحاول أن نقف قليلاً أمام هذا النص القرآني العجيب : (كتب على نفسه الرحمة) وقد تكرر وروده في موضع آخر .. (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ..

إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل .. تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده .. تفضله – سبحانه – بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة .. مكتوبة عليه .. كتبها على نفسه ، وجعلها عهداً منه لعباده ، بمحض ارادته ومطلق مشيئته ، وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأملها وتذوق وقعها ، حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة .

كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في إخباره لعباده بما كتبه – سبحانه – على نفسه من رحمته . فإن العناية بإبلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل آخر ، لا يقل عن ذلك التفضل الأول ! فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يُبلَّغوا ما جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى ؟ وأن يبلغوا بكلمات منه سبحانه يحملها اليهم رسوله ؟ من هم ؟ إلا أنه الفضل العميم ، الفائض من خلق الله الكريم ؟ ! وإن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش ، كما يدعه في أنس وفي روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه ! ومثل هذه الحقائق ، وما تثيره في القلب من مشاعر ، ليس موكولاً إلى التعبير البشري ليبلغ شيئاً في تصويره ، وإن كان القلب البشري مهيئاً لتذوقه ، لا لتعريفه ! وتمثُّل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي

يُكوّن جانباً أساسياً من تصور حقيقة الألوهية ، وعلاقة العباد بها ، وهو تصور جميل مطمئن ودود لطيف .. ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً ، وتسعهم جميعاً ، وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم . وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات . فأما في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها ، ولكننا نذكر منها لمحات في مجاليها الكبيرة .

إنها تتجلى ابتداء في وجود البشر ذاته . في نشأتهم من حيث لا يعلمون . وفي إعطائهم هذا الوجود الانساني الكريم ، بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الانسان على كثير من العالمين . وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للانسان ، من قوى الكون وطاقاته . وهذا هو الرزق في مضمونه الواسع الشامل . الذي يتقلب الانسان في بحبوحته في كل لحظة من لحظات حياته . وتتجلى في تعليم الله للانسان ، بإعطائه ابتداء الاستعداد للمعرفة ، وتقدير التوافق بين استعداداته هذه واتجاهات الكون ومعطياته . هذا العلم الذي يتطاول به بعض المناكيد على الله ، وهو الذي علمهم إياه ! وهو من رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك

وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض ، بموالاة إرسال الرسل اليه بالهدى ، كلما نسي وضلّ ، وأخذه بالحلم كلما لجّ في الضلال ، ولم يسمع صوت النذير ، ولم يصغ للتحذير . وهو على الله هين . ولكن رحمة الله وحدها هي التي تمهله ، وحلم الله وحده هو الذي يسعه .

وتتجلى في تجاوز الله — سبحانه — عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب ، وبكتابة الرحمة على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب . وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها ، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها . والمضاعفة بعد ذلك لمن يشاء . ومحو السيئة بالحسنة .. وكله من فضل الله .. فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته . حتى رسول الله ﷺ كما قال عن نفسه ، في معرفة كاملة بعجز البشر وفضل الله .

والاقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها، وإعلان القصور والعيّ عنها ، هو أجدر وأولى . وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئاً ! وإن لحظةً واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن ، فتصل به ، ويعرفه ، ويطمئن إليه — سبحانه — ويأمن في كنفه ، ويستروح في ظله.. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمليها واستجلائها ، فضلاً على وصفها والتعبير عنها . فلننظر كيف مثّل رسول الله ﷺ لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاً ما :

أخرج الشيخان باسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : (لما قضى الله الخلق — وعند مسلم : لما خلق الله الخلق — كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي) وعند البخاري في رواية اخرى (إن رحمتي غلبت غضبي) .

وأخرج الشيخان — باسناده عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جعل الله الرحمة مئة جزء . فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) .

وأخرج مسلم باسناده عن سلمان الفارسي — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله مئة رحمة . فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم وتسعة وتسعون ليوم القيامة) . وله في أخرى : (ان الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مئة رحمة ، كل رحمة طباق مابين السماء والأرض . فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض . فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة) .

وهذا التمثيل النبوي الموحي ، يقرب للادراك البشري تصور رحمة الله تعالى .. ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية ويتملاها ويعجب لها ، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة ، والضعف والمرض ، وبالأقرباء والأوداء والأصحاب ، وبرحمة الطير والوحش بعضها على بعض — ومنها ما يدعو الى الدهش والعجب — ثم

يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه .. فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئاً ما . وكان رسول الله ﷺ لا يني يعلم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى :

أخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي . فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها ،إذ وجدت صبياً في السبي،فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال ﷺ : (أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟) قلنا : لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه . قال : (فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها) . وكيف لا وهذه المرأة إنما ترحم ولدها من فيض رحمة واحدة من رحمات الله الواسعة .. ومن تعليم رسول الله ﷺ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية ، بهذا الأسلوب الموحي، كان ينتقل بهم خطوة أخرى ،ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته ، ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعاً،ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل .

أخرج أبو داود والترمذي عن ابن عمرو بن العاص — رضي الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الله تعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) .

وأخرج الشيخان والترمذي عن جرير رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يرحم الله من لا يرحم الناس) .

وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال ﷺ : (لا تنزع الرحمة إلا من شقي) .

ولم يكن ﷺ يقف في تعليمه لأصحابه — رضوان الله عليهم — عند حد الرحمة بالناس . وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء. وأن المؤمنين مأمورون بأن يتخلقوا بأخلاق الله ، وأن الانسان لا يبلغ تمام انسانيته إلا حين يرحم كل حي تخلقا بخلق الله سبحانه . وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التي عهدناها :

أخرج مالك والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه — قال : قال رسول الله

ﷺ : (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلـــغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفـّه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له) قالوا : يارسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال : (في كل كبد رطبة أجر) .

وفي أخرى : «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر ، قد أدلع (أي أخرج) لسانه من العطش فنزعت له موقـها (أي خفـّها) فغفر لها به » .

وأخرج أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه - رضي الله عنه - قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر . فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما . فجاءت الحمرة تعرّش (أو تفرش) - (أي ترخي جناحيها وتدنو من الأرض) فلما جاء رسول الله ﷺ قال : (من فجع هذه بولدها ؟ ردّوا ولدها إليها) . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : من أحرق هـــذه ؟ قلنا : نحن . قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا ربّ النار) .

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (قرصت نملة نبياً من الأنبياء . فأمر بقرية النمل فحرقت . فأوحى الله تعالى اليه : أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبّح ؟) .

وهكذا علّم رسول الله ﷺ أصحابه هدي القرآن . ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة .. أليس أنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمات الله الكثيرة ؟ !

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه - حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء ، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار - فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة ، وكل حالة ، وكل وضع ، وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلّى عنه ، أو طرده من رحمته . فإن الله لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها . إنما يطرد

الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها! وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل، وبالهدوء والراحة.. فهو في كنف ودود، يستروح ظلاله، مادام لا يبعد عنه في الشرود!

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله. فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرىء على المعصية – كما يتوهم البعض – إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم. والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الايمان الحقيقية! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجُّون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم، أو المغفرة، أو الرحمة.. إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية!

ومن هذه الرحمة المكتوبة، ذلك الجمع الذي لا ريب فيه. ذلك الجمع الذي يشي بما وراءه من عناية الله سبحانه – بعباده من الناس، فقد خلقهم لأمر، واستخلفهم في هذه الأرض لغاية، ولم يخلقهم عبثاً، ولم يتركهم سدى. ولكن يجمعهم إلى يوم القيامة فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون إليه كما يفيء الراحل إلى وجهته – فيعطيهم جزاء كدحهم إليه، ويعطيهم أجر عملهم في دار الدنيا. فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر، إنما يوفون أجورهم يوم القيامة. وفي هذه العناية تتجلى الرحمة في مظهر من مظاهرها.. كما أن ما يتجلى من فضل الله في جزاء السيئة بمثلها، والحسنة بعشرة أمثالها، والأضعاف لمن يشاء، والتجاوز عما يشاء لمن يشاء.. كل أولئك من مظاهر الرحمة التي تتجلى في هذا الجمع أيضاً.. (قل: لمن مافي السموات والأرض؟ قل: لله. كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه).

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقله الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع.

يدرك ضعف هذا المخلوق فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه . حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة .. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفىء ، وأن نداوة الايمان ما تزال في قلبه لم تجف ، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل ، وأنه يعرف أنه عبد يخطىء وأن له رباً يغفر .. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطىء المذنب بخير .. إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل ، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه ، والحبل في يده ، ما دام يذكر الله ولا ينساه، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته .. (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) .

بالسماحة هذا الدين ! إن الله سبحانه لايدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته — سبحانه وتعالى — معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا : إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين (الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها، من رحمة الله . ولا تجعلهم في ذيل القافلة . قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . مرتبة (المتقين) .. على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته . أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم ، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء .. وفي عبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله ، والاستسلام له في النهاية ، فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله .

انه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة، ولا يلقيه منبوذاً حائراً في التيه ! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب .. إنه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق،

ويأخذ بيده المرتعشة ، ويسند خطوته المتعثرة ، وينير له الطريق ، ليفيء إلى الحمى الآمن ،ويثوب إلى الكنف الأمين .. شيء واحد يتطلبه ألا يجف قلبه ، وتظلم روحه ، فينسى الله .. وما دام يذكر الله . ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي . مادام في ضميره ذلك الهاتف الحادي . ما دام في قلبه ذلك الندى البليل .. فسيطلع النور في روحه من جديد ، وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد ، وستنبت البذرة الهامدة من جديد.

إن طفلك الذي يخطىء ويعرف أن السوط – لا سواه في الدار .. سيروح آبقاً شارداً لا يثوب إلى الدار أبداً . فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يداً حانية ، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب ، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة . فإنه سيعود ! وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه . فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة ، وبجانب الثقلة رفرفة ، وبجانب النزوة الحيوانية أشواقاً ربانية .. فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده الى مراقي الصعود، ويربت عليه في لحظة العثرة ليلحق به إلى الأفق من جديد . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! والرسول ﷺ يقول: (ما أصرّ من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة[1]) .

والإسلام لا يدعو – بهذا – إلى الترخص ، ولا يمجد العاثر الهابط ، ولا يهتف له بجمال المستنقع ! كما تهتف « الواقعية » ! إنما هو يقيل عثرة الضعف ، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء ، كما يستجيش فيها الحياء ! فالمغفرة من الله – ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ – تخجل ولا تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة في وجوههم الأسوار ! ..

---

(١) رواه ابو داود والترمذي والبزار في مسنده من حديث عثمان بن واقد ، وفي سنده صحابي مجهول ولكن ابن كثير في تفسيره صححه . وقال : « حديث حسن » .

وهكذا يجمع الاسلام بين الهتاف للبشرية الى الآفاق العلا ، والرحمة لهذه البشرية التي يعلم طاقتها . ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً ، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها . إن الاسلام لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخاطئات ، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين تائبين ، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على سلوكه ، ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم — متى أخلصوا فيها — حقاً عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم . وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد .. (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . فأولئك يتوب الله عليهم . وكان الله عليماً حكيماً) .

إن التوبة التي يقبلها الله ، والتي تفضّل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس ، فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى . قد هزّها الندم من الأعماق ، ورجّها رجاً شديداً حتى استفاقت فثابت وأنابت ، وهي في فسحة من العمر ، وبحبوحة من الأمل ، واستجدّت رغبة حقيقية في التطهر ، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد .. والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب .. وهناك ما يشبه الاجماع على أن الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى — طال أمدها أم قصر — ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم .. والذين يتوبون من قريب : هم الذين يتوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت ، ويدخلوا في سكراته ، ويحسوا أنهم على عتباته . فهذه التوبة حينئذ هي توبة الندم ، والانخلاع عن الخطيئة ، والنية على العمل الصالح والتكفير .. وهي إذن نشأة جديدة للنفس ، ويقظة جديدة للضمير .. (فأولئك يتوب الله عليهم) يمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر ، ولا يطردهم أبداً وراء الأسوار ، وهم راغبون رغبة حقيقية في الحمى الآمن والكنف الرحيم .

إن الله — سبحانه — لا يطارد عباده الضعاف ، ولا يطردهم متى تابوا اليه وأنابوا . وهو — سبحانه — غني عنهم ، وما تنفعه توبتهم ، ولكن تنفعهم هم أنفسهم ،

وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذي يعيشون فيه . ومن ثم يفسح لهم في العودة الى الصف تائبين متطهرين .

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : (إني تبتُ الآن) .. فهذه التوبة هي توبة المضطر ، لجّت به الغواية ، وأحاطت به الخطيئة ، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة . وهذه لا يقبلها الله ، لأنهـــا لا تنشىء صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة ، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه .. والتوبة إنما تقبل لأنها البـــاب المفتوح الذي يلجه الشاردون الى الحمى الآمن ، فيستردون أنفسهم من تيه الضلال ، وتستردهم البشرية من القطيع الضال تحت راية الشيطان ، ليعملوا صالحاً - إن قدّر الله لهم امتداد العمر بعد المتاب - أو ليعلنوا - على الأقل - انتصار الهداية على الغواية . إن كان الأجل المحدود ينتظرهم ، من حيث لا يشعرون أنه لهم بالوصيد (ولا الذين يموتون وهم كفار) .. وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم وبين التوبة من وشيجة ، وضيّعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة .

إن القرآن يفتح باب التوبة على مصراعيه ، وباب المغفرة على سعته ، وتطمع كل مذنب تائب في العفو والقبول .. (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) .

إنه - سبحانه - موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصـــده مستغفر منيب .. والذي يعمل السوء يظلم غيره . ويظلم نفسه . وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التي لا تتعدى شخصه .. وعلى أية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين ، ويغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه تائبين . هكذا بلا قيـــد ولا شرط ولا حجاب ولا بواب ! حيثما جاءوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفوراً رحيما .

الفهرس

تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة

هاتف : ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ص. ب : ٧٤٦٠ - برقياً : بيوشران